

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اڭْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الثامن والأخير

يوليوس قيصر وأفريقيا
نهاية الممالك الأهلية

الرباط، 2007



مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية
سلسلة تاريخ المغرب

تاريخ
شمال أفريقيا القديم

تأليف
اصْطيفان اگْصيل

ترجمة
محمد التازي سعود

HISTOIRE ANCIENNE
DE L'AFRIQUE DU NORD

Par Stéphane GSELL

الجزء الثامن والأخير

يوليوس قيصر وأفريقيا
نهاية الممالك الأهلية

الرباط، 2007

أكاديمية المملكة المغربية

العنوان : شارع الإمام مالك، كلم 11، ص. ب. 5062

الرمز البريدي 10100

الرباط – المملكة المغربية

تليفون 75.51.46 (037) / 75.51.99 (037)

البريد الإلكتروني : **E-mail** : alacademia@iam.net.ma

فاكْس 75.51.01 (037)

اسم الكتاب : «تاريخ شمال أفريقيا القديم»

أصله الفرنسي : "Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord"

تأليف : اصْطيفان اگْصيل Stéphane Gsell

ترجمه إلى العربية : محمد التازي سعود

التصفيف الضوئي : أكاديمية المملكة المغربية

السحب : مطبعة المعارف الجديدة، الرباط

الإيداع القانوني : 2007/2610

ردمك : 9981-46-052-4 (المجموعة)

ردمك : 9981-46-062-1 (الجزء الثامن والأخير)

محتويات أجزاء

كتاب "تاريخ شمال أفريقيا القديم"

لاصْطيفان اگْصيل

الكتــاب الأول

يوليوس قيْصر وأفريقيا

الفصل الأول

إفريقيا بِيد أنْصار پومْپي

1

اندلعت الحرب الأهلية في بداية سنة 49 ق.م بين يولْيوس قَيْصر وپومْپي Pompée. وقبل اندلاعها بقليل، كان على مجلس الشيوخ أن يهتم بشؤون إفريقيا.

لم يكن في الناس من يجهل أن الملك النوميدي يوبا Juba كانت لديه أسباب قوية تحمله على كراهية قيْصر. وفي اجتماع فاتح يناير اقترح البعض أن يُعترف بهذا الملك «حليفا وصديقا» ومعنى ذلك أن يظهر له أن القوم يعتمدون على عَوْنه. كما اقترح أيضا أن فاوسْتوس كرنيليوس سولا Faustus Cornélius Sylla، وهو ابن الدكتاتور سولا وصهر پومْپي، يذهب على عجل إلى موريطانية، أملا لاشك في أن الصداقة التي ربطت بين أبيه والملك بوكوس ستضمن له اقتبالا حسنا عند بوگود Bogud وبوكوس الفتى اللذين خلفاه على الملك. لكن القنصل

ك. كلوديوس مَرْسلوس C. Claudius Marcellus برغم كونه عدواً لقيْصر فإنه عارض الاقتراح الأول، كما أن الاقتراح الثاني عارضه الخطيب ل. ماريوس فِلِبوس L.M.Philippus ولاشك أنهما كانا لا يريدان إشراك الأجانب Barbares في الشؤون الداخلية للجمهورية.

كانت إدارة ولاية إفريقيا Africa آنذاك تحت نظر كنْتوس ليگاريوس Q. Ligarius. فقد قدم إليها صحبة البروبريطور ك. كُنْسيدْيوس لُنْگوس C.C. Longus بصفته نائبا مفوضا Légat عن هذا الأخير.

وتطبيقا للقانون، فإن كُنْسيدْيوس عند عودته إلى روما – في نهاية سنة 50 أو قبلها على ما يحتمل – قد ترك ليگاريوس ليقوم بالنيابة إلى أن يصل خَلَفه. وعندما أنجز مجلس الشيوخ في يناير سنة 49 قائمة أسماء البريطورين القدماء الذين سيوزعون فيها بينهم بالقرعة الولايات البريطورية Provinces Prétoriennes، كانت إفريقيا من نصيب أحدهم وهو ل. آيلْيوس توبيرو L. Aelius Tubero ولكنه تباطأ في الذهاب لحيازة ولايته بسبب سوء حالته الصحية على ما يحتمل.

فوصلها قبله ب. أتْيوس ڤاروس P.Attius Varus الذي كان منذ بضع سنين حاكما على إفريقيا. ولما عبر قيْصر نهر الرّوبِكون Rubicon كلف مجلس الشيوخ ڤاروس أن يوقف قيْصر، وذلك بأن يحشد الجنود ويحتلّ أوكسيموم Auximum (جنوب أنكون)، غير أن رؤساء المدينة طلبوا منه أن ينسحب، ولذلك لم تجد إحدى طلائع جيش قيْصر مشقة في التغلب عليه، لأن جيوشه تخلت عنه. وقد جرى هذا في بداية شهر فبراير، فاتجه فاروس بعد ذلك مباشرة إلى إفريقيا. والمظنون أنه كان قد ترك بها ذكريات طيبة، لأنه قوبل بها مقابلة حسنة، رغما عن أنه لم تكن له أية صبغة رسمية يحتج بها، حتى أن هتافات الجماهير

باسمه في أوتيكا قد قامت له مقام التنصيب. فوضع ليگاريوس نفسه رهن إشارته.

وعندما وصل توبيرون صحبة ابنه كنتُوس إلى أوتيكا منعهما ليگاريوس من النزول إلى البر تنفيذا لتعليمات فاروس، ومنعهما حتى من الدخول إلى الميناء. ومع أن كنتوس كان مريضا فإن ليگاريوس لم يأذن لهما حتى بالتزود من الماء. فابتعدا إذن، واتجها إلى مقدونيا ليلتحقا ببومبي.

أما الحاكم السابق كُنْسيدْيوس لُنْگوس فإنه كان أكثر توفيقا عندما وصل، لأن فاروس وافق على اقتسام السلطة معه بالولاية. وقد بتّ مجلس الشيوخ على ما يحتمل في شأنهما، بأن جعلهما مساعدين للقائد الأعلى پومْپي، ولو أن قيادته إسمية. ويشير أحد النقوش الإفريقية – الذي لابد أن يؤرخ بسنة 49 أو 48 – إلى أنهما يحملان لقب نائب عن البريطور بالتفويض Legatus pro praetor.

كان لابد من أخذ الاستعدادات لحماية إفريقيا من هجوم يقوم به القيْصريون. ولذلك فإن فاروس، نظرا لمعرفته بالأرض والناس، وبفضل المساعدات المقدمة له عن طواعية، استطاع أن يحشد بسرعة فيلقين بالولاية، بالإضافة إلى فيلق آخر كان بها، وكانت مهمته على ما يحتمل هي حماية إفريقيا في وقت السلام. وتركز أحد الفيالق الثلاثة في هدروميت (سوسة) مع كُنْسيديوس الذي يظهر أن نائبه السابق ليگاريوس قد أضيف إليه. كما احتفظ فاروس بالفيلقين الآخرين تحت أسوار أوتيكا. ووقع الشروع في جعل القواعد البحرية في حالة تمكنها من مقاومة الهجمات، كما تكوّن أسطول صغير من عشر سفن حربية عتيقة، عثر عليها فاروس بأوتيكا وأمر بإصلاحها. فرابضت في كُلوبْيا

(قليبية Clupea)، وهو أكثر الموانئ قربا من صقلية التي سينطلق منها الهجوم، وأسندت قيادة هذا الأسطول إلى ابن عم قاهر بلاد الغال، يوليوس قيْصر Lucius Julius Caesar الذي كان قد هاجر إلى إفريقيا، كما فعل كثير من الوجهاء بعد ضياع إيطاليا من يد اليُمْپاويين. وأخيرا عقد فاروس حلفا مع يوبا الذي كان على أتم الاستعداد لإبرامه. وقد بعث الملك للقائد الروماني جيوشا مساعدة، وأخذ أهبته للتدخل في الحرب إذا دعا الأمر.

2

في بضعة أسابيع تم لقيْصر الاستيلاء على إيطاليا، وبقي عليه أن يدحر فيالق پومْپي في أسبانيا، قبل أن يذهب ليدحر پومْپي نفسه فيما وراء البحر الأدرياتي، كما كان عليه أن يمنع أعداءه من تجويع رومة التي وقعت في قبضته، وذلك بأن يسرع لينتزع منهم الولايات التي تزود بالقمح، وهي إفريقيا وصقلية وسردانية، فكلف كوريون Curion بصقلية وإفريقيا.

كان ك. سْكريبونْيوس كورْيو C. Scribonius Curio يبلغ من العمر آنذاك خمسا وثلاثين سنة تقريبا. وكان ابناً لأحد القناصل السابقين، وذا موهبة كبيرة للحياة السياسية التي هيأه مولده لها، وكان ذا مظهر جذاب، وذكاء حاد، وبلاغة سلسة براقة، قال عنها سيسرون Cicéron إنها كانت تنقصها الخدمة، ولكنه كان يعرف كيف يجتذب الجماهير، كما كانت له جرأة تسترها رقة في العمل خالية من العنف. وصحيح أنه كان يبدو عليه كثيرا حب التمتع بالحياة، فكان ماجنا مبذرا. وحينما استلحقه قيْصر للعمل معه كان ما عليه من الديون أكثر مما على غيره من

الرومانيين. ويقال إن ذهب بلاد الغال هدّأ دائنيه. وفي سنة 50 أصبح كوريون خطيبا فساند مصالح البروقنصل (قيْصر) بمقدرة، وبعد أن انضم إليه في راڤينا Ravenne كان هو الذي حمل عنه إنذاره إلى مجلس الشيوخ يوم فاتح يناير 49 ق.م.

أصبح بمستطاع قيْصر أن يعتمد على هذا الرجل الذي ارتمى بكليته بجانبه، والذي يبدو أنه كان يخلص له إخلاصا صادقا. ولعل قيْصر اعتبر أن لِكوريْون من الحصافة ما يمكنه من قيادة أحد الجيوش ولو لم يتعلم ذلك. ولعله ظن أن هذا القائد المرتجل لن يكون عليه أن يواجه أعداء يخشى منهم. ومع ذلك فإنه اهتم بأن أصحبه بواحد من أحسن مساعديه في حرب بلاد الغال وهو ك. كانينْوس ريبلوس C.Caninius Rebilus.

نال كوريْون في بداية أبريل لقب بْروبْرايطور (بريطور بالنيابة) الذي أسبغه عليه مجلس الشيوخ القيْصري لاشك، وذهب قيْصر إلى أسبانيا، بينما اتجه كوريون إلى صقلية. وكان رهن إشارته ثلاثة فيالق وربما أربعة منها. وعلى كل حال فقد كان معه أربعة فيالق بعد ذلك بقليل. وكادت أغلبية هذا الجيش تكون مكونة من الفرق الثلاثين التي أنشأها اليومپيون على عجل في موسطة إيطاليا، وجعلت تحت قيادة القنصل : ل. دوميتيوس آهينوباربوس L. Domitius Ahenobarbus وكانت في نهاية فبراير قد استسلمت بِكورْفينْيوم Corfinium وكان صيسا Cesa قد اتخذ التدابير لتوجيهها إلى صقلية. ولم يغير لهذا الجيش حتى إطار قيادته باستثناء بعض قادة المئة Centurion. هؤلاء الجنود إذا كانوا من المجنّدين حديثا، وكان إخلاصهم مشكوكا فيه.

استولى كوريون على صقلية من غير عناء، أما كاتون Caton الذي كان مجلس الشيوخ قد بعثه إليها، فكانت تنقصه الوسائل للمقاومة، فغادر سِرَقوسة Syracuse في 23 أبريل (أي 3 مارس من التقويم المعدل)، وذلك بمجرد ما علم أن طليعة للجيش القيْصري قد نزل بمسّينا بقيادة الشاب أسينْيوس پولْيون Asinius Pollion وذهب ليلتحق بپومْپي في المشرق.

كانت الاستعدادات للعبور إلى إفريقيا قد أنجزت على يد كوريون بأقصى السرعة الممكنة. ولا يذكر أي نص تاريخ حملته هذه التي لم تزد على أسبوعين غير أننا نعلم أنه توصل في إفريقيا نفسها بالأخبار التي عرفته بانتصار قيْصر في أسبانيا. والمعلوم أن القادة اليومْپيّين استسلموا في إلارْدَة Ilerda يوم ثاني غشت بالتقويم الرسمي أي 10 جوان، واستطاع كوريون أن يعلم بخبر ذلك بعد اثني عشر يوما. وكانت الحرارة شديدة في منطقة أوتيكا، والقمح لم يحصد ولكنه كان ناضجا، وهذا يناسب أن يكون الوقت هو النصف الثاني من شهر جوان. ولهذا فنحن نجعل – وعلى وجه التقريب – الأحداث التي سنرويها بين 13 و28 من شهر جوان (أي 5-20 غشت بالتقويم الرّسمي).

نعرف هذه الأحداث على الخصوص بفضل الرواية المفصلة التي تكوّن قسما من «تعاليق» Commentaires قيْصر على الحرب الأهلية، وهي تعاليق كتبت في أواخر حياة الدكتاتور ونشرت بعد وفاته. ولاشك أنه أثناء مقامه بأوتيكا سنة 46 قد زار الأماكن التي عسكر بها كوريون، وحارب بالقرب من هذه المدينة، أما عن الأحداث فلاشك أنه رجع بشأنها إلى ذكريات واحد أو أكثر ممن بقوا على قيد الحياة بعد الحملة. ويمكن أن يكون منهم كانينْيوس وأسينْيوس پولْيون، ويمكن أنّ قيْصر

طلب مذكّرات مكتوبة استعملها فيما كتب. ولم يكن لديه الوقت الكافي لمراجعة عمله كما يريد. ولربما حدث له أن أدخل مؤقتا وبدون تغيير في الشكل بعض الجمل المأخوذة من المذكرات التي كتبها بأمر منه من شاهدوا المعركة. وقد ظن البعض أنهم اكتشفوا في قصة معركة كورْيون ألفاظا وتراكيب ليست من أسلوب قيْصر. ولكن ليس هناك حجج قوية تؤكد أن هذه القصة كلها قد كتبها غيره. ولهذا فيجب أن نرفض قطعياً عَزْوها إلى أسينْيوس پولْيون الذي حكم حكما قاسيا على دقة «التعاليق»، والذي لم يذكر اسمه في هذا المؤلف، برغم أنه لعب في الحملة على صقلية وإفريقيا دورا يرى أنه لا يمكن إهماله. ومن ناحية أخرى، فإنه لا مجال للشك في كون إحدى الخطب الطويلة المعزوة لكوريون هي من إنشاء قيْصر[1]. فهي في آن واحد تبرئة لكوريون بعد موته وتمجيد لقيْصر. لأن هذا الأخير قد ارتكب عن عمد أو سهو خطأً في التاريخ حينما أورد ذكر أحد الانتصارات وهو لم ينله بعد[2].

أما لوكانْ Lucain في مؤلَّفه «فَرْصال»، ودِيون كاسْيوس في تاريخه فلا شك أنهما أخذا عن تيتْ ليفْ الذي فُقدت روايته، تلك الرواية التي ربما لا تختلف عمّا كتبه قيْصر. لذلك يُرجّح أن تيتْ ليفْ استعمل «التعاليق» وأدخل عليها إضافات من عنده.

أما أپْيان Appien فإن عرضه السريع يحتوي على جزئيات محتملة الوقوع، ولكنها غير موجودة فيما كتبه قيْصر. ولعل هذه التفصيلات مستقاة من تاريخ الحرب الأهلية الذي كتبه أسينْيوس پولْيون. وأپْيان في هذه الحقبة قد استفاد بكثرة مثلما فعل بلوتارك Plutarque مع كاتب إغريقي [3] مجهول يظهر أيضا أنه استقى من پولْيون، ففيما يتعلق بحملة كوريون، فإن مساهمة پولْيون فيها ذُكِرت عند أپْيان بكثير من العطف

الذي يسهل تفسيره إذا كان المعني قد اهتم بإطلاع قرائه على ذلك. ونجد كذلك عند أپْيان بعض جمل لا تتساوق مع ما ترويه التعاليق. فالغالب على الظن أنها أخطاء يجب عَزْو أكثرها إلى الإهمال البالغ عند أپْيان نفسه، على أن بعضا من هذه الأخطاء – يمكن أن نحمله إذا شئنا للكاتب الذي نقل أپْيان عنه، والذي قد يكون نقل عن پولْيون.

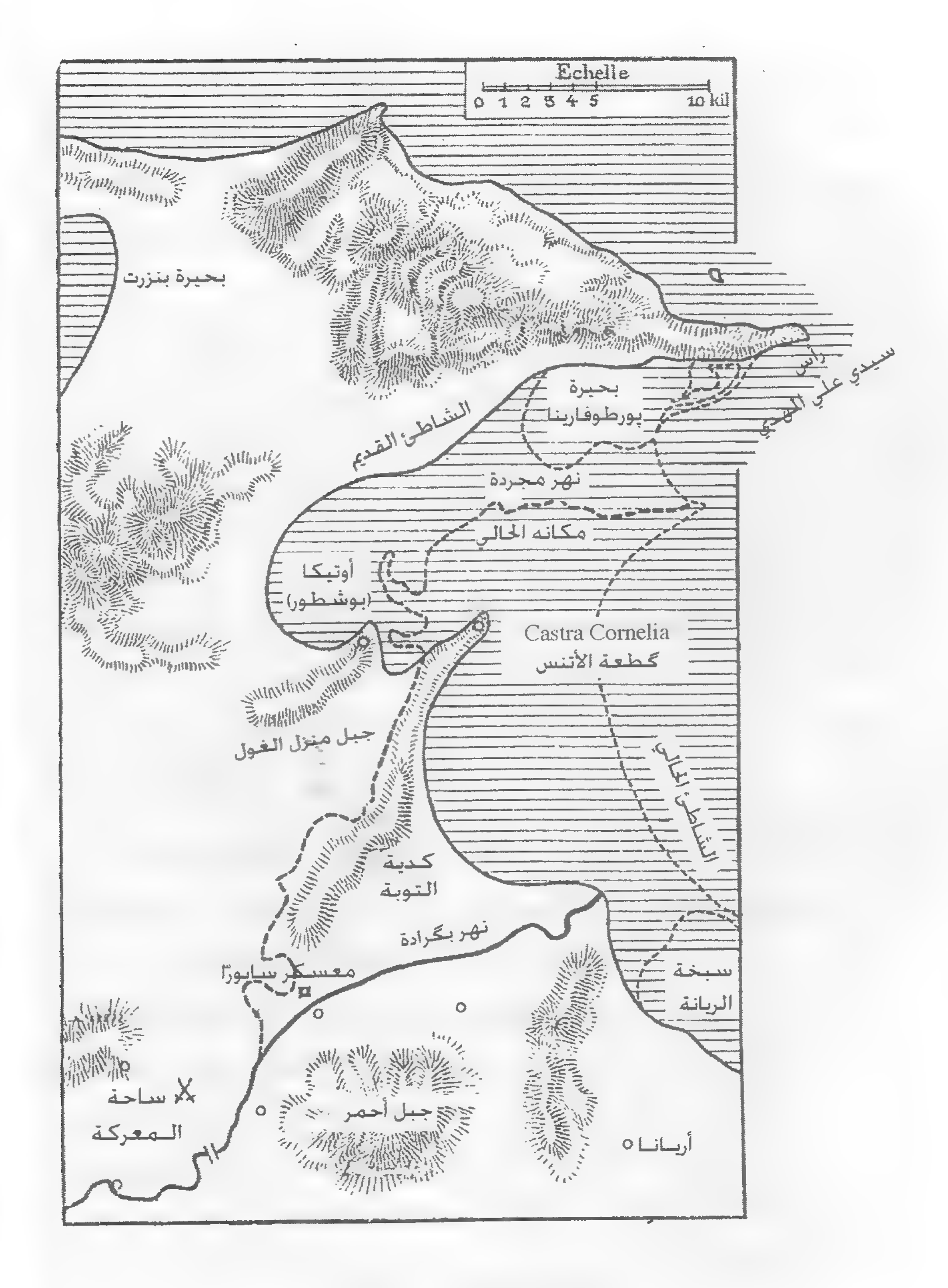
نقل كوريون معه إلى إفريقيا فيلقين اثنين من فيالقه الأربعة، وخمس مائة فارس، أغلبهم – إن لم يكن جميعهم – من الغاليين والجرمانيين، وربما حتى بعض الجنود من المشاة الخفاف. فعلى أكثر تقدير لا يتجاوز الجيش 10.000 رجل وكانت سفن نقل الجنود في حراسة اثنتي عشرة سفينة حربية. واستغرق العبور مدة يومين وثلاث ليال لقطع مسافة 160كيلومترا تقريبا. ونحن نجهل لماذا طالت المدة كل هذا الطول، ولكن العبور جرى من غير أن تحدث خسارة.

كانت هضبة الرأس الطيّب هي أقرب أرض إفريقية إلى صقلية، وكانت كثيرة البعد عن أوتيكا وهَدْروميت (سوسة) كما كانت كذلك في قبضة فيالق پومْپي التي تمنع لاشك كوريون من النزول بها[4]. فنزل بمكان يدعى أنْكيلاريا Anquillaria بين مرتفعين في جُون موجود إما بشمال الهضبة – حيث كان آكتوكْليس قد نزل – وإما بالشمال الغربي[5]. وكان ل. يوليوس قيْصر يراقب البحر قرب كلوپيا (قليبية)، فلم يجرؤ على إقحام أسطوله الصغير في إحدى المعارك. ولما قارب الساحل ارتطمت السفينة التي كان يركبها – وكانت ذات ثلاثة صفوف من المجاديف Trirème – فالتحق عن طريق البر بهدروميت التي وصلتها سفنه الأخرى. أما المتصرف المالي مَرْكيوس روفوس Marcius Ruffus الذي كان من قبل يطارده بأسطول كوريون، فإنه اكتفى بجر السفينة المتروكة وإعادتها.

وصدر إليه الأمر بالذهاب بسفنه إلى أوتيكا، بينما تتّجه إليها الجيوش براً. وقد وصلت الجيوش إلى نهر باگْراد (مَجَرْدَة) بعد سير دام ثلاثة أيام على ما يحتمل، وعسكرت بالقرب من النهر، بحيث لم تكن سوى على بعد أربعة فراسخ من أوتيكا.

ترك كوريون فيالقه تحت قيادة المفوض Légat كانينْيوس ريبُلوس C.Rebilus وذهب هو ومعه خيالته بقصد الاستطلاع على كاسترا كورْنيلْيا Castra Cornelia [6] وهي المكان الذي سبق لِسيپْيون الإفريقي أن عسكر به أثناء الحرب البونيقية الثانية على مرتفع ضيق بشرق أوتيكا[7]. والمسافة من هذا المكان إلى المدينة ثلاثة كيلومترات فحسب في خط مستقيم، ولكن المستنقعات التي يجب تلافيها تضاعف المسافة ثلاث مرات. والموقع يسهل الدفاع عنه من ناحية البر، ويضمن المواصلات مع صقلية، كما أنه مزوّد بالماء الكافي، وقريب من الملاحات وتحيط به الأشجار التي تعطي الخشب، ثم إنه يشرف على السهل الذي كان آنذاك مُغطّى بالقمح.

كان كوريون ورجاله من فوق المرتفع يرون أوتيكا ومعسكر ڤاروس Varus المقام بالشمال الشرقي للمدينة بين سورها والملعب قريبا من باب كان يدعى «باب بِليكا» Porta Bellica، كما كانوا يرون على طرق البادية جموع الفلاحين الذين أرعبهم قدوم الجيوش القيْصرية، فذهبوا إلى أوتيكا يلتجئون بها وهم يحملون كل ما يريدون النجاة به. وكان ذلك فرصة للحصول على الغنائم، فأرسل كريون فُرسانه على هؤلاء الفلاحين 600 فارس و400 من المشاة النوميديين الذين كان يوبا قد بعث بهم إليه. وجرت المعركة بين الفرسان، فتراجع الأفارقة عند الصدمة الأولى، وقتل منهم 120، وفرّ الباقون إلى معسكر ڤاروس. غير أن كوريون الذي كانت



خارطة حملة كورِيون (Curion)

سفنه الحربية قد اقتربت من أوتيكا، أصدر الأمر إلى السفن التجارية الراسية بالميناء - وكان عددها نحو من مئتين - إن تقلع وأن تذهب لترسو عند المعسكرات الكُرْنالية، وإلا، فإنه سيعاملها معاملة الأعداء. فنفذ أمره دون تراخ، مما جعل رهن إشارته خيرات كثيرة.

وعند عودته للمعسكر حياه الجيش بلقب إمبراطور Imperator[8] ولاشك أن هذا الانتصار السهل الذي ناله بفضل فرسانه الخمس مئة لا يستحق كل هذا التشريف.

كان استطلاعه على كسترا كورنيليا قد مكنه من معرفة مزايا هذا الموقع، لإقامة معسكر يكون به في أمان كبير، انتظارا للساعة المناسبة لعمل حاسم. ومع ذلك فإنه لم يقد جيشه في الغد لهذا المرتفع، بل قاده إلى أسوار أوتيكا. ويخبرنا أَپْيان(*) أن جيش اليومپيين اعتقدوا أن عدوّهم سيعمل للاستيلاء على الكاسترا، فسمموا المياه ليمنعوا كوريون من البقاء بالمكان. ولكن المتأكد أنه أقام به عدة أيام من بعد. ولهذا يظهر أن هذا التسميم للمنابع كان أسطورة.ويمكن إذن أن نفرض أن كوريون إذا كان قرر أن يزحف بسرعة على أوتيكا، فذلك لأن انتصاره بالأمس قد جعله يأمل القضاء بسرعة على فاروس.

فاختار لإقامة معسكره مكانا قريبا من المدينة عند جنوبها. وقبل أن تتم إقامة المعسكر وردت جماعة من الفرسان الرواد، وأخبروا أن قوات عظيمة من الخيالة والمشاة - بعث بها الملك يوبا - تقترب من أوتيكا.

(*) Apien : Bell. Civ. II, 44.

ولم يمر وقت طويل حتى ظهر هؤلاء الأعداء فبعث عليهم كوريون فرسانه. وفي نفس الحين أوقف العمل بالمعسكر، وشرع في تصفيف جنود فيالقه، غير أن النوميديين أخذوا يتقهقرون لما باغتتهم الخيالة التي حملت عليهم. وإذا كان الفرسان قد كاد أكثرهم أن ينجو ويلتجئ إلى المدينة، فإن كثيرا من المشاة قد قتلوا.

وفي الليل فرّ اثنان من قواد المائة مع اثنين وعشرين من الرجال، وقدموا على أتيوس فاروس، وأكدوا له أن جنود كوريون مستعدون جميعا للتخلي عن قائدهم، وأن هذا التخلي يسهل إحداثه إذا توجه الجيشان، فاقتنع فاروس بقولهم، وخرج في اليوم الموالي مع فيالقه. وكذلك فعل كوريون. فصففا جيوشهما على جانبي شعب ضيق جدا له حافات وعرة وقعر مُستوٍ، ويمتد عند الجنوب الشرقي للمدينة، على نحو من 600 متر جنوب معسكر اليومْپيين.

كان سكْستوس كِنْتيلْيوس ڤاروس Sextus Quintilius Varus متصرفا ماَليا، وكان يوجد بكُرْفينْيوم Corfinium مع دوميتْيوس آهنوبَرْبوس Domitius Ahenobarbus فسمح له قيْصر بعد الاستسلام أن يذهب لحال سبيله فانتقل إلى إفريقيا وفي تنقله هنا وهناك على الضفة كان يستحلف رفقاءه القدماء أن يتذكروا يمينهم التي أعطوها له ولِدوميتْيوس، ووعدهم بالجزاء الحسن إذا انفصلوا عن هؤلاء الذين يستخدمونهم ويحتقرونهم. ولكن لم يستجب له أحد. وأعاد القائدان جنودهما للمعسكر.

ومع أن جنود فيالق كوريون لم يستجيبوا لنداء كِنْتيليوس، فإنهم كانوا مضطربين جدا، وحدثت بالمعسكر بلبلة تصحبهاَ أحاديث عنيفة وقلق شديد، لأن الإشاعات المخيفة سرت بين الناس.

لذلك رأى البروبريطور أن من اللازم عقد المجلس الحربي، فكان من رأي بعض أعضائه أن الأزمة يجب أن لا تدوم ويجب الهجوم على معسكر فاروس، لأن المغامرة بالسلاح أفضل للقادة من أن يتخلى عنهم رجالهم، فيسقطوا في يد أعدائهم. وأراد أعضاء آخرون الانسحاب ليلاً إلى كاسترا كورنيليا كي يتيحوا للأفكار وقتا تهدأ فيه. وإذا اقتضى الأمر، فإن السفن العديدة التي تحت إمرتهم تمكن الجيش من التراجع إلى صقلية. فذمّ كوريون كلا الرأيين، معتبرا أن أحدهما متهور، والآخر جبان، لأن موقع معسكر فاروس يظهر حصينا جدا. فالإخفاق إذن ممكن، وبذلك يحدث الانحراف في الجيش كله. أما التراجع إلى كاسترا فيكون معناه الفرار المهين اليائس، وعدم الثقة في الجند، ثم إن السير بالليل قد يساعد بعضهم على الفرار. ولما أتم كوريون كلامه إذن للأعضاء بالانسحاب.

ثم أمر بالجنود أن يتجمعوا، وتحدث إليهم بالخطاب الذي أعاد كتابته صاحب «تعليقات»[9] بعدما استوحى الظروف، وإن كان ذكر الحجج التي استعملها كوريون أن قلقهم في غير محله، لأن كل شيء في هذه الحملة قد سار حتى الآن على ما يرام، ولأنهم قد حيوه بلقب إمبراطور. وليس من الصواب ما يتهمون به من أنهم نكثوا بعهدهم الذي أعطوه لدوميتْيوس، لأن هذا الأخير هو الذي أراد أن يتخلى عنهم لجبنه، وهم قد انضموا إلى قيْصر والحرب مشكوك في نهايتها، ولن ينفصلوا عنه الآن وانتصاره لاشك فيه.

ولعل الجيش كان على غير علم باندحار اليومْپيين في أسبانيا، ولو علموا به لما حدث بينهم كل ذلك الاضطراب على ما يظهر. وربما أن القائد نفسه كان قد وصلته الأخبار الأولى، فسارع بإخبار رجاله بها

على ما يظهر. وعلى كل، فإن كوريون كان رجلا قويا بليغا، فاستطاع أن يؤثر ويقنع. فأعلن الجنود إخلاصهم وشجاعتهم. وبتأكده منهم قرر أن لا يؤجل المعركة.

وفي الغد أتى بهم إلى الشِّعب حيث سبق له أن قادهم. ففعل مثله فاروس، إما لأنه كان ينتظر من الخصم أن تتخلى عنه جيوشه، أو لأنه كان يأمل الانتصار. وانتظر كل من الجيشين أن يعزم الآخر ويعبر الحفير الفاصل بينهما.

وأخيرا نزل من الجناح الأيسر لجيش فاروس كلُّ الخيالة وعدد كبير من المشاة المسلحين بسلاح خفيف. فبعث عليهم كوريون بدوره خيالته وفرقتين من الجنود. فلوى الفرسان اليومْپيون أعنتهم على عجل تاركين المشاة الذين أحيط بهم وذُبحوا، الأمر الذي أحدث الهلع والفرار العام في جيش فاروس. وأخذ ريبلوس يصيح على كوريون أن ينتهز الفرصة، بينما انطلق هو يسبق الجميع. وأخذ القيْصريون يثبون إلى الشِّعب ويرفع بعضهم بعضا فيعبرون الجرف الوعر المواجه لهم. ولكنهم لم يصلوا إلى اللحاق بالأعداء الذين تسارعوا إلى معسكرهم، وازدحموا عند بابه، وداس بعضهم بعضا. فمات منهم هكذا أكثر ممن هلك في المعركة، وذهب من بينهم آخرون إلى المدينة يلتجئون بها. وقد قال قيْصر إن فاروس خسر تقريبا 500 قتيل و1000 جريح. ولم يخسر كوريون سوى جندي واحد، شخص يدعى فابيوس. ذلك أن هذا الرجل استطاع أن يختلط بالفارين، وأخذ ينادي فاروس بصيحات عالية، كما لو كان من جيشه، ويريد مكالمته في شيء، فالتفت القائد وسأله عما يريد، فوجه فابيوس حدّ سيفه نحو فاروس، غير أن هذا الأخير وقى نفسه بترسه. أما الآخر فأحيط به وقتل.

لم يكن مع القيْصريين أدوات للهجوم، وكان معسكر الأعداء حصينا جدا، داخلا ين سور المدينة والملعب، ولا يمكن الاستيلاء عليه بهجوم مفاجئ، فأصدر كوريون الأمر بالتراجع. ومع ذلك فإن كثيرا من جنود فاروس لم يأمنوا على أنفسهم بهذا المعسكر، وفروا منه إلى أوتيكا جماعة بعد أخرى. فلما رأى قائدهم ذلك قرر أنه إذا كان يريد أن لا يصير عما قريب كالوحيد، فالأفضل له أن يفعل مثلهم، وفي وسط الليل أخلى المعسكر من دون جلبة، وقاد جنوده إلى المدينة.

وما أن حلّ اليوم الموالي حتى شرع كوريون في محاصرة أوتيكا. وكان سكانها غير ميالين للحرب، ويخشون الأخطار التي تهددهم، وزيادة على ذلك، فإنهم كانوا يجنحون إلى قيْصر الذي سبق لهم أن نالوا بفضله بعض الفوائد. فكانوا جميعا يتحدثون جهرة عن الاستسلام، ويلحّون على فاروس أن لا يجلب عليهم الشرور بعناده.

ولكن في نفس الحين وصل بريد يوبا يعلن به الملك أنه آتٍ بقوات عظيمة، ويدعو أوتيكا إلى الصمود.

ولقد رأينا من قبل أن يوبا سبق له أن بعث إلى فاروس فرسانا ومشاة. أما الآن فإنه يرتمي بنفسه في المعركة. كان يبغض قيْصر، وربما كان يبغض أكثر منه كوريون الذي طلب - حين كان نقيبا في السنة الماضية - أن تستولي رومة على نوميديا. وقبل أن يغادر كوريون صقلية، كان يوبا لاشك على علم بمشروعه في الحملة على إفريقيا، فحشد جيشا استطاع أن يسيره بمجرد ما علم بنزول القيْصريين وسيرهم إلى أوتيكا.

كان كوريون أيضا على علم باقتراب يوبا. وحسب كاتب «التعاليق» فإن كوريون لم يصدق بذلك أول الأمر، لاعتقاده أن الملك لن يجرؤ، وكان يزيد في طمأنته تلك الأخبار الحسنة التي كانت تَرِد على معسكره من *أسبانيا*. غير *أن أخبارا أخرى أكيدة أعلمته أن الجيوش النوميدية* توجد على أقل من 25 ميلاً من أوتيكا. وبهذا، فلا يمكن أن يعرض بجيشه الصغير للوقوع بين عَدُوّين. فأقلع إذن عن الحصار، وذهب إلى كاسترا كورنيليا، وهو المكان الأمين الذي يستطيع فيه انتظار النجدات. وقد أمر فعلا أن يبعث إليه من صقلية بالفيلقين والخيالة الذين مكثوا هناك.

كان في هذا القرار صواب، ولكن كوريون لم يتمسك به لسوء الحظ، فقد ورد عليه الموالون من أوتيكا، وأكدوا له أن يوبا عاد لمملكته، إذ دعاه لهذه العودة خلافات حدثت مع بعض الجيران، وأن مساعده سابورا Saburra هو الذي قدم لنجدة المدينة على رأس جيوش قليلة العدد. فصدق كوريون هؤلاء الناس الذين لاشك أنهم لُقنوا ما يقولونه قبل أن يُبعثوا إليه، وقرر القتال.

وأثناء ذلك كان «البربار» Barbares قد تقاربوا. كان سابورا وهو على رأس جيش كالطليعة، قد عسكر على الشاطئ الأيمن بنهر باگرادا على نحو 10 أميال جنوبي أوتيكا، أما يوبا، فخلافاً لما قاله الموالون، كان قد تبعه بجميع جيشه، وتوقف على 6 أميال من ذلك المكان، وأغلب الظن على الشاطئ الأيمن للنهر حيث أن مَعبراً أو جسراً على ما يحتمل كان يضمن العبور.

في بداية الليل بعث كوريون فرسانه على المعسكر الوحيد الذي يعرفه للأعداء، وهو الذي كان سابورا يقيم به. فارتمى الفرسان على النوميديين الذين لم يكونوا قد اتخذوا أية حيطة، وباغتوهم وهم نائمون،

فقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا بعضا منهم، كما اضطروا للفرار جمعا كبيرا، ثم عادوا إلى كوريون.

لم يكن القائد قد انتظرهم، وكأنمى الحمى كانت تحثه للقضاء على النوميديين قبل أن يتصلوا بفاروس. وفي القسم الرابع من الليل (أي حوالي الساعة الثالثة منه) سار بجميع قواته باستثناء خمس فِرَقٍ تركها لحراسة المعسكر. ولاشك أن هذا السير بالليل لم ينتبه له فاروس الذي لم يتدخل لمساندة حلفائه، كما أن هذا السير أقل تعبا من السير في شمس شهر يونيو.

سار كوريون مع متن المرتفعات الممتدة من الشمال للجنوب إلى سبعة أميال من معسكره. وعند نهاية ستة أميال لقي فرسانه عائدين من نفس الطريق إلى كاسترا كورنيليا، فعلم منهم ما جرى. أما الأسرى الذين سألهم ليعلم من هو قائد معسكرهم، فقد أجابوا أنه سابورا. فلم يحاول أن يعلم أكثر من ذلك واتجه بالخطاب إلى جنوده، وقال لهم إن هذا الخبر يؤكد رأي الموالين وهو أن الملك بعيد. فليس بالمكان سوى قلة من الجيش لم تستطع الصمود أمام حفنة من الفرسان، وأنه سيسهل القضاء عليهم.

وحث على السرعة في المشي ليقع على النوميديين قبل أن ينجلي عنهم الذعر، كما أمر الفرسان أن يذهبوا معه، ولكن هؤلاء، نظرا لسيرهم منذ بداية الليل، وجدوا تعبا في متابعة السير، فتوقف كثير منهم منهوك القوى بينما كان المشاة يتقدمون.

وبمجرد ما علم يوبا بهجوم الفرسان القيْصريين، بعث إليه 2000 من الفرسان الأسبانيين والغاليين الذي يكوّنون حرسه الشخصي، كما

بعث إليه من المشاة من رآهم أحسن كفاية، وتبعهم هو على مهل مع بقية جيشه و60 فيلا. وقد ظن سابورا أن الذين هاجموا معسكره ليسوا سوى طليعة، فأعاد ترتيب جيوشه وأخذ يتراجع بها شيئا فشيئا. فاقترب بهذا من الملك، وفي نفس الحين جعل نفسه في وضع أحسن للقتال، إذ كان يجر الرومانيين من ورائه إلى سهل فسيح.

اعتقد كوريون حقيقة أن النوميديين يخشون الدخول معه في المعركة، فوثق من نفسه ونزل عن المرتفعات، وأخذ يتابع الأعداء. وبعد سير 16 ميلا (أي 24 كم) من كاسترا كورنبليا، لزم أن يتوقف ليريح رجاله قليلا. فقد كان آنذاك بالسهل الذي تتراوح سعته ما بين 5-6 كيلومترات، والذي يمتد بين نهر مَجَرْدة وجبال الشاوات، عند الشمال الشرقي للمكان المعروفة اليوم باسم الجديدة.

فصفف سابورا جيشه الصغير للمعركة، على أنه لم يقحم فيها سوى الخيالة. أما جنود كوريون، فمع تعبهم أظهروا استعدادهم للقيام بواجبهم، غير أن الفرسان لم يكونوا سوى 200. وحيثما حملوا كانوا يُرجعون المهاجمين على أعقابهم، لكن المؤسف هو أنهم ليسوا قادرين على متابعة المتراجعين لأن دوابهم يعوقها تعبها الشديد عن القيام بالمجهود اللازم. وشرعت خيالة الأعداء في الإحاطة بالقيْصريين. وكلما انفصلت بعض الفرق عن معظم الجيش وتقدمت إلى الأمام محاولة كسر هذا الحصار، كان النوميديون يتنكبون هجومهم بسرعة، ثم يتكتلون من جديد ويأتون لمحاصرتهم.

واستمر وصول الإمدادات التي كان يبعثها يوبا إليهم، بينما الرومانيون يضعفون. ورأى كوريون أن رجاله أصابهم الذعر، وأنهم لا

يستمعون لأمر، ولا يصغون لرجاء، فقرر أن يلتجئ إلى الجبال المجاورة (جبال الشاوات) غير أن خيالة سابورا كانت قد احتلت هذه المرتفعات قبله.

كل شيء إذن قد ضاع. فبعض الجنود يفرّون ويقتلهم النوميديون الذين يلاحقونهم، وبعضهم يسقطون وهم في صفوفهم. فأشار قائد الخيالة على كوريون بالفرار مع بعض الرجال الذين لا يزالون حولهما. ولكن كوريون أجاب أنه لن يستطيع الظهور أبدا أمام قيْصر بعد أن أضاع الجيش الذي أسنده إليه قيْصر، ومات وهو يحارب. أما ريبلوس C. Rebilus وپوليون A. Pollion وقليل جدا من الفرسان فقد واتاهم الحظ وخرجوا سالمين، بينما الآخرون الذين أرغمتهم حالة دوابهم على التوقف في الطريق، فإنهم رأوا الكارثة من بعيد وعادوا إلى المعسكر. لم يبق رجل واحد من المشاة، وقُطع رأس كوريون وحُمل إلى يوبا، أما بدنه فلم يدفن.

وخطب المتصرف المالي م. روفوس Rufus الذي كانت حراسة كسترا كرناليا قد أسندت إليه، وحث الجنود على عدم الاستسلام لليأس. ولكنهم جميعا صرخوا عاليا وطلبوا أن يركبوا البحر ويعادوا إلى صقلية، فوعدهم روفوس بذلك، ثم أمر أصحاب السفن أن يستعدوا لأول الليل. وبلغ الهلع إلى حد أن كل خبر كاذب كان يجد من يصدقه. فمن ذلك أن جيوش يوبا تقترب، وأن فاروس يزحف بفيالقه، وأن البعض كان يرى حتى سحابة الغبار التي تثيرها هذه الفيالق، وأن أسطول العدو سيظهر! فكل واحد لا يفكر إلا في سلامة نفسه. والسفن الحربية تسرع لتخوض البحر، وذلك أسوأ مثال للسفن التجارية. وفي الوقت المحدد لم ينبعث عنها سوى عدد قليل من القوارب، غير أن كثيرا منها غرق لما ازدحمت

عليها جموع الناس الذين غض بهم ساحل البحر. وخشي بحارة القوارب الأخرى أن يحدث لهم مثل ذلك، فامتنعوا عن الرسو بالساحل. وقد استطاع بعض الجنود الوصول عوماً إلى السفن، وأخيرا فإن قلة من الناس هي التي حظيت بالذهاب، على أنهم لم يَصِلوا جميعا إلى صقلية سالمين، فقد قيل إن البحارة رموا بالمسافرين إلى البحر بعد أن سلبوا منهم أموالهم.

أما الذين لم يستطيعوا امتطاء السفن، فقد بعثوا أثناء الليل إلى فاروس يخبرونه أنهم يستسلمون. وذلك ما قد فعلوا. ولما رأى يوبا في الغد كل هؤلاء الناس أمام أوتيكا، ادعى أنهم له لأنه انتصر عليهم، وقتلهم باستثناء الفرسان الجرمانيين والغاليين الذين بعث بهم إلى نوميديا(10). وقد تألم فاروس من هذا الخرق للتعهدات التي قطعها هو على نفسه، ولكنه لم يجرؤ على معارضة أوامر الملك.

ودخل يوبا إلى أوتيكا يتبعه عدد من الرومانيين الأعضاء بمجلس الشيوخ، وكان سلوكه بالمدينة سلوك السيّد، ثم عاد إلى مملكته بعد بضعة أيام ومعه جميع جيوشه، ويحتمل أنه بعث إلى پومْپي ببعض الجيوش المساعدة. وقد خوّله مجلس الشيوخ الذي كان يجتمع بمقدونيا صفة الملك الصديق وحليف الشعب الروماني، إذ أن انتصاره على فيالق رومانية يستحق هذا التشريف الذي جاء متأخرا.

3

انتصر قيْصر في أسبانيا، وعاد في ديسمبر سنة 49 ق.م إلى رومة حيث لم يمكث سوى أيام قلائل، إذ كان عليه أن يحارب پومْپي في الشرق، ولم يكن بمستطاعه التفكير في أن يصلح بنفسه خسارة كوريون

الفادحة. ومع ذلك، فإنه لم يتخل عن الأمل في انتزاع إفريقيا من يد أعدائه حتى في الوقت الذي كانت تجري فيه المعركة الحاسمة خارجها. وإذا كان الهجوم الذي انطلق من صقلية أخفق، فإن هجوما جديدا سيأتي من أسبانيا وموريطانيا.

أعلن مجلس الشيوخ التابع لقيْصر أن يوبا عدوّ عمومي، واعترف لبوگود وبوكوس - وهما خصمان للملك النوميدي - بأنهما ملكان، لأن مساعداتهما كانت ضرورية للجيوش الرومانية التي ستنطلق من الهضبة الأيبيرية، وتعبر أراضي الملكين لتقتحم نوميديا، ثم تحتل ولاية إفريقيا.

في شهر سبتمبر من سنة 49 كان قيْصر قد أسند ولاية أسبانيا البعيدة إلى النقيب ك. كَسْيوس لونْگينوس Q. Cassius Longinus الذي أصبح «بريطور»، وترك له أربعة فيالق انضم إليها فيلق خامس وعدة آلاف من الفرسان الذين أخذوا من نفس البلد. وفي ربيع السنة الموالية بعث إليه يأمره أن يعبر إلى إفريقيا صحبة جيشه، وأن يصل إلى مملكة يوبا عن طريق موريطانيا.

أخذ كسيوس، يستعد بحزم كبير، فكوّن أسطولا من مائة سفينة لنقل الجنود، واقتنى المؤن والأموال، وجمع على مقربة من قرطبة الفيالق التي ستصاحبه. غير أن ابتزازه للأموال جعل الناس يكرهونه، وحيكت مؤامرة لقتله ولكن أصحابها لم ينجحوا سوى في جرحه جرحا بالغا، أوجب عدة شهور لشفائه. وخلال هذه المدة وصله من قيْصر خبر اندحار پومپي في معركة فَرْسال Pharsole التي جرت يوم 9 غشت سنة 48، أي 7 يونيو بالتقويم المعدل، وكان هذا سببا إضافيا للقيام بالحملة على إفريقيا. وبعد ما استعرض كسيوس جيوشه بعثها إلى الأماكن التي

ستبحر منها. أما هو فقد ذهب إلى هيسْباليس Hispalis (إشبيلية) ليتفقد الأسطول الذي كان متجمعا هناك.

غير أن قسما من جيشه ثار عليه آنذاك، ونصب الثائرون المتصرف المالي م. كلوديْوس مَرْكِلوس آيسِرْنينوس M.C.M. Aeserninus عليهم رئيسا. فوقف في وجههم كَسْيوس ومعه من بقي على وفائه له من الجنود. ودعا لنجدته م. إيميليوس ليبِدوس Aemilius Lepidus بروقنصل ولاية أسبانيا القريبة، كما طلب العون من بوگود Bogud ملك موريطانيا الغربية الذي استجاب لطلبه، وهكذا قلبت صروف الدهر مساعي الرجال وجعلت المجال بإسبانيا عوضا عن إفريقيا.

أتى الملك ببعض الجيوش التي انضم إليها بعض المساعدين من أسبانيا. أما كسيوس فكان معسكره عند مدينة أولْيا Ulia بجنوب قرطبة، حيث ضَيّق مَرْكِلوس عليه الخناق. وقد حاول بوگود أن يقتحم خطوط الحصار ولكن من غير جدوى[11]. ولم يلبث ليبِدوس أن وصل بعد ذلك على رأس قوات مهمة، وتقدم للوساطة. فعقدت هدنة، وشرع مَرْكِلوس في تهديم منشآته الهجومية. غير أن ذلك لم يمنع الموريين Maure من أن يعودوا للقتال بغتة، فانقضوا على حصن صغير، كان لايزال قائما، وكان يوجد قرب معسكرهم، وقتلوا بعضا من جنوده. ولكن تدخل ليبدوس وضع بسرعة حدا لهذا الهجوم. وأعطيت الحرية إلى كسيوس ليذهب مع فيالقه فقادها إلى كَرْمو (كَرْمونا بالشمال الشرقي لإشبيلية) أما ليبدوس ومركلوس فقد ذهبا معا إلى قرطبة.

أثناء هذه الأحداث وصل إلى الولاية ك. تْريبونْيوس[12] C.Trébonius بمنصب بروقنصل ليخلف كسيوس الذي ناله غضب يستحقه[13]. وقد قيل إنه فكر في المقاومة ولكنه لم يستطع الحصول على

عون بوگود. فأدخل جيوشه لمعسكرات الشتاء. ثم ركب البحر من مالقة Malaga، ولكنه غرق في مصب نهر الإيبِر، أما بوگود فلاشك أنه قد عاد لموريطانيا.

أخفق إذن مشروع الحملة على يوبا، وكان قيْصر – وهو آنذاك في مصر – لا يرى من المناسب تكليف أحد مساعديه بمهمة القيام بحملة أخرى، بل كان يحتفظ لنفسه بأن يذهب هو إلى إفريقيا بعد ما يسوي مسائل الشرق.

4

كان پومْپي قد فر بعد كارثة فَرُسال إلى الشرق. فأخذ من ليسْبوس Lesbos زوجته الشابة كُرْنيلْيا Cornelie وابنه الثاني سِكْستوس Sextus، ثم سار في البحر مُساحلاً الشواطئ الغربية والجنوبية لآسيا الصغرى، وهو لا يدري بعد أين يتجه ليجد الملجأ والوسائل لمعاودة الصراع. وقد أشار عليه البعض بالذهاب إلى إفريقيا لأن العديد من الشيوخ الجمهوريين قد التجأوا إليها منذ السنة السالفة، ولأن الولاية الرومانية تخضع لمساعديه، كما أن ملك نوميديا القوي حليف موثوق به، إذ أن دَمَ كريون Curion يمنع كل تصالح بين قيْصر ويوبا. ولكن پومْپي قرر أن يتوجه إلى مصر. وفي يوم 28 سبتمبر سنة 48 قتل أمام بيلوز Péluse في القارب الذي كان يحمله إلى الشاطئ.

واجتمع في غضون ذلك بجزيرة كُرْسير Corcyre مجلس حربي، ضم عددا من قادة الحزب المغلوب، قدموا من ميدان المعركة في ديرّاكْيوم Dyrrachium، ودارت مناقشات حادة لم يتفقوا فيها على

شيء، ثم تركت لكل واحد حريته في أن يفعل ما يريد. واعتبر البعض منهم أن كل شيء قد ضاع فعادوا إلى إيطاليا حيث أخذوا على أنفسهم عدم الاهتمام بالمأساة الكبرى. أما ميتلّوس سيپْيون M.Scipion – وهو صهر پومْپي وزميله في القيادة العليا – فقد ذهب إلى ولاية إفريقيا ومعه بعض القادة، وأخيرا فإن بعضهم قد التفوا حول بورْكيوس كاتون Porcius Caton.

كان كاتون منذ بداية الحرب قد ارتدى ملابس الحزن وأرخى شعر رأسه ولحيته. فكانت هذه الكآبة ذات المظهر المسرحي تتناسب مع عزيمته الراسخة في القيام بالواجبات التي يمليها عليه شرفه الشخصي، وما يعتبره هو شرف وطنه. إنها عزيمة فيها تدقيق في النظر، وليست عنادا ضيق الأفق، ولا عاطفة عمياء. وكثيرا ما أثبت كاتون أنه لا يفقد الشعور بما هو واقعي وممكن، وكان يعرف ضعف الناس ولا يدّعي أنه يدفعهم للبطولة، بل يكفيه أن يكون مثالا للنزاهة والعزيمة. ولربما غضب الناس من صراحته، ورأوا تصلبه مليئا بالكبرياء، وفيه ما يبعث على الضحك، ومع ذلك فإنهم يحترمونه، ويطمئنون إلى عدالة قضية يساندها بهذا النبل مثل هذا الرجل الفاضل. لذلك فإن الذين لم يتخلوا عن الآمال في التغلب، والذين لا ينتظرون من قيْصر أي عفو، قد جعلوا من كاتون رئيسا لهم.

حين كان پومْپي يتقفّى قيْصر في ثيسّاليا Thessalie كان كاتون قد مكث في ديرّاكْيوم ومعه خمس عشرة فرقة، أي نحو من 6000 رجل عاد بهم إلى كُرْسير بعد الكارثة. وقد انضم لهذه الفرق بقايا جيش فرسان، ومن بينها فُرسان غالّيون وجِرْمانيون تحت قيادة لابيينْوس[13] Labiénus، كما أن بعض الجنود الذين سبق لهم أن عملوا

في إسبانيا تحت قيادة أفرانيوس Afranius، قد فعلوا مثله وجعلوا أنفسهُم رهن أوامر پومْپي. ولما اندلعت الحرب الأهلية من قبل انضم لابيينوس إلى صفوف أعداء قيْصر، وقد كان من قبل أحسن مساعدي فاتح بلاد الغال، وشريكه في جميع معاركه. أما أفرانيوس فهو شخصية قنصلية، وكان مساعدا لپومْپي في الشرق والغرب، كما كان مدينا له بمنصب القنصلية[14]، وبعد ما استسلم في إيلرْدا Ilerda (لاردة) نكث عهده ليتمكن من العودة للعمل مع پومْپي. وهكذا فإن الاثنين معا كانا يعلمان جيدا أن قيْصر لن يغفر لهما.

ركب كاتون البحر صحبة هذين، وصحبة گْنايوس Gnaeus الابن الأكبر لپومْپي الذي كانت سنه نحوا من ثلاثين سنة، والذي كان أبوه عينه قائدا على أسطول بالبحر الأدرياتي، واتجه إلى جزيرة بيلوبنيز حيث استولى على بَطْراس Patras. وهنا انضم إلى الجيش الصغير عدد من الفارين بعد معركة فَرْسال. وكان من بين هؤلاء الفارين فوسْتوس كُرْنيلْيوس سولا F.C.Sylla صهر پومْپي وم. بيطرْيوس M.Pétérius الذي كان قد استسلم بإسبانيا مثل إفرانيوس. غير أن أحد مساعدي قيْصر جعل يسرع إليهم، فكان انتظاره خطرا ولا فائدة فيه. والأفضل هو محاولة الاتصال بپومْپي أيّاً ما كان البلد الذي قرر أن يذهب إليه.

وفعلا، فإن كاتون وجميع الذين قبلوا مرافقته عبروا البحر عن طريق مياه سيطير Cythère وأَقْريطش Crète متجهين إلى القارة الإفريقية، ووصلوا إلى ميناء فوكوس Phycus بالشمال الغربي لمدينة قورينة Cyrène. ولربما اتجهوا من هناك برا وبحرا إلى الشرق، وهم لاشك يؤملون أن يجدوا پومْپي في مصر أو في مكان أبعد منها.

وصلت إلى بالْيور Paliure في خليج بومْبا Bomba عدة سفن، كانت إحداها تقل كُرْنيلْيا وسِكْستوس پومْپي اللذَيْن أقلعا بعدما شاهدا مأساة بيلوز Péluse من سفينتهما. وهما الآن قادمان من قبرص التي عادا إليها في أول الأمر. ولما علم الناس بخبر اغتيال المدافع عن الجمهورية، پومْپي التَّعِس، أرادت جماعة من رفقاء كاتون أن يعودوا بسفنهم إلى أهاليهم، فأقنع كاتون بعضهم بالتخلي عن هذا الرَّأي، وترك الآخرين يذهبون.

لم يعد هناك معنى للتوجه إلى الشرق، ولذلك عاد الناس إلى الغرب، على أنَّ قورينة رفضت أن تقبل لابيينوس الذي أرسل مقدما، ولكنها فتحت أبوابها لكاتون[15]. فالرأي الوحيد الممكن، قد اتخذه الناس لاشك بمجرد ما علموا في بالْيور بموت پومْپي، وهو قرار الانتقال إلى ولاية إفريقيا ملجأ الجمهوريين وقلعتهم، ثم إن خبر وجود ميتِلّوس سِيپْيون بها من شأنه أن يقوي هذا القرار.

لقد أراد كاتون في أول الأمر أن يتوجه إليها بطريق البحر. ولكن واحدة من العواصف التي يكثر وقوعها بالبحر الأبيض المتوسط في وقت الاعتدال الخريفي[16] (ربما كان ذلك في آخر نونبر من التقويم الرسمي، أي آخر شهر شتنبر من التقويم اليلولي) أصابت الأسطول وأرغمته على الالتجاء إلى ميناء بيرنيوس Bérénice (مدينة بنغازي الآن)، وهناك تركه كاتون تحت قيادة كْنايوس پومْپي.

أما هو فذهب مع جيشه المؤلف من نحو 10.000 رجل بطريق البر. وهي طريق طويلة وعرة، سبق منذ قرنين ونصف أن اجتازها أوفلاّس Ophélas متأمر Tyran قورينة ليلتحق بأگاتوكليس Agathocles. ولم يخش أوفلاس أن يقطع الرمال المحرقة في مروره بهذه الطريق أثناء الصيف

الشديد. بينما اليومْپيون قطعوها في الخريف، فكان عناؤهم من الحرارة أخف على ما يظهر، ومع ذلك فإنهم لاقوا متاعب وآلاما. كانت الآبار وعيون الماء قليلة على الطريق، وكانت مياهها ضئيلة، وحتى لا تجف بالمرة قُسّم الجيش إلى عدة وحدات تتابعت على دفعات. وجمع عدد كبير من الحمير لحمل الزاد من الماء، كما اصطحبوا معهم رجالا من البْسيليّين Psylles، وهم أهالي يحذقون الرقية من الحيات وشفاء من تلسعهم بمصّ السم. وكان كاتون يسير على قدميه، ويتقدم جميع الآخرين، وعند المنابع كان آخر من يشرب، إذا بقي هناك ما يشرب، وفي أحد الأيام أبى أن يقبل خوذة قدمت إليه بعد ما ملئت بجهد جهيد من مجرى نزير الماء.

وقد أضاف الشاعر لوكانيوس إضافات لما رواه تيتْ ليف عن هذه المسيرة، فأسهب في وصفها[17] وذكر ريح السَّموم العاتية، وعواصف الرمل، وزيادة أحد معابد آمون التي كانت بناحية سدرة، وقد خلط الشاعر عن عمد أو خطأ بينهما وبين المعبد الشهير القائم بواحة آمون الموجودة بين سيرنيكا Cyrénaïque (هي بَرْقة اليوم)، ومصر.

وبعد ثلاثين يوما من السير، [18] وصل الجميع إلى مدينة لبتيس Leptis (لبدة) بين سدرة الكبرى وسدرة الصغرى. فقوبلوا مقابلة حسنة، وأخذوا راحة استحقوها عن جدارة، وامتدت هذه الراحة أثناء فصل الشتاء. وفي فصل الربيع سار كاتون على شواطئ سدرة الصغرى حتى وصل إلى الولاية ثم قاد إلى أوتيكا أولئك الذين اطمأنوا لمصاحبته من إيليريا Illyrie وبلاد الإغريق.

وجد الحالة مضطربة. فآتيوس ڤاروس Attius Varus الذي هو على رأس القيادة الإفريقية منذ سنتين، لم يظهر استعدادا ليضع نفسه تحت

إمرة سيپْيون. مع أن هذا الأخير له حقوق يعتمد عليها. فقد سبق أن كان قنصلا، بينما فاروس لم يتعد منصب القضاء، وكان سيپيون يتحلى بلقب الإمبراطور الذي ناله عقب بعض المعارك التي خاضها في سورية. وسبق له على الخصوص أن قاسم صهره پومْپي رسميا القيادة العليا في ثيساليا Thessalie. ثم إنه ينتمي إلى الأسرتين اللتين تفاخران بأمجد الانتصارات الإفريقية، أسرة آل سيپْيون قاهري قرطاجة، وأسرة ميتلّوس قاهر يوغرطة. فهو بوبليوس كُرْنيليوس سيبْيو نَسِيكا P. C. Scipio Nasica وصار بالتبني يحمل اسم كَنْتيلْيوس كايْكيلْيـوس ميتِلّوس بِيوس سيبْيو Q. Caecilius Mettellus Pius Scipio. وقد احتفظ بهذا الاسم الأخير علامة على مولده، كما احتفظ به لأنه يوحي بثقة عظيمة إلى الجماعات التي تعتقد في الخرافات، إذ إن شيخا عرّافاً أعلن فيما مضى أن آل سيپْيون سيكونون دائما منتصرين بالأرض الإفريقية.

لم يكن كاتون صديقا لسيپْيون الذي كتب فيه منذ بضع سنين قطعة هَجْو. ولكنه نسي حزازاته الشخصية وتوسط ليوفق بينه وبين فاروس. ولقد وقع عليه إلحاح كبير في أن يقبل القيادة العليا، أو – على الأقل – أن يشارك فاروس فيها. ولكنه رفض هذين الاقتراحين، لأن المشاركة تحمل أخطار الخلاف، وهو يعتبرها خطيرة جدا في مثل هذه الظروف القاسية. ثم إن احترام القانون الجمهوري الذي من أجله يقوم هذا الصراع يمنعه من أن يصبح في منزلة أعلى أو مساوية لقنصل سابق، في حين أنه هو ليس إلا قاضيا سابقا. لذلك طلب تعيين سيپْيون قائدا أعلى ثم قدم إليه الجيوش التي جاء بها.

وكان لابد أيضا من صد ادعاءات الملك يوبا. ذلك أن سليل مسِنيسّا كان بليدا وعاجزا، كما كان مستبدا، معجبا بنفسه وقاسيا،

وزاد من كبريائه انتصاره على كوريون، ذلك الانتصار الذي حصل بفضل مساعده سابّورا Saburra. وقد كان يوبا يهين حلفاءه بسلوكه المتعالي، عوض أن يقبل الأوامر وحتى النصائح. وقد اعتذر سيسرون Cicéron عن عدم ذهابه إلى إفريقيا فقال : «وأرى أنه لا يحسن في الدفاع عن الجمهورية أن يلتجأ إلى شعب من الباربار يملأه الختل، وبالخصوص ضد جيش عرف العديد من الانتصارات». ومن دون شك فإن كثيرا من المهاجرين كانوا يفكرون مثل هذا التفكير ويشعرون بالاستحياء والخشية معا. لكن، حيث إنهم لا يستطيعون الاستغناء عن يوبا، فقد كانوا يرضخون لتحمل غطرسته وإراداته. ولكأن سيپْيون قد نسي -أمام هذا النوميدي- أنه الإمبراطور، وقد أكد بعض الناس أنه تنازل له إلى حد أنه واعده بالتخلي له عن مقاطعة إفريقيا ثمنا لمساعدته[19].

لم يكن كاتون رجلا يرضى أن تحط الكرامة الرومانية. وفي أول لقاء حصل بينه وبين يوبا، أراد الملك أن يحتل مقعد الشرف فترك سيپْيون جالساً عن يمينه وكاتون عن يساره. غير أن هذا الأخير حمل مقعده وذهب به إلى جوار سيپْيون الذي أصبح مقعده وسطا، بينما نحى الملك بهذه المناورة الحاذقة إلى المقعد الأخير.

كان أهل أوتيكا - كما سبق أن قلنا - يميلون إلى قيْصر، فطلب يوبا تقتيلهم وتهديم المدينة. وهي أمنية تليق بهذا الرجل العنيف، الذي لم يكن سيپْيون - على ما يقال - يستطيع معارضته. أما كاتون فقد عارضه بحدة جعلت الرجحان لرأيه.

ومن الطبيعي أن يغتاظ الملك كثيرا ويغضب من هذه التعرضات. ومع ذلك فإنه لم يتخل، ولا يستطيع أن يتخلى عن أن يكون عدو قيْصر،

ولكنه حرص على أن يظهر للپومپيين أنه يحتفظ بكامل استقلاله تجاههم. وسنراه أثناء الحرب يعسكر ويقاتل على حدة، باعتباره حليفا غير ملزم بطاعة قائد الرومانيين.

وقد بقي الجمهوريون من جانبهم وبفضل تدخل كاتون – سادة في الولاية، لأن قيْصر ترك لهم الوقت لإعداد عددهم، وتأخر هو بالمشرق في الإسكندرية أول الأمر ثم في آسيا.

أما القائد العام سيپْيون فكان رجلا تافها. ويظهر أنه انتظر ساعة موته ليبرهن بعض الشيء على سمو في نفسه. لقد وصفه سيسرون بأنه كان يجيد الكلام. ولم تذكر له مزايا أخرى كالمهارة الحربية بالخصوص. وكان عنيفا وقاسيا، ويغار جدا على نفوذه اتجاه الرومانيين على الأقل، بينما كان يظهر أكثر تساهلا أمام يوبا، بل قد يضع فيه ثقته، حتى ندم كاتون من بعد على جعله يبلغ المكانة الأولى.

غير أن سيپْيون كان حوله كثير من الرجال الذين تعلموا فن الإدارة في مختلف المناصب العالية، كما كان معه العديد من رجال الحرب الحقيقيين، من بينهم بيْتريوس Pétréius وهو قائد حسن سبق أن انتصر على كاتيلينا Catilina. وأحسن منه لابْينوس Labiènus الذي نمت مواهبه الطبيعية بفضل تجاربه الطويلة في معارك بلاد الغال. فقد كان في آن واحد يحسن الملاحظة والتأمل والإقدام على العمل. وقصة حرب إفريقيا تشهد أنه لعب آنذاك دورا مهما جدا على رأس الخيالة. وأنه اضطلع دون شك بجانب كبير في إعداد العمليات وتسييرها. وهناك نجد البرهان على براعة وعلم يصعب عَزْوهما لسيپْيون. وكان هذا الأخير، حينما يتجه إلى لابينوس لاستشارته، إنما يتجه لأفضل مشير، للرجل الذي عرف

طريقة قيْصر أحسن مما عرفها غيره. ولربما أنه لم يكن يصغي كما يجب لهذا المساعد الذي يفضله والذي لابد أن قيمته تحدث للآخر بعض الوساوس.

أما كاتون فقد قبل الاحتفاظ بأوتيكا التي اعترفت له بفضله في حمايتها، وإن كان اليومْپيون يشكون فيها كثيرا بسبب ميولها نحو قيْصر. ويجوز أن نفرض أن سيپْيون كان مسرورا بحصره في هذه المهمة الحرجة، وأن يستغني عن المساعدة المباشرة لشخصية صعبة المراس. فترك له حرية واسعة. ولم يكن كاتون واحدا من مساعديه، بل كان برتبة البروبريطور الذي له - بدوره - متصرفه المالي، أو على الأصح نائب للمتصرف المالي Proquesteur باسم ل. يوليوس قيصر L. Julius César ويظهر أن كاتون كان يملك حق ضرب النقود باسمه الخاص[20].

أما النقود الأخرى المضروبة بالولاية فكان ضربها بأمر من سيپْيون وباسمه، ويرى على الكثير منها صور تمثل إفريقيا وقد جللت رأسها بجلد فيل، أو يُرى عليها آلهة إفريقيا ربما وصفت بكونها ربة الأراضي الإفريقية[21]، إذ كان من المستحسن أن يضع المرء نفسه في حماية آلهة الموطن، لأن أهل البلاد لم يكونوا يستحقون اهتماما كبيرا، وقد أبان لهم سادتهم عن ذلك بوضوح.

لقد كان المهم هو الاطمئنان قبل كل شيء إلى عدم حدوث الخيانات الممكنة، فأُخذت الرهائن ثم استعملت وسائل أخرى أشد قسوة، كسجن الوجهاء أو إعدامهم، ونقل السكان إلى المراكز الحصينة، وتهديم الضيعات والقرى، وتخريب البوادي وحجز الماشية. هذه هي الصورة التي رسمها مؤلف «حرب إفريقيا» Bellum Africum - وهو

رفيق قيْصر – عن الحالة بالولاية عند مقدم الدكتاتور في نهاية سنة 47. وفي هذا مبالغة، ولكن يمكن قبول كون الجمهوريين عاملوا بشدة الأهالي المشكوك فيهم. ففي أوتيكا أمر كاتون بحجز جميع الأسلحة، وجمع كل الرجال الذين هم في سن القتال في معتقل أقيم خارج أسوار المدينة، تحيط به الحواجز والخنادق والجرس، كما شددت المراقبة على أصحاب المناصب العالية، ويحسن أن نضيف أن كاتون أعطى الأوامر الصارمة بمنع التعرض بالسوء للذين مكثوا بالمدينة.

كان الاستعداد للحرب يدعو إلى مال كثير. ومن دون شك فإن الأفارقة قد ابتزت أموالهم بأكثر ما أمكن، ثم وقع الالتفات إلى المواطنين الرومانيين، فوافق الأغنياء من أصحاب البنوك والتجارات في أوتيكا على إعطاء بعض القروض.

وفي عدة من المدن تكونت مؤن القمح بالحجز أو بالشراء. ففي مدينة ثيسْدروس Thysdrus الصغيرة جُمعت 300.000 بوْاصو، وفي جزيرة سرِسْينا Cercina وضعت أهراء عريضة تحت حراسة متصرف مالي. وقد كانت هذه المدخرات ضرورية على الخصوص لأن الأراضي لم تزرع بسبب التجنيد الجماعي للفلاحين. فكادت غلة سنة 47 تكون منعدمة.

وأمكن تكوين جيش كانت عدته على ما يحتمل تتراوح بين 60.000 و80.000 رجل. فمنذ سنة 49، كان رهن إشارة فاروس Varus وكونْسيديوس Considius ثلاثة فيالق، أي نحو من 11.000 أو 12.000 من جنود الصف[22]، وفي ربيع سنة 47 قدم كاتون ومعه 10.000 جندي[23]، ثم وقع تجنيد جميع من وقعت عليهم اليد من المواطنين الرومانيين المقيمين بالولاية، ومن الجيتوليين الذين سبق لأجدادهم أن نالوا من ماريوس حق المواطنة مع أراضي خارج حدود إفريقيا، ومن أهالي

أحرار، وهجناء وعُتقاء وحتى من العبيد. وفي بداية سنة 46، حين كان قيْصر في ناحية هَدْروميت (سوسة)، كان كاتون لايزال يحشد الجنود في أوتيكا ليقوى جيش سيپْيون. فهل وقع التخلي عن القاعدة التي كانت لا تقبل في الفيالق غير المواطنين ؟ أو أعطي حق المواطنة للذين أدرجوا بهذه الفيالق ؟ لا نستطيع جوابا. أما يوبا فإنه ساعد بعدد كبير من الفرسان والمشاة ذوي السلاح الخفيف، ونال هؤلاء الرجال رواتب مالية.

وفي نهاية سنة 47 كانت عشرة فيالق أي من 35.000 إلى 40.000 من المشاة، وما لا يقل عن 14.200 من الفرسان مجتمعين بالولاية. ولا نستطيع أن نذكر أي عدد يشمل المشاة الخفيفين من الأهالي الحاملين للرماح، وأصحاب الأقواس والمقاليع من غير الأفارقة.

لم تكن هذه الجيوش متجانسة، وكانت متفاوتة في قيمتها وفي الوثوق بها. ولاشك أن الجيوش التي اتبعت كاتون، كان من بينها جنود أشداء كما أن فرق فاروس قد اشتدت بعض الشيء منذ فرارها السريع أمام كوريون. ولكن، أي شيء يُنتظر من الذين أكرهوا على الانخراط في الجيش ودُرّبوا على عجل ؟ لقد أتي لابينوس بالفرسان الغاليين والجرمانيين الشجعان المعودين على القتال، وحصل من يوبا على فرسان آخرين هم فلول جيش كوريون، ثم أكمل كتائبه الضخمة بعملية التجنيد السريع في إفريقيا. وكان الفرسان والمشاة النوميديون يحاربون حسب طريقة أرضهم التي برهنت بكارثة بَگْرادا على الشؤم العظيم الذي تحمله هجمات الباربار الصاخبة على جيوش رومانية مذعورة، تهوى أمام قوات أكثر منها عددا.

والخلاصة هي أن الخيالة بكثرة عددها هي التي كونت حقيقة قيمة الجيش الجمهوري، وأن لابينوس كان هو قائدها.

كان مركز القيادة العليا في أوتيكا[24]، وكان بها رهن إشارة سيپْيون ثمانية فيالق وأكثرية الخيالة، أما كنسيديوس فكان بهَدْروميت مع فيلقين وبضع مئات من الفرسان، بينما كانت القيادة في ثَبْسوس بيد بريطور سابق هو ك. فِرْجِيليوس C.Vergilius، كما أن جيوشا أخرى تركزت بغير هذه الأمكنة، ذكر مؤلف «حرب إفريقيا» منها أوزيتا Uzitta وسَرْسورا Sarsura، وزيتا Zéta، وكلها مراكز تقع جنوب هَدْروميت.

وكذلك في مركز يحرس الطريق الذاهبة من هدروميت إلى لِبْتيس الصغرى (لَمْطة) وفي كْلوبْيا Clupia (القليبية)، فإن كنايوس كَلْبورْنيوس بيزو Cn. Calpurnius Piso – وهو نبيل شاب سيصل من بعد لمنصب القنصلية – كان يراقب الشاطئ الشرقي لهضبة الرأس الطيب ومعه نحو من 3000 فارس من الأهالي. وربما كان هناك مركز في پوتْبوت Putput بين كلوپْيا وهَدْروميت[25]. والحق أننا نجهل متى وزعت هذه القوات، ولاشك أن بعضا من المراكز التي ذكرناها، لم تدخلها الجيوش إلا عندما ظهر أن قدوم قيْصر وشيك الوقوع، أو حتى بعد نزوله.

وجعلت المراكز الحصينة في حالة دفاع، وأمر كاتون بالقيام بخدمات كبرى في أوتيكا، كإصلاح الأسوار وبناء الأبراج، وحفر الخنادق، كما تكونت مخازن السلاح بأوتيكا وغيرها من المدن.

في سنة 49 لم يكن أسطول اليومْپيين الإفريقي يتعدى عشر سفن عتيقة، أصلحت بقدر المستطاع وكان ل. ناسيدْيوس L. Nasidius الذي بعثه پومْپي في نفس السنة بست عشرة سفينة لنجدة أهل مرسيليا، قد فر أثناء إحدى المعارك البحرية إلى المياه الإسبانية، ومنها قصد إفريقيا من بعد. وكذلك م. أكتافيوس M.Octavius فإنه كان قائدا لأحد

الأساطيل في البحر الأدرياتي، وحاول أن يتابع القتال حتى بعد الاندحار في معركة فَرْصال Pharsale، ولما اندحر توجه إلى صقلية ثم إلى أفريقيا، ولكن لم يبق له سوى سفن قليلة، صغيرة الحجم. وأخيرا فإن كنايوس پومْپي Gnaeus Pompée قدم هو أيضا ببعض السفن الحربية من بِرنيس Bérénice التي تركه بها كاتون وأمضى بها فصل الشتاء. وهكذا تكون أسطول له بعض الأهمية. وكان يرسو في أوتيكا وعلى رأسه أتيوس فاروس، وأكتافيوس. واستطاع فاروس في سنة 46 أن يأخذ معه 55 سفينة في حملة سريعة على الشواطئ الشرقية لتونس. ولاشك أنه قد استعمل الأهالي والجيتوليين كمجدّفين ومقاتلين، ولعدم وجود أفضل منهم.

كانت هناك قوات عظيمة خلف الولاية، جمعها في نوميديا الملك يوبا. فكان تحت إمرته أربعة فيالق مكونة على منط الفيالق الرومانية وخيالة. وأخيرا كان تحت إمْرته عدد عديد من الأهالي الذين دُعوا من قبائلهم، وكانوا فرسانا ومشاة مسلحين بسلاح خفيف[26]. وقد سبق له أن جاء إلى بَگْرادا سنة 49 ومعه 60 فيلاً ليحارب كوريون. أما في نهاية 47 فقد ذاع بين القيْصريين أنه يملك 120 منها. ومن المحتمل أن هذا كان خطأ. وعلى كل فإن هذه الحيوانات التي شاركت في الحرب ضد قيْصر لم يزد عددها على 60. وفي معركة ثَبْسوس Thapsus كان عددها 64 بالضبط.

كل هذه التأهيبات العسكرية مضافة إلى التأخر الطويل لقيْصر قد أعطت الثقة للجمهوريين. ومن يناير 47 كتب سيسرون من برانديس Brindès إلى صديقه أتيكوس Atticus يقول :

«وفيما يتعلق بشؤون إفريقيا، فإن الأخبار مخالفة جدا لما كاتبتني به. إذ يقال إنه لا شيء أقوى، ولا شيء أحسن إعداداً»، مما هناك.

وإذا كان اليومْپيون ينتظرون هجوم الدكتاتور من غير وجل كبير، فإنهم لم يكونوا يمتنعون عن القيام بأعمال أخرى، بحيث إنهم كان يسرهم إمكان استعمال خطة الهجوم عوضا عن خطة الدفا ع. وهكذا فإن أساطيل صغيرة أخذت تظهر عند شواطئ صقلية وسردانية، فتزرع الخوف في المدن، وتستولي على السفن، وتجمع الغنائم ولربما قوبلت مقابلة حسنة.

بل قد جرى الحديث بالهجوم على إيطاليا، حيث لم تكن هذه النية مجهولة، وجرى الحديث بذلك أيضا، وقيْصر في إفريقيا فقد اقترح كاتون، أن يذهب إلى إيطاليا بالجنود الذين قدم بهم من بلاد الإغريق ليحول أنظار الدكتاتور إليه. غير أن الأمر كان يعني الذهاب للاستيلاء على إيطاليا بضعة أشهر قبل ذلك التاريخ، أي حين كان قيْصر لايزال بالمشرق، ولم يكن يعني التخفيف عن إفريقيا بمناورة تشبه التضحية.

وقدم على سيپْيون من جنوب أسبانيا مبعوثون أرسلتهم سراً الجيوش او المدن التي جعلت قيْصر يغضب منها غضبا شديدا أثناء الفتن الأخيرة، وكانت تخشى عقابه. وطلب هؤلاء المبعوثون أن يقع تدخل يحدث الثورة. وعُرضت عروض على النائبَيْن السابقين لپومْپي في أسبانيا، وهما إفرانيوس وبِتْريوس، ولكنهما رفضا.

فاتجه المبعوثون إلى كنايوس پومْپي. وكان كاتون حسب رواية «حرب إفريقيا» هو الذي ألح عليه بشدة حتى قبل في بداية سنة 46 أي

في وقت كان فيه قيْصر يوجد بإفريقيا. ويذكر كتاب آخرون تواريخ مغايرة عن ذهاب كنايوس إلى أسبانيا ويظهر أن الأوْلى تقديم هذا التاريخ بقليل.

نقرأ في «حرب إفريقيا»[27] أن كنايوس أخذ معه من أوتيكا ثلاثين سفينة صغيرة من كل نوع، والقليل منها فحسب هو الذي كان مزودا بجؤجؤ للقتال، كما أخذ معه 2000 من العبيد والمعتقين بعضهم بدون سلاح. وهذا ليس حقيقة، لأنا نعلم من ناحية أخرى أن ابن پومْپي قد حاز من يوبا الألوبْروجيين Allobroges (وهم لاشك فرسان) أُسِروا أثناء اندحار كوريون، كما حاز الجنود الذين سبق أن ذهبوا مع أفرانيوس من أسبانيا إلى المشرق، ثم عبروا معه إلى إفريقيا.

وحسب ما يرويه رفيق قيْصر[28]، فإن كنايوس دخل مملكة بوگود Bogud بموريطانيا، فأنزل جنوده من البحر قرب مدينة أسْكوروم Ascurum التي كانت بها حامية ملكية. وقد تركه أهل هذه المدينة يتقدم حتى وصل الأسوار والأبواب، ثم خرجوا فجأة وصدوا المهاجمين الذين فروا إلى البحر وإلى سفنهم. وهكذا ابتعد كنايوس بأسطوله مغلوبا، فلم يقترب بعد من السواحل واتجه إلى جزر الباليار.

كانت مملكة بوگود تمتد على طول البحر الأبيض المتوسط من ملْوِية إلى مضيق جبل طارق. ولكن لم يكن يوجد في هذه النواحي – على ما نعلم – أي مدينة حملت اسم أسْكوروم، أو ما يشبه هذا الإسم تقريبا. ومن ناحية أخرى يظهر أن هذا النص يذكر بوضوح أن مدينة أسكوروم – بالنظر للطريق التي اتبعها كنايوس – كانت توجد قبل الباليار، لا بعدها. وهذه الجزر – بضمّ جزيرة يابسة Iviça إليها – تقع أمام القسم

الساحلي الجزائري الذي يمتد من دلّيس Dellys إلى تِنيسْ Ténès بعيدا عن شرق ملْوية. فنستطيع إذن أن نتسائل : أليست أسكوروم واقعة في أراضي بوكوس Bocchus الملك الموري Maure الآخر : وهل لا يحسن أن نقول إنها هي روسوكورو Rusuccuru ؟ (المعروفة اليوم باسم دلّيس Dellys) وقد مكث پومْپي طويلا بالباليار حيث أصيب بمرض، ومن هناك عبر إلى أسبانيا.

الكتـاب الأول

يوليوس قيْصر وأفريقيا

الفصل الثاني

قيْصَر في إفريقيا، مُعسكر روسْبينا

1

وصل قيصر في بداية سنة 48، ومكث بها تسعة أشهر، ثم توجه إلى آسيا، ومنها كان يريد التوجه إلى إفريقيا عن طريق بلاد الإغريق وصقلية، التي كان ينوي أن يجد فيها الجيش الذي سيأخذه معه لمحاربة اليومْپيين. وفي غشت 47 – وهو الشهر الذي أحرز انتصاره فيه بأعماق آسيا الصغرى على الملك فَرْناس Pharnace – صدر الأمر للفيالق المعسكرة في كَمْبانيا Campanie بالتوجه إلى صقلية.

لكن هؤلاء الجنود المحنكين، الذين خاضوا العديد من المعارك، وانتصروا في فَرْصال، كانوا ينتظرون منذ سنة الهبات التي وعدوا بها، وصرحوا أنهم لن يذهبوا قبل أن ينالوها، ثم طَرَدوا رشقا بالحجارة من كلفهم الدكتاتور بالذهاب بهم إلى الجزيرة. فأرغمت هذه الفتنة والاضطرابات التي حدثت في رومة قيْصر على العودة إلى إيطاليا. فنزل

بتَرانْت Tarente في نهاية سبتمبر، وبعد بضعة أيام حل بروما، لكن جنود كمبانيا عوض أن يخلدوا إلى السكينة، اقتبلوا أسوأ اقتبال سالوسْت Salluste، وكان آنذاك بريطور، ولم يحمل لهم سوى وعود جديدة، ولم يفلت من بين يديهم حيا إلا بجهد كبير وساروا يزحفون على العاصمة ليفرضوا عليها إرادتهم، لأنهم كانوا متأكدين – وهم على صواب في ذلك – أنهم لا يمكن الاستغناء عنهم، وطالبوا بتسريحهم كي ينتزعوا بهذا التهديد الجوائز الواجبة لهم. وقد جرؤ قيْصر على المثول أمامهم بميدان مارس، وأعلن لهم ساخرا أنه يسرحهم، ثم تظاهر بالتنازل لرجائهم، وسمح لهم أن يبقوا في خدمته. إن هذه المسرحية التي أتقن هو تمثيلها إتقانا كبيرا جعلت الحملة على إفريقيا من قبيل الممكن. وفي نفس الحين الذي كان يسوي فيه المسائل المستعجلة، كان يسرع في الاستعداد، لأنه كان يريد أن ينهي بفارغ صبر، ولذلك لم ينتظر فصل الحرارة، وقرر القيام بحملة في فصل الشتاء، غير أن الجميع لم يوافقوه على ثقته هذه. وأثناء تقديمه لأحد القرابين اضطرب التقريب بعلامة مُنكَرة لاحَتْ، فدعاه الكاهن العرّاف أن لا يذهب إلى إفريقيا قبل الميل الأعظم للشمس، فلم يعر اهتماما لهذا الرأي. وهناك نبوؤة وعدت آل سيپْيون أنهم سيكونون دائما منتصرين بالأرض الإفريقية، فيقال إن قيصر ذهب باحثا في العائلة المجيدة التي ينتمي إليها رئيس الجمهوريين عن رجل يدعى سلْفيتو Salvitto. وكان هذا الرجل محقرا بسبب شبهه بممثل مضحك يحمل نفس الإسم، ثم جاء به ليجعله أمام جيوشه عندما تحارب.

وبعد إقامة استمرت نحوا من شهرين في رومة، غادرها، وسار من غير توان، فاخترق إيطاليا الجنوبية وصقلية عن طريق راهْجيوم

Rhégium ومسّينا Messine ثم وصل لمدينة ليليبي Lilybée المواجهة لإفريقيا يوم 17 ديسمبر بالتقويم الرسمي، وهو يوم فاتح أكتوبر بالتقويم المعدل.

كان عمره آنذاك خمسا وخمسين سنة، غير أنه سيرينا في هذا الصراع الحاسم أن السن لم توهن جلده ولا بدنه، كما لم توهن ذكاءه ولا حصافته وسرعته، ولا نشاطه المدهش، ولم توهن على الخصوص هذه الثقة في حسن طالعه، ولا هذه الجرأة التي تعتبر بالنسبة للغير تهورا طائشا يؤدي للكوارث. ولكنها لديه تتآلف مع الرزانة وحضور البديهة ومع خصب في الخيال يستطيع أن يضمن السلامة أو النصر في أخطر المآزق.

كان يعلم أنه سيقابل أعداء كثيرين جدا، وأنه لن يستطيع – في الأول على الأقل – أن يواجههم بقوات تساوي عددهم، وأن سفنه غير كافية لنقل جميع جيوشه دفعة واحدة، وأن عليه أن يوازن بين جيوشه وبين إمكانيات إطعامها في أرض يجب الاستيلاء عليها، وحيث الجمهوريون قد استولوا على أكبر المقادير من القمح، وذلك في فصل زمني يخضع فيه جلب المؤن بالبحر لطائلة الأعاصير البحرية.

وقرر أن تشارك في الحملة عشرة فيالق، منها خمسة من قدماء المحاربين، الذين أضيف إليهم المجنّدون لسد الفراغ، وخمسة فيالق من الجنود الجدد وكانت الفيالق الأولى قد عملت تحت إمرته في بلاد الغال، وهي الفيلق التاسع، والعاشر، والثالث عشر، والرابع عشر وأخيرا الفيلق الخامس. ولعلّ هذا الأخير كان هو فيلق القُبّر Legio de l'Alaude الذي تَكوّن سنة 51 من أهل ما وراء جبال الألْب من الغاليين الذين نالوا حق المواطنة فيما بعد، ويظهر أن هذا الفيلق لم يسبق له حتى ذلك الحين أن

شارك في الحرب الأهلية، كما يجهل من أين جاء إلى صقلية، وكانت الفيالق الأخرى قد حاربت في فَرْصال وانتظرت عودة الدكتاتور في كمبانيا، ومنها الفيلق العاشر Légio Decima الشهير بمواقفه العظيمة وكان أشد الفيالق في الثورة. أما فيالق المجندين فتكونت منذ بداية الحرب الأهلية، فكانت أربعة منها تحمل الأرقام 30,29,28,26. ولعل الفيلق الخامس هو فيلق مارس Legio Martia. أما فيلق 30 فقد جاء من أسبانيا التي كان ورد عليها سنة 49 بمجرد تكوينه. وليس لدينا معلومات عن الفيالق الأخرى. أما الفيلقان اللذان كان كوريون قد تركهما بصقلية عند ذهابه لإفريقيا في شهر غشت سنة 49، فكانا لا يزالان بها، ويمكن أن نفرض أن قيْصر أخذهما معه لأنهما كانا رهن إشارته.

وعلاوة على هذه الفيالق العشرة التي ربما كان كل منها يشتمل على ما بين 3500 إلى 4000 رجل، يضاف تقريبا 2500 جندي كانوا ينتمون لفيالق مختلفة من قدماء المحاربين، وكانت حالتهم الصحية قد منعتهم سنة 48 من مصاحبة قيْصر أو اللحاق به إلى ما وراء البحر الأدرياتي، وبعد شفائهم أركبوا الأسطول الراسي بميناء براندس Brindes، وهناك مكثوا موزعين على سبع فرق، وقد شاركوا في حملة إفريقيا بالسفن التي كانوا يعملون عليها.

أما عن رجال الفيالق فإن البون بين قوات قيْصر – عندما تكون كلها بجانبه – وبين قوات أعدائه، لا يكون بونا عظيما، لأن سيپْيون أيضا كان له عشرة فيالق، وكان ليوبا أربعة. لكن بالنسبة للخيالة، فإن للجيوش الجمهورية والملكية فيها تفوقا عظيما جدا. فقيْصر لم يستطع أن ينقل منها على ثلاث دفعات متوالية سوى 3200، وربما 3800 فارس من الغاليين والجرمانيين والأسبانيين. كما كان أعداؤه متفوقين في عدد

المشاة الخفاف، بحيث لم تذكر المصادر سوى 150 قواسا في إحدى المعارك التي جرت في بداية الحملة، مما اضطر قيْصر إلى أن ينزل للأرض جنودا بحارة وحتى بعض المجدفين ليتلافى بقدر الإمكان النقصان الواضح. وقد وصله بالبعثين الثاني والرابع 2000 من القواسة والمقلاعيين، وهو عدد غير كثير.

والخلاصة هي أننا نستطيع تقدير عدد الجنود الواردين على إفريقيا بطريق صقلية بما يزيد قليلا عن 4500 رجل. وأثناء الحملة تقوت هذه الجيوش – ولكن بنسبة قليلة – بالموالين الذين كان من بينهم خيالة غاليون وجرمانيون وجيتوليون من فرسان الحرس الملكي والفيالق.

ونجهل عدد سفن الأسطول الحربي. غير أنه استطاع أن يحاصر مينائي هَدْروميت وثابسوس Thapsus وأن يضمن مرور البعوث. ولم تقع معارك حقيقية بين هذا الأسطول وأسطول البومْپيين الذي ربما لم يكن يشعر بأنه قادر على خوض المعركة، فلم يغامر سوى ببعض الجولات.

كانت نهاية الحرب لابد أن تتقرر على اليابسة. وكانت حظوظ قيْصر تظهر مشكوكا فيها، لكن، ولحُسْن حظه وجد في إفريقيا شركاء أفاده تدخلهم فائدة كبيرة.

فالملكان الموريان Maures بوگود Bogud وبوكوس Bocchus والَياه منذ سنة 49، لكن كان يجب عدم انتظار المساعدة من أولهما لبعده الشديد لأنه كان ملكا على المغرب (الأقصى). أما بوكوس فكان سيدا على قسم كبير من الجزائر، ويمكنه مهاجمة يوبا من الخلف ومنعه من استخدام جميع قواته ضد قيْصر. ولكي يتحقق هذا، يجب على بوكوس أن يخترق أراضي مسِنيسّا التي كانت تمتد بين أراضيه هو ومملكة

يوبا. إذن فهو أيضا عدو تصلح أرضه لأن تؤخذ ولأن يحتفظ بها. ولكن، هل سيكون بوكوس – هذا «الباربار» – جد لبق في تنفيذ المناورة التي ستساعد قيْصر مساعدة كبيرة ؟ هنا يظهر على المسرح ممثل آخر.

إنه ب. سيتْيوس P. Sittius من مدينة نوكيرْيا Nuceria في كَمْبانيا. وقد سبق له أن كان منذ نحو من عشرين سنة شخصية لها بعض الأهمية في رومة، إذ كوّن لنفسه بعض الأصدقاء من ذوي النفوذ، من بينهم واحد من أسرة الدكتاتور سولا Sylla، اسمه ب. كُرْنيليوس سولا الذي انتخب قنصلا سنة 66، ومنهم سيسرون الذي نال منصب القنصلية سنة 23 وغيرهما لاشك. وورث ثروة واسعة، وأراد أن ينميها بعمليات بنكية في الولايات التابعة لرومة وكذلك في الخارج، فاشترك في إحدى العمليات الكبرى مع أحد ملوك موريطانيا[29]. واضطر لتمويلها أن يقترض في رومة أموالا طائلة. فلما حل وقت الدفع عجز عن الأداء فتقاضاه الدائنون، غير أنه لم ينتظر الحكم، وغادر إيطاليا عند بداية سنة 64، وبعد ذهابه عرض صديقه ـ سولا الذي كلفه بمصالحه ـ أملاكَهُ للبيع ليسدد للدائنين.

ورد سيتْيوس على ولاية إسبانيا البعيدة ثم على موريطانية التي كان يوجد بها في أواسط 64. وقد كانت هذه الرحلة لشؤونه، كما أكد ذلك سيسرون في خطابه الذي فاه به بعد ذلك بسنتين دفاعا عن سولا الذي اتهم بالمشاركة في المؤامرتين اللتين قام بهما كاتيلينا. وكانت الأولى في 66 و65 والثانية في 64. بينما كان الناطق بالتهمة يؤكد على العكس من ذلك أن سيتيوس كان شريكا في المؤامرة لكاتيلينا وسولا، وأن هذا الأخير بعث به إلى أسبانيا ليثير الفتن بها. ولعل الحقيقة هي أن سيتيوس كان على وفاق على ما يحتمل مع حاكم الولاية الأسبانية

الأخرى، وهو كْنايوس كَلْبورْنيوس بيزو Cn. Calpurnius Piso الذي كان متفقا مع كاتيلينا. ولسنا ندري الأسباب التي جعلت سيتيوس يقرر عبور المضيق على رأس جماعات المغامرين الإيطاليين والأسبانيين من الأشقياء والأشرار. وقد أورد سالوست[30] أن كاتيلينا تحدث إلى المتآمرين في جوان 64 وقال إنه يمكن الاعتماد على بيزو في إسبانيا القريبة، وعلى سيتيوس الذي هو في موريطانيا ومعه جيش.

فسيتيوس المتمول المفلس الذي يظن أنه شريك كاتيلينا، كانت له أسباب وجيهة في أن لا يغادر إفريقيا أبدا. وكذلك رفاقه الذين كانوا جميعا، من قريب أو بعيد، في شقاق مع العدالة في بلدانهم. فقد جعل نفسه عليهم رئيسا للعصابة المأجورة وأظهر مقدرة كبيرة في هذه المهنة الجديدة، وكانت جيوشه قليلة العدد ولكنه عرف كيف يدربها جيدا، بل إنه كون لنفسه أسطولا صغيرا. ولاشك أنه كان يتدخل مقابل جزاء يناله في الحروب التي كان يخوضها الملوك الأهالي ضد بعضهم، بحيث كان ينتقل من هذا لذاك ويقف بجانب أكبر مزايد وينال له النصر.

ولم يكن له أي التزام نحو قيْصر. بل لم يسبق أن كان له به أية علاقة. ولكنه فهم أنه بمساعدته على قهر يوبا والپومْپيين يكون قد عمل لمصلحته الخاصة، فإذا انتصر الدكتاتور، فمعنى ذلك هو التأكد من الجزاء الحسن، ومعنى ذلك أيضا – على فرض أن سيتيوس يهتم بذلك – إرجاع الاعتبار لشرف انحط كثيرا. لذلك دخل المعركة صحبة بوكوس.

2

إن الحرب التي سنتحدث عنها، وهي «حرب إفريقيا» معروفة لدينا معرفة لابأس بها، إذ لدينا عنها مؤلَّف حسن. ومع أن هذا المؤلف ليس

له صبغة رسمية، فإنه وجد - ولا ندري كيف - مكانا ضمن مجموعة الكتابات الحربية لقيْصر[31].

هذا المؤلَّف نوع من المذكرات اليومية، واضح ودقيق ويعرض الوقائع في ترتيب زمني صارم ينشأ عنه في بعض الأحيان خلل بالقصة التي تقطع وتجزأ، ولاشك أن مؤلف الكتاب كان في جيش الدكتاتور وكانت له خبرة عسكرية ومعرفة بطبيعة الأرض تكشفان عن ضابط عسكري نبيه. ومع ذلك فإنه لم يكن من حاشية قيْصر ولا من قيادته العليا، لأنه كثيرا ما اعترف أو أظهر جهله بخطط القائد. وقد وُهب فكرا وقّاداً ومحبا للاطلاع، فكان يجتهد لأن يعرف ويفهم ما لم يحدث بحضوره. ولكنه يسهب على الخصوص - وكما هو المعتاد - في الوقائع التي شارك فيها. وذلك هو ما يفسر الثغرات الواقعة في قصته عن معركة ثابْسوس التي جرت في مكانين يبعد أحدهما عن الآخر والتي يظهر أنه لم يشاهد سوى نصفها. وبسبب تعلقه المتين بقيْصر فإنه كان يقسو في حكمه على الجمهوريين وعلى يوبا. ومع ذلك فليس لدينا حجة للاعتقاد بأنه حرف الحقيقة، لأنه لا يخفي احترامه لكاتو. ولم يكن من رجال الأدب. أسلوبه ثقيل، مضطرب، ولغته فقيرة ذات جمل رتيبة، وألفاظ تتكرر بصفة مملة، وتعابير مقتبسة من لغة التخاطب تتحاشاها الحريصون على سلامة اللغة، بل لا تخلو من أخطاء نحوية.

واسم المؤلف مجهول اليوم كما كان يجهل سابقا عند بداية القرن الميلادي الثاني. وقد عزا بعضهم هذا المؤلّف لهيرْتيوس Hirtius لأوبْيوس Oppius وهما مساعدان لقيْصر. غير أن أيّاً منهما لم يشارك في الحملة على إفريقيا، ثم إن أسلوب هيرتيوس كاتب الكتاب الثامن من «التعليقات» Commentaires على حرب بلاد الغال يختلف عن أسلوب

«حرب إفريقيا»[32]. وقدّم بعض العلماء المحدثين اسم سالوست Salluste، واسم آسينْيوس پولْيون Asinius Pollion اللذين اشتركا في الحملة. لكن، من الخطأ الشنيع محاولة عَزْو هذا الأثر الخالي من كل قيمة أدبية لمثل هذين الكاتبين القديرين. وعلاوة على ذلك فإن سالوست وبوليون شخصيتان لهما من الأهمية ما لم يكن لمؤلف الكتاب، فقد كانا من المقربين لقيْصر، ومن رجال السياسة الذين تمتد أنظارهم لما وراء العمليات العسكرية، ومن النفسانيين الذين يبحثون عن الرجال من وراء الأعمال. وفكّر بعضهم في أن يكون المؤلِّف أحد النقباء العسكريين، وحتى في أحد الجنود. ولوحظ أن كاتب هذه اليوميات يهتم بصفة خاصة بالفيلق الخامس، وألقي السؤال ألم يكن من رجال هذا الفيلق ؟ وهو فرض ذكي ولكنه قليل المتانة.

وإذا استثنينا معركة ثَپْسوس Thapsus فإن النصوص الأخرى المتعلقة بإفريقيا لا تضيف شيئا ذا أهمية لما ذكره مؤلّف «حرب إفريقيا». وقد يمكن أن كلاً من پلْوتارْك Plutarque [33]، وأپْيان Appien[34] استخدم مؤلِّفاً إغريقيا يظهر أنه استخدم بدوره كتاب «التواريخ» Historiae لآسينْيوس پولْيون. وهو كتاب ذكرت فيه حكاية حرب إفريقيا. وأشك كثيرا في أن يكون بلوتارك قد اطلع على كتاب «حرب إفريقيا». وأمّا تيتْ ليف Tite-Live فيورد قصة هذه الحرب في كتابين من مؤلَّفه[35]. ولا أهمية لما أورده مختصرو تيت ليف. لكن ربما اعتمد عليه بصفة خاصة دِيون كاسْيوس الذي أضاف إلى يوميات رفيق قيْصر في الحرب إضافات مفيدة. وسواء أكانت هذه الإضافات عن طريق تيت ليف أم لا، فإننا نجهل مصدرها.

ويحسن أن يذكر من بين الكتّاب المعاصرين أسماء تيسو Tissot [36]، وشْتوفل Stoffel [37]، وفَايْت Veith [38] الذين درسوا ميدان المعركة بعناية. وإنا لَنرجو أن يقع اكتشاف نقوش جديدة تبين لنا مواقع بعض الأماكن التي لاتزال غير محققة والتي ورد ذكرها في اليوميات، وعلى الأخص منها موقع أگار Aggar، لأن التأكد من معرفته يمكّننا من فهم قسم بحذافيره من الحرب.

3

في اليوم الذي ورد فيه قَيْصر على ليليبي لم يجد بها سوى فيلق واحد، وما لا يزيد عن 600 فارس. وفي الأيام الموالية وردت خمسة فيالق أخرى كان من بينها فيلق واحد لقدماء المحاربين هو الفيلق الخامس. وكذلك 2000 من الفرسان وعدة من سفن الحمل والحرب. ونصب الدكتاتور خيمته على الساحل نفسه، بحيث تكاد الأمواج تصلها وذلك ليظهر شدة استعجاله في الذهاب وليحث جميع رجاله. وبرغم أن البحر كان مضطربا، فإنه سارع فأركب في السفن المشاة والفرسان. فصعد أكبر قسم من الأولين على السفن الحربية، وركب الباقون سفن النقل. ولم يلبث جل هذه السفن أن بعث إلى جزيرة أبونْيانا Aponiana (فافنْيانا Favignana من جزر إگات Aegates) حيث كان عليها أن تنتظر قيْصر. وبعد ثمانية أيام من وصوله ركب البر في 25 من ديسمبر سنة 48.

كان هذا البعث يشتمل تقريبا على 25.000 من جنود الفيالق، أي على ستة فيالق وسبع فرق تعمل في الأسطول، كما اشتمل على 2000 أو 2600 فارس وقليل جدا من المشاة الخفاف. وقد ترك قيْصر عند مغادرته صقلية تعليماته لحاكم الولاية وهو البرقنصل ألْيينُوس Alliénus

ليبعث إليه ببقية الجنود في أسرع وقت ممكن، ذلك أن الجيش المعدّ للحملة على إفريقيا كان لايزال يعوزه نحو نصفه، وعلى الخصوص الفيالق القديمة لبلاد الغال وفَرْصال، التي ثارت من قبل وهي الآن على استعداد لأداء واجبها.

لم يذكر قيْصر قبل الذهاب لمسيرى السفن وقادتها المكان الذي كان ينوي التوجه إليه، بل لم يبعث إليهم حتى بالأوامر مكتوبة على ألواح مختومة يستطيعون فتحها في البحر. وحسب مؤلف «حرب إفريقيا» فإن قيْصر نفسه كان يجهل - على ما يظهر - مكان نزوله. ولعلمه المؤكد أنه سيلقى العدو في كل ميناء بإفريقيا، فإنه قرر على ما يظهر أن ينتهز أي فرصة مواتية. إن هذا الرأي واضح التفاهة، إذ لا يقبل أن يكون قيْصر ذهب في مغامرة، وسنرى أنه أنزل جنوده بالقرب من مكان يستعمله الجمهوريون قاعدة عسكرية منذ ثلاث سنين. ومع هذا لم يرد أن ينزل البر بالقرب من أوتيكا حيث توجد جيوش أكثر عددا من جيوشه. فيظهر إذن أن نيته منذ مغادرته لصقلية كانت التوجه إلى هَدْروميت التي كان يرجو الاستيلاء عليها بسهولة. ففي هذه المدينة المهمة، الحصينة، والمزودة بميناء داخلي يستطيع أن ينتظر في أمان قدوم بقية جيوشه قبل أن يدخل المعركة. ولم يكن قيْصر ليجهل أن بهذا المكان كان جنيبَعْل قد تهيأ - بعد عودته من إيطاليا - لمحاربة سيپيون المقيم قريبا من أوتيكا Utique. ولكن قيْصر أراد الاحتفاظ بسره، واعتمد على مواتاة الحظ ليسير بسفنه حيث يشاء، وقد لامه كثير من الناس على هذا التهور الذي كاد أن يؤدي ثمنه غاليا.

هل كان ينوي التوجه توا إلى هدروميت؟ كان استيلاؤه عليها، هكذا بالمباغتة يكاد يكون متأكدا. ولكن فصل الشتاء قد حل. غير أن أخطار

غرق السفن ستكون قليلة إذا هو التحق بأقرب السواحل الإفريقية، كسواحل شبه جزيرة الرأس الطيّب، ثم بسيره بمحاذاة الساحل الشرقي لتونس. فيكون في مأمن من الرياح الغربية التي تكون عاتية في هذه الحقبة من السنة.

كان ذلك هو ما فعل عن اختيار أو ضرورة، ووصل فواجه إفريقيا بين الرأس الطيب ومدينة كْلوبْيا، لكن لم يكن معه سوى عدد قليل من السفن الحربية وسفن النقل. أما السفن الأخرى فقد شتتتها ريح عاصفة. ومر أمام كلوبيا ونيابُليس (نابل) وغيرهما من المدن والقرى ثم وصل بمواجهة هَدْروميت بعد ثلاثة أيام من ذهابه[39].

توقف قليلا أمام الميناء منتظرا سفنا أخرى تلتحق به، ثم أنزل على الشاطئ الجيوش التي كانت معه وهي 3000 من المشاة و150 من الفرسان. وعند نزوله تعثر وسقط، فكان علامة شؤم ذعر لها الجنود. فمد يده على التراب، كما لو كان ارتمى هو عمداً على الأرض، وقبّل التراب وهو يصيح : «إني أملكُكِ يا إفريقيا».

أما كُنْسيدْيوس الذي كانت له القيادة في هدروميت، فلم يصدّهم عن النزول، ولا عن إقامة معسكر قرب المدينة، عند الجنوب. ويظهر أنه كان بمستطاعه أن يرمي إلى البحر هؤلاء الأعداء الذين كان عددهم قليلا جدا. فهل أصابته الدهشة لهذا الهجوم غير المنتظر ؟ [40] ومع ذلك فلا يمكن التصديق بأنه لم يبلغه - قبل ذلك بقليل - علم باقتراب أسطول كان يسير بمحاذاة الساحل منذ نواحي الرأس الطيب.

منع قيْصر على رجاله أن يتفرقوا ويذهبوا للسلب. وطاف بأسوار المدينة، مريدا بذلك الاطلاع على طبيعة الأمكنة، ثم عاد

فدخل إلى معسكره. وجاء أحد مساعديه وهو ل. مُنَتْيوس پْلانْكوس L. Munatius Plancus الذي سيؤسس مدينة ليون Lyon فيما بعد، والذي كان لاشك صديقا لِكُنْسيدْيوس، فاقترح أن يقوم بالاتصال بهذا الأخير قصد إيجاد تسوية. فأذن له قيْصر في ذلك، وكلف أحد السجناء بحمل رسالة إلى رئيس اليومْپيين. ولكن كنسيديوس لم يرض حتى بفتح هذه الرسالة التي قال المبعوث إنها صادرة عن الإمبراطور قيْصر، بل دفعها إلى سيپيون «الإمبراطور الوحيد للشعب الروماني»، وبعدما أمر أن يقتل، وهو يرى الرجل الذي قدمها إليه.

وانتظر قيْصر وصول الجواب طوال الليل وقسما من اليوم الموالي، وكان انتظاره عبثا. فامتلأت بالمدافعين الأسوار التي سبق أن شاهد متانتها. ونعلم أن منسيديوس كان قائدا على فيلقين. كما نعلم أن كَلْبُرْنيوس بيزون شاهد من كلوبيا مرور الأسطول، وتبعه على طوال الساحل بما يقارب 3000 فارس من الأهالي، وأنه كان يسارع للنجدة. كما أن العديد من الفرسان النوميديين الذين جعلهم يوبا رهن إشارة الجمهوريين قد وصلوا أيضا لحيازة مرتّباتهم. أما قيْصر فباستثناء سبع فرق من قدماء المحاربين، لم يكن معه سوى الجدد من جنود الفيالق. ولذلك لم يكن له أن يأمل انتزاع هَدْروميت بمهاجمتها، كما كان عليه أن لا يطيل المكوث عندها، لأنه سيعرض نفسه لأن تطوقه الخيالة التي تفوق رجاله عددا.

فأصدر الأمر بالذهاب، فتقدم الأعداء النوميديون الآتون من الخارج، وجندو الحامية، واحتلوا معسكره بمجرد ما غادره، وهاجموا مؤخرة جيوشه. ولكن بعض الفرسان الغاليين صمدوا في وجه 2000 من الفرسان الأفارقة ورموا بهم إلى المدينة. وتلا هذا الهجوم حملات

أخرى رُدّت كالأولى. وفي نفس الحين، كان الجيش الصغير يتقدم من غير تهافت، وتحمي مؤخرته فرق القدماء وقسم من الخيالة. وصار ضغط النوميديين يخف كما زاد البعد عن هَدْروميت، ثم لم يعودوا للظهور من بعد.

كان قيْصر قد سار في اتجاه الجنوب الشرقي، وهو العمل الوحيد الذي كان عليه أن يعمله، إذ لم يكن بمستطاعه أن يبتعد عن البحر، وعن السفن التي جاء بها، والتي قد يلتجئ إليها إذا ساءت الحالة أيضا، ولا عن السفن الأخرى التي ينتظر قدومها بفارغ صبر، وكذلك لم يكن بمستطاعه أن يتجه نحو الشمال، لأنه يعرض نفسه لخطر الوقوع بين الأعداء الذين في هَدْروميت والذين سيأتون من أوتيكا. وكانت لِبْتيس، المدينة الحرة، تبعد بسبعة وعشرين كيلومترا عن هَدْروميت بالطريق القاصدة التي تمتد بأسفل شبه جزيرة المنَسْتير الثلاثي الشكل. وكان لها أسوار متينة، وساحل بهذا المكان تتقدمه أمكنة قليلة العمق تجعل الاقتراب خطيرا، لذلك اعتادت السفن أن ترسو في عرض البحر. ومع ذلك فقد هيئ هناك ميناء لابأس به. وكان حنّيبَعْل حينما عاد سنة 203 من إيطاليا قد أنزل جيوشه هنا. إذن لما تعذرت هَدْروميت على قيْصر، أراد أن يستولي على لبتيس.

ولكن لم يكن لديه وقت يصل فيه قبل آخر هذا اليوم، وهو يوم قصير من أيام أكتوبر. ولما انتهت مطاردة النوميديين ورد مبعوثو عدد من المدن والقرى مستعدين لطاعة الأوامر التي تصدر إليهم، ولتقديم القمح. فابتعد قيْصر قليلا عن طريقه، وجاء فعسكر قريبا من مدينة روسْبينا Ruspina الصغيرة التي أظهرت ميلا حسنا نحوه.

كان يوم الغد هو فاتح يناير بالتقويم الرسمي، يوم تدشين عهده الثالث في القنصلية. فسار نحو لبتيس التي تبعد باثني عشر كيلومترا فحسب. فجاء لملاقاته نواب عن هذه المدينة التي لم يجعل اليومْپيون بها حامية، ووعدوا أن يقوموا بكل ما يأمر به. فجعل الحرس على الأبواب، ليمنعوا الجنود من الدخول إلى المدينة، ومن القيام بنهب المنازل، ثم أقام معسكره خارج الأسوار على طول الساحل، ومنع رجاله من الابتعاد عن البحر، بل إنه أركب الفرسان بالسفن وأمر بحمل الماء إليها. فلاشك أنه أراد أن يكون على استعداد للإقلاع، إذا فرضت عليه الضرورة ذلك. وربما كان أيضا قد تخلى عن جعل لبتيس مركز التدريبات لجيشه، لأن هذا المكان لم يكن يشرف على ما حوله، كما لم يكن بمنجاة من المباغتات. وفعلا فإن بعض المجدفين نزلوا لحمل الماء فباغتهم بالهجوم بعض الفرسان الأهالي الذين خرجوا لهم من أحد المكامن. فقتل البعض، وجرح البعض الآخر.

في هذا اليوم واتاه الحظ بوصول بعض سفن النقل والسفن الحربية إلى لبتيس، فارتفع عدد مشاته إلى نحو 8000 رجل، ومع ذلك لم يزل العدد ضعيفا. فكلف قيْصر عشر سفن حربية بأن تأخذ في البحث عن السفن الضالة التي كان أكثرها لا يدري أين يذهب فاتجهت نحو أوتيكا، كما كلفها بحماية تلك السفن من العدو إذا دعا الأمر بذلك. وبعث إلى صقلية مع رَبيْريوس پوسْتوموس Rabirius Postumus قسما من السفن الحربية الأخرى. وكان هذا الغني الكبير قد اشتهر بالاغتصابات التي قام بها في مصر وبالدعوى التي دافع فيها سيسرون عنه. وهو الآن يجعل في خدمة الدكتاتور ما له من ذكاء الرجل العملي. وقد صدر له الأمر أن يعجل بإرسال البعث الثاني. وكان لابد من إيجاد الطعام للجنود، فأسند قيْصر لسالوست سفنا

أخرى يذهب بها إلى جزيرة سِرْسينا، لأنه علم أن للجمهوريين بها مؤنا كبيرة من القمح. وكتب إلى سردانية وإلى ولايات أخرى يطلب منها التعجيل بإرسال الطعام دون توان.

وفي يوم 2 يناير خلف 6 فرق تحت قيادة ك. هُسْتيلْيوس سَسيرْنا C. Hostilius Saserna في لبتيس التي كان يود الاحتفاظ بمينائها، وعاد إلى روسْبينا مع بقية رجاله. كان لاشك قد عرف قبل ذلك بيومين أن النجد الذي تقوم عليه هذه المدينة يتيح موقعا حسنا جدا إقامة معسكر حصين. فحط أثقاله في روسْبينا، ونظرا لاحتياجه إلى الطعام، فإنه ذهب مع جنود بسلاح خفيف للبحث عن القمح في المزارع القريبة. وقد عثر فعلاً على كميات كبيرة. واستولى في هذه الحملة السريعة على جميع العربات ودواب الحمل، كما أعطى الأمر بحمل أكثر ما يمكن حمله من الخشب لاحتياجه إليه في خدماته بالمعسكر الذي سيقام.

عند المساء ترك في روسْبينا ت. سَسيرْنا، وهو أخو سَسيرْنا القائد في لبتيس، وترك معه فيلقا، وقاد هو إلى الميناء الواقع على ميلين من المدينة الفِرَقَ السبع المكونة من قدماء المحاربين وهي التي سبق أن أعارها للأسطول. وأركب كل هذه الجيوش كما ركب هو أيضا، وقضوا جميعا الليل على ظهر السفن. فماذا كان ينوي أن يفعل ؟ كان الكل يجهل ذلك. غير أن الطمأنينة التي كان يوحي بها ووقار وجهه كانا يهدئان قليلا نفوس المضطربين.

كان يريد الذهاب للبحث عن السفن الضالة، وأن يصد عنها الهجمات إذا اقتضت الضرورة ذلك. وفي الفجر، بينما هو يستعد للإقلاع، ظهر قسم من هذه السفن. فأمر أن ينزل لليابسة على جناح

السرعة القدماء الذين كان قد أتى بهم إلى الميناء، ثم ينزل القادمون الجدد، وعاد مع الجميع إلى روسْبينا. وبالقرب من هذه المدينة خط المعسكر الذي سيقيم به.

غير أن ما سبق جمعه من القمح لم يعد كافيا لتموين الجيش، في انتظار أن ياتي قمح آخر بالبحر. فقام قيْصر يوم 4 يناير أي بعد قدومه بخمسة أيام، بحملة أكثر أهمية من التي جرت بيومين من قبل. فقد سار بثلاثين فرقة (نحو 10.000 رجل)، الأمر الذي يدل على أنه كان يخشى حدوث هجوم عليه. وأضاف لهؤلاء الجنود الذين تخففوا من أثقالهم الزائدة، عددا قليلا من الخيالة والقواسة ليستخدموا رواداً أو ليجمعوا القمح.

حوالي الساعة الخامسة نهارا (الحادية عشرة صباحا) كان على بعد ثلاثة أميال (أربعة كيلومترات ونصف) من معسكره، في بسيط واسع، كثير الاستواء، ولكن غير بعيد من بعض الجبال القائمة بناحية الغرب أو الشمال الغربي[41]. وهو مكان يغلب على الظن أنه اليوم بحيرة سَهْلين Sahline التي يظهر أنها تكونت منذ هذه العهود القديمة. وجاءه بعض الفرسان الذين بعثهم يرتادون، وأخبروه باقتراب العدو، الأمر الذي أكدته غمامة واسعة من الغبار. فسارع قيْصر بدعوة جميع الفرسان والقواسة المتفرقين هنا وهناك، وسار بنفسه في المقدمة تتبعه فِرَق جيشه. لقد قرر إذن مجابهة المعركة، لأنه لم يكن يستطيع الوصول لمعسكره قبل أن يلحق به اليومْبيون، ولأن تراجعا في مثل هذه الأحوال يمكن أن يؤدي إلى كارثة. فلما تراءي الأعداء أمر رجاله بوضع خوذهم على رؤوسهم والاستعداد للمعركة.

بمجرد ما عُلِمَ في أوتيكا خبر نزول قيْصر بالتراب الإفريقي، شرع لابيينوس في المسير بجيوش قادرة على السير السريع، تتكون من 1600 فارس جرماني وغالي، ومن 8000 فارس أهلي، وعدد من المشاة النوميديين ومن القواسة. فقطع 180 كيلومترا في أقل من أربعة أيام، ووجد نفسه وجها لوجه مع رئيسه السابق. وعلى مسافة قليلة من ورائه، كان بيتْرِيوس يتقدم كذلك بالفرسان والمشاة الخفاف. لكن لابيينوس لم يجد نفسه قادرا على أن يربح وحده المعركة التي كان قيْصر على استعداد لخوضها.

فكوّن جبهة واسعة من الفرسان والمشاة المختلطين. وكانت صفوفها متراصة، بحيث إن من يشاهدها عن بعد يظنها مكونة من المشاة لا غير. وجعل على الجناحين قوات كبيرة من الخيالة التي كان يقصد بها أن يحيط بالقيْصريين، وأن يلحق بهم ما لحق بأصحاب كوريون.

أما قيْصر فقد أوقف جيشه في خط واحد، يتقدمه القواسة، وجعل على الجناحين الفرسان الذين يجب عليهم حماية الخط من التطويق، وذلك لأنه كان يظن أن المعركة التي سيخوضها، ستكون على الخصوص معركة بين المشاة، معركة جبهة ضد جبهة.

وبعد انتظار قليل تحركت الخيالة البومْبية. فاتجه قسم منها لاحتلال الجبال المجاورة، لمنع القيْصريين من الالتجاء إليها لاشك، بينما ذهبت البقية لمناوشة خيالة الدكتاتور، وتهيأت لتحيط بها. ولم يكن فرسان قيْصر يزيدون على 400 فارس، وأكثرية خيولهم الشديدة في مقاومة هذه الكثرة من الأعداء. وفي نفس الحين كان المشاة النوميديون يسيرون إلى الأمام مع من اختلط بهم من الفرسان. ويرمي هؤلاء وأولئك حرابهم على جنود الفيالق القيْصرية، ثم ينسحب الفرسان، فيتوقف المشاة إلى أن

تعود الخيالة للهجوم. فحدث الاضطراب في صفوف القيْصريين. فالذين يتقدمون منهم نحو العدو، لم يكونوا بأسلحتهم الثقيلة عند القذف يستطيعون أن ينالوا الفرسان المتولين، بينما - هم أنفسهم - كانت تنال جوانبهم حراب أشد المشاة قربا منهم. فاضطر قيْصر إلى أن يمنع على جنوده الابتعاد عن خط الجبهة أكثر من أربع أقدام. أما على الجناحين فقد بدأ فرسانه بالتراجع أمام الحملات التي يتزايد ضغطها، ثم لم يلبث جيشه الصغير أن أحيط به من كل الجهات، ولابيينوس في الصف الأول، عاري الرأس، يشجع جنوده ويسخر من القيْصريين. فانبرى واحد منهم، من قدماء الفيلق العاشر، فرمى بخوذته على الأرض، وأجابه بأنفة، ثم قذفه بحربته التي جرحت فرس لابيينوس جرحا بالغا. ولكن جل جنود الدكتاتور كانوا من المجندين، فهم يخافون، وكل همهم التوقي من الحراب. وتحولت أبصارهم نحو قيْصر، فهل سينقذهم ؟

وإذ ذاك قام بمناورات عبقرية أصلحت الموقف الذي كان كالميؤوس منه. ومن المؤسف أن شروح مؤلف «حرب إفريقيا» غير واضحة هنا، بل إن النص في المخطوطات لا يُطمأن إليه كثيرا. وإليك أرجح التأويلات في الموضوع.

القيْصريون محاصرون إذن حصارا كليا، أي يحاصرهم فرسان مختلطون بالمشاة في الجبهة، وفي غيرها يحاصرهم الفرسان. وجيش الأعداء يكون من حولهم شكل إهليلج. ومن الطبيعي أنهم لم يعد بمستطاعهم أن يلتفتوا جميعا لجهة واحدة كما كان الشأن في بداية المعركة. فعليهم أن يواجهوا الذين يهاجمونهم الآن من جميع الجهات. وزيادة على ذلك اضطروا بسبب الضغط الواقع عليهم إلى أن يتضيقوا ويزدحموا.

ونجح قيْصر في تخليصهم بتكسير الإهليلج عند طرفي المحور الكبير، وبإبعاد الشقين اللذين هاجمهما في آن واحد جيشُه المكوّن من خطين كل منهما يدير ظهره للآخر. فَلِكَي يكسر الإهليلج، قام بتمديد خط المعركة أطول ما يمكن، ثم أحدث الثغرتين بواسطة جناحيه، وتمكن من تخطي الأعداء. ولكي يكوّن جبهتين مختلفتين أمر رجال نصف فرقه - فرقتين فرقتين - أن يحافظوا أو أن يستولوا على المواقع التي كانت لهم عند بداية المعركة، وأصدر الأمر للخمس عشرة فرقة الأخرى، التي كانت تتعاقب مع الأولى، أن يواجه جميع رجالها الناحية المقابلة. وهكذا تفارقت هاتان المجموعتان من الفرق أثناء سيرها إلى الأمام. ولكي يسد الفراغ الحاصل، يجب أن نفرض أن كل فرقة قد سارعت فانتشرت عرضا، وربما بالتقليل من طولها إلى النصف. وبهذه الطريقة عاد الاتصال بين هذه الجبهة وتلك. وهناك سؤال : هل تمديد خط المعركة وإحداث الثغرتين في إهليلج العدو حَدَثَا قبل تكوين الجبهتين ؟ إني أميل لتصديق ذلك، وإن كان الغير يرى خلافه. إن دقائق هذه المناورات تبقى غامضة. وإنا لنتساءل كيف أمكن لجنود جدد أن ينفذوها بنجاح، والمعركة حامية الوطيس ؟ إذن لابد أن نفوذ قيْصر على رجاله، كان نفوذا عظيما.

أخذ قيْصر لنفسه قيادة الخط الذي يتطابق مع جبهته السابقة، ثم هجم بهذا الخط، وبعدما أطلق القذائف، اضطر الفرسان والمشاة الذين كانوا أمامه إلى الفرار. وكذلك فعل الخط الثاني الذي نحى من كانوا يواجهونه. لكن لم يكن من الحكمة أن يزيد الخطان في تقدمهما، لذلك تراجعا واتصلا. وهكذا، فإن قيْصر، بعد هذا التخلص الكافي، سارع بإرجاع جنوده للمعسكر.

غير أن م. بيتريوس وكلبورنيوس بيزون ظهرا بغتة، ومعهما 1600 فارس نوميدي ماهر، وأكثر من 6000 من المشاة الأهالي، وعدد كثير من المقلاعيين والقواسة وكانوا يسارعون للنجدة.

فأوقف قيْصر السير وسط السهل، وجرت معركة ثانية. فكان الأعداء – وفقا لخطتهم – يتحاشون الالتحام، فيهجمون، ويتراجعون ثم يعيدون الكرّة. وكانت خيول القيْصريّين ظمأى ومنهوكة القوى، بل كان أكثرها جَرْحى ولم تعد قادرة على متابعة الأعداء. ومن جديد صار الموقف خطيرا على جيش الدكتاتور. وربما هنا حدث ما يروى من أن قيْصر رأى حاملا للراية يأخذ في الفرار، فأخذه قيْصر من عنقه، وأدار رأسه، ثم مد يده في اتجاه البومْپيين، وصاح به قائلا : «إلى أين تهرب إذن ؟ فمن هنا يوجد الأعداء».

وكان المساء يقترب. فأمر قيْصر جنوده أن يبذلوا جميعا جهدهم الأخير. فانطلقت الفرق والكتائب، وما هو إلا وقت قليل حتى نُحي البومبيون لما رواء الجبال. ولم يعودوا للظهور من بعد. وجرح بيتريوس جرحا بالغا أوجب تخليه عن المعركة، كما جرح أيضا كثير من الجنود، [illegible] لابيينوس على العربات إلى هَدْروميت، وقد أسر قيْصر كثيرا من [illegible] كما والاه الكثير منهم. وبعد هذا الانتصار، مكث قليلا على [illegible] التي استولى عليها، والتي كان جنوده يستريحون فوقها، ثم [illegible] على مهل إلى المعسكر.

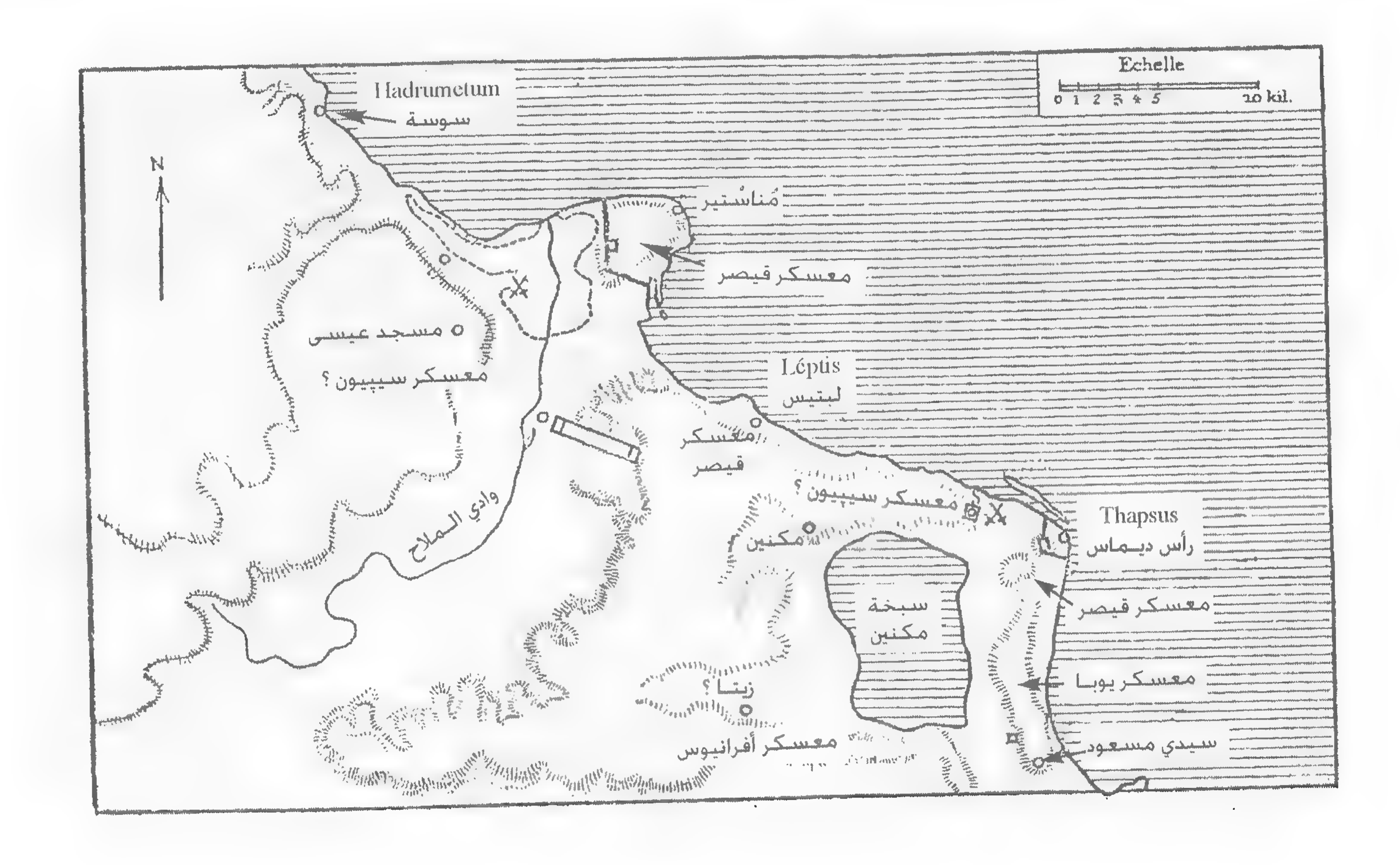
[illegible] أنه أصيب بخسائر كبيرة، وهو ما لم يشر له مؤلف «حرب [illegible] كان قيْصر استطاع أن يَتَلافى في كارثة، فإنه لم يحرز [illegible] حقيقي، لأن الذين نحاهم لم يتنحوا نهائيا. بل إنهم ادعوا

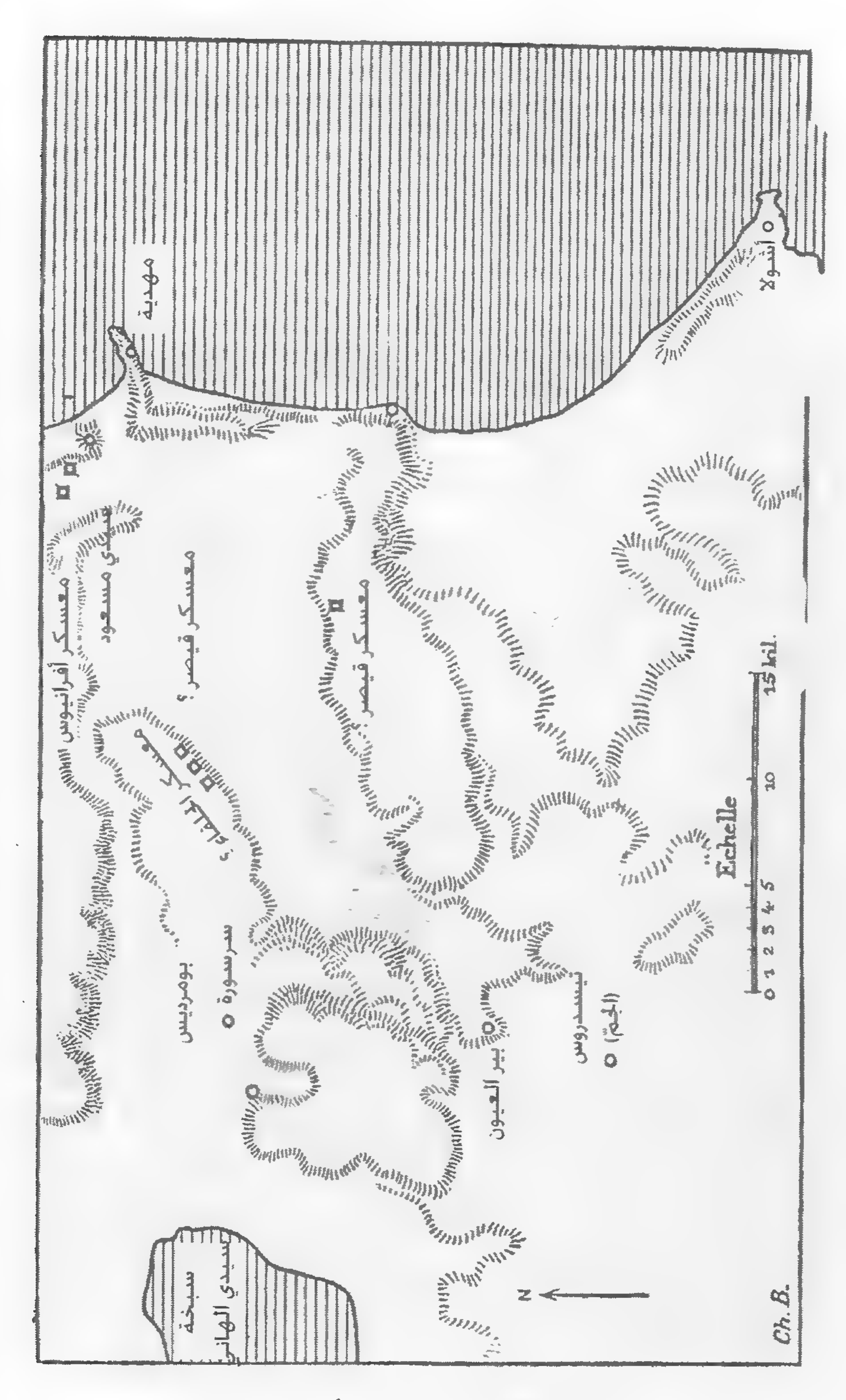
أن النصر حالفهم، وتلك مبالغة منهم[42]. غير أن قيْصر واتاه الحظ فدخل لمعسكره في روسْبينا، ولم يحاول المخاطرة من جديد.

4

بين سوسة (هَدْرُميت) ولَمْطة (لبتيس) يكوّن شبه جزيرة المنَسْتير[43] نتوءا كبيرا. وتكون في قسمه الشمالي الشرقي – وعلى مسافة 15 كيلومترا مربعا تقريبا – من نجد ينزل قليلا نحو 20 أو 30 مترا على الأراضي المحيطة به. فهو معقل طبيعي يحميه من هذين الجانبين حد منحدر، وتحميه أمواج البحر من الجهات الأخرى. وتسهل منه مراقبة جواره الذي هو سهل أغلبه مُسْتوٍ، ويمتد إلى أكثر من عشرين كيلومترا في اتجاه الجنوب، كما يتسع كثيرا بين الربى التي تقوم على جانبيه الغربية، ميناء صغير على الساحل الشرقي لِشبه الجزيرة، كما كان ميناء لِبْتيس على بضعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي.

هذا السهل الذي تقوم به مدينة روسْبينا Ruspina هو الذي قرر قيْصر أن يستولي عليه، فيجعل منه معقلا يتحدى هجمات الجمهوريين، ويدرب فيه جنوده الشبان، ويحصل منه عن طريق البحر الذي يبقى منفتحا أمامه على المعدات والمؤن التي قد يحتاج إليها. ولشدة عزمه أن لا يخاطر بهجوم قبل الأوان، فإنه سينتظر جنوده – أو على الأقل – قسما من الجنود الذين لم يستطع أخذهم معه عند مغادرته صقلية، وكانوا أفضل جيوشه. وإذا حل الوقت، فإنه يخوض المعركة الحاسمة في هذا السهل الممتد عند أقدامه، والذي يظهر ولكأنه صُنع لتتلاقى فيه الجيوش.


Hadrumetum
سوسة
Echelle
0 1 2 3 4 5
20 kil.
N
مُناسْتير
معسكر قيصر
مسجد عيسى
معسكر سيپيون ؟
Léptis
لبتيس
معسكر
قيصر
وادي الملاح
معسكر سيپيون ؟
مكنين
Thapsus
رأس ديماس
سبخة
مكنين
معسكر قيصر
زيتا ؟
معسكر يوبا
معسكر أفرانيوس
سيدي مسعود



خارطة حملة قيْصر في أفريقيا

وخلافا لما اعتقده البعض، فإن روسْبينا لم تكن على الساحل برأس شبه جزيرة المنَسْتير. بل كانت تبعد عن البحر ببعض المسافة، والأغلب على الظن أن بقاياها هي خرائب هَنْشير تَنّيرHenchir Tenir الموجود بالزاوية التي يكوّنها حد النجد فوق السهل. فمن هنا حتى الساحل في اتجاه الشرق كانت المسافة كيلومترين في خط مستقيم، غير أن ميناء روسْبينا كان أبعد من ذلك بقليل، أي على بعد ميلين اثنين (ثلاث كيلومترات) بالشمال الشرقي.

في يوم 3 يناير، كان قيْصر قد اختار موقع معسكره في مكان قريب من المدينة، وكان لاشك بالشمال، على طرف النجد كذلك، كما كان يبعد بنحو كيلومترين ونصف عن أقرب نقطة من الساحل شمالا. وفي الأيام الموالية لمعركته المزدوجة مع لابيينوس وبيتْرِيوس حصّن هذا المعسكر تحصينا متينا. وأقام كذلك على جانب النجد بطوله تحصينات ربطت بين البحر والمعسكر من جهة، وبين البحر وروسْبينا من جهة أخرى. أما المدينة التي استولى عليها الجنود فلاشك أنها ارتبطت مع المعسكر بنفس الطريقة. وهكذا تَكّون خط مستمر يسير من البحر إلى البحر، محمي جدا، ويقع خلفه النجد الذي يكوّن ميدانا فسيحا للتدريب يبلغ طوله ستة كيلومترات ونصفا.

أنزل قيْصر الآلات والقذائف، وأقام المصانع لصنع السهام والحرب وكُرات المقاليع، وبعث إلى صقلية يطلب الحديد والرصاص، ويطلب حتى الخشب لصنع الحزم لتغطية الخنادق وصنع الكباش(44). وكان يراقب الخدمات كل يوم، وبعدما يدخل خيمته يصدر الأوامر كما لو كان حاضرا في كل مكان. ولكي يحصل على المشاة الخفاف لخلطهم مع الفرسان، فإنه أنزل إلى الأرض قسما من المجدفين وجنود البحر، كما أن بعض القواسة الذين كانوا يعملون على الأسطول قد وقع إنزالهم ليعملوا على الأرض.

وكانت بعض سفن النقل لاتزال تائهة، ولم يَدْر قادتها أين يلحقون بقَيْصر، فاستولى العدو على بعضها أو أحرقه. وكان فِرْجيلْيوس Vergilius حاكم ثابسوس Thapsus الذي خرج للمطاردة قد نجح في الاستيلاء على إحدى هذه السفن، وكان على ظهرها نقيبان للفيلق الخامس، فبعث بالسجينين إلى سيپْيون الذي أعدمهما بقسوة. وقد رتب قَيْصر سفنا حربية حول بعض الجزر والموانئ ليمنع خروج اليومْپيين وهجماتهم، وليلحق ويحمي السفن التي تنقل له الجنود والمؤن.

وسرعان ما أصبح سيپْيون مستعدا للذهاب بنفسه إلى قَيْصر، بعد أن كان بعث لابْيينوس وَبِيتْريوس لمحاربته عندما علم بقدومه. فترك مع كاتون جيوشا عديدة، وغادر أوتيكا يوم 6 يناير بعد يومين من المعركة التي جرت قرب روسْبينا. فأخذ معه ثمانية فيالق و3000 فارس، وتوقف بضعة أيام بهَدْروميت ثم سار ليلاً ولحق بمساعديه الاثنين (حول يوم 14 يناير).

في السهل، على بعد 8 كيلومترات جنوبي الجنوب الغربي لِروسْبينا، تقوم مدينة أوزيتا Uzitta فوق ربوة[45] على الضفة اليمنى لأحد المجاري المائية الذي يسمى وادي الملاح Oued el-Melah[46] وقد أقام سيپْيون معسكرا لجميع جيشه قرب هذا المكان ليأخذ من النهر حاجته من الماء. وأقام بالمعسكر ثلاثة أشهر. ونحن نجهل مكان المعسكر بدقة. غير أن «حرب إفريقيا» في قطعة مبتورة منه يذكر لهذا المعسكر مسافة تفرض – مع كثير من الاحتمال – أنها تتمم ابتداء من معسكر قَيْصر. والمخطوطات تذكر ثلاثة أميال أي أربعة كيلومترات ونصفا، الأمر الذي يؤدي بنا إلى نفس المسافة على وجه التقريب شمالي الشمال الشرقي لأوزيتا. غير أن عدد الكيلومترات ربما وقع فيه اضطراب، وهناك قِطع

أخرى من نفس الكتاب تدعونا لنبحث عن معسكر الجمهوريين بالشمال الغربي لأوزيتا، على بعد ستة أميال تقريبا من معسكر قيْصر.

وأخذ يوبا أيضاً في المسير[47]، يريد أن يقضي بسرعة على قيْصر علماً منه أن هذا الأخير صارت فِرَقه العسكرية قليلة وضعيفة. غادر نوميديا للالتحاق بِـ سيپْيون، وهو على رأس جموع من الفرسان والمشاة[48]. في هذه الأثناء تدخل الملك بوكوس وقائد الجنود المرتزقة سيتْيوس، فعبرا بسرعة ممالك مسِنيسّا وانقضّا على ممالك يوبا، وبعد أيام قليلة دخلا مدينة سِرتا العظيمة[49]. ثم تابع ستيوس ما ناله من نجاح فنهب المدن والبوادي. ولكي يضرب المثل، أقدم على قتل جميع المدافعين عن مدينتين جيتوليتين، لكونه أمرهم بمغادرتهما فامتنعوا.

بلغ خبر هذا الهجوم إلى يوبا وهو على مسافة قريبة من سيپْيون[50]. فعجل بالعودة ليغيث مملكته، بل أخذ من اليومْپيين قسما من النوميديين الذين كان أعارهم لهم، وإن كان جعل رهن إشارة سيپْيون ثلاثين من فيِلَته. فعمل هذا على تربيتها في معارك مفتعلة، حتى لا يكون سوءها – مثل الكثير من سابقاتها – أكثر من نفعها على من يستخدمونها في المعركة الحقيقية.

كان تغيب يوبا خيبة أمل كبيرة لاشك، ومع ذلك فإن سيپْيون برغم اقتصاره على جيشه الخاص، قد كان رهن إشارته من الجنود أكثر مما لقيْصر، ثم كان يصله آخرون من أوتيكا، حيث كان كاتون يجند جميع من يستطيع أخذهم ليبعث بهم إليه. وجند حتى العبيد كما أكد بعض الناس.

كان القيْصريون على نجد روسْبينا، وكأنهم في حصن محاصر. فالفرسان الأعداء يطوفون حولهم، ويأسرون منهم من خرج للبحث عن

الماء أو العلف. كما كانوا يدخلون كل يوم في مناوشات مع الفرسان الذين كان الدكتاتور يجعلهم في مواقف الحراسة أمام الخنادق. وفي بعض المرات كان الحظ يساعدهم فيباغتونهم. وقد ذكر بلوتارك[51] أن بعض القيْصريين تركوا خيولهم لخدمهم، واجتمعوا حول أحد الأهالي الذي كان يرقص وينفخ في الناي بصفة معجبة، وعلى حين غرة وقع عليهم هجوم كاد يؤدي بهم جميعا لولا أسينْيوس پولْيون، ولولا قيْصر اللذان خرجا لتخليصهم. وفي بعض المرات كان الفرسان الغاليون والجرمانيون من الجيشين يدخلون في هدنة ويتجاذبون الحديث بينهم.

وكان بعض الرؤساء الجمهوريين يشعرون أن هذا الحصار كاف. لأنهم كانوا يخشون عاقبة معركة يواجهون فيها رجلا حربيا لا يجهلون عبقريته، حتى إن كاتون لم يخف أبدا مخاوفه في هذا المضمار. وكان الأفضل أن يبقى قيْصر سجينا بمعقله في روسبينا في انتظار أن يموت جوعا. أما سيپْيون فهل كانت له الثقة الواسعة في نفسه لنيل الانتصار، وهو الأمر الذي عيب عليه ؟ أو كان على النقيض من ذلك متأكدا من أن قيْصر لا يرى نفسه في حالة تسمح له بقبول المعركة ؟ وهل ود أن يعرضها عليه، ليرفع من معنويات جنوده هو، ليعطيهم الحجة على أن هذا القائد الذي انتصر عدة مرات لا يستطيع أن يصارعهم ؟

فكان كل يوم تقريبا يخرج قسما من جيوشه لثلاثمائة خطوة من معسكره، ويوقفهم في خط، ثم يتركهم هكذا عدة ساعات، ثم يعود بهم.

وأخيرا قرر أن يسير بكل جيشه الذي اتخذ نظام المعركة على أطول جبهة ممكنة، وجعل في المقدمة الفيلة الثلاثين التي تركها له يوبا والتي كانت تحمل بروجا. وتقدم حتى وصل إلى مسافة قريبة من معسكر قيْصر. فدعا الدكتاتور لداخل التحصينات رجاله الذين كانوا بالخارج

يجمعون العلف والحطب، أو كانوا يعملون في المنشآت الدفاعية، وأمر الرقباء أن يبقوا في مراكزهم حتى يصيروا على مدى طلقات سهام العدو، لكن إذا استمر العدو في تقدمه فليدخلوا في نظام حسن. غير أن سيپْيون بقي بعض الوقت حيث وقف، وكان ذلك تحديا منه. ثم أرجع بعد ذلك جنوده للمعسكر، وجمعهم في مجلس أوضح لهم فيه خوف القيْصريين وواعدهم بالنصر القريب.

لم تكن التحديات هي التي تغير قرارات قيْصر الذي ما كان ليخاف أن يحاول سيپْيون الهجوم على خطوطه القوية والمزودة بالآلات الكثيرة. ومع ذلك فإنه زاد في تقويتها بإقامة الأبراج والحصون، ويحفر ثقوب التعويق المزودة بالأوتاد الحادة[52]، وبإنشاء الأرصفة الحجرية في البحر لصون نهاية الأسوار. ومع انزعاجه بسبب انتظار بقية فيالقه، فإنه كان يحتفظ بكامل اطمئنانه ويظهر أشد نشاطا من ذي قبل. أما المجندون فكانوا يتكونون بالتدريبات وبالخدمات في المعسكر.

ومن هذه الأرض الإفريقية نفسها، من الجهة التي كان بها كالمسجون، وردت عليه علامات العطف وعروض العون.

ولما علم أن الناس يشكّون في وجوده بإفريقيا، وأنهم يعتقدون أن جيوشه هي تحت قيادة أحد مساعديه، بعث لجميع جهات الولاية الرسائل لإزالة الشكوك. ويحسن الاعتقاد بأن الكثير من هذه الرسائل قد بلغت إلى من وجهت لهم. فوفد عليه الوجهاء من بعض المدن، وكانوا – كما قيل – غاضبين مما يقوم به اليومْپيون من استنزاف للأموال ومن العنف.

وفي كل يوم كان بعض النوميديين والجيتوليين يفرون من معسكر سيپْيون رغما عن الحرس المنصبين لمنعهم من ذلك. فكان بعضهم

يعودون إلى بيوتهم، ويذهب الآخرون إلى معسكر الدكتاتور، لعلمهم أن له قرابة عائلية مع مارْيوس Marius الذي كان أحسن إلى بعض أجدادهم عقب حرب يوغرطة. فاختار قيْصر من بين هؤلاء الموالين رجالا من أفضل الأسر وأعادهم إلى قومهم يحملون رسائل تدعو الأهالي لتنحية استبداد أعدائه. وهكذا تهيأت الفتن التي ستندلع عما قريب. وكان اثنان من الجيتوليين قد ذكر لسيپْيون أنهما ثقة، فكلفهما أن يتقدما إلى معسكر روسْبينا كفارّين وأن يتجسسا له بالمعسكر، غير أنهما سارعا بإخبار قيْصر بالمهمة التي أسندت لهما، وأكدا له أن كثيرا من مواطنيهما قد يوالونه إن استطاعوا. وفي الغد فر بالفعل إلى القيْصريين عدد كثير من الجيتوليين الذين كانوا يعملون بفيلقين جمهوريين.

بالرغم عن هذه الإرادات الحسنة، فإن قيْصر لم يكن له خارج نجد روسْبينا سوى مدينة لِبْتيس التي رأينا من قبل أنه ترك بها ستّ فرق. وقد حاول لابْيينوس بهجوم للخيالة أن يستولي على هذه المدينة، ولكن حمايتها كانت حسنة. وقد أرسلت إحدى الآلات من فوق الأسوار قذيفة سمّرت قائد إحدى الكوكبات على ظهر فرسه، فانطلق أصحابه في الفرار.

احتفظ إذن قيْصر بمدينة لبتيس، وبعد قليل أصبح سيد مدينة أخرى هي أشولا Acholla[53]، وهذه المدينة تقع بعيدا جدا، وربما على نتوء «رأس كَبُودْية» بنحو ستين كيلمترا من روسبينا[54]. لقد أرسلت إلى الدكتاتور موفدين يعرضون عليه القمح وجميع ما قد يحتاج إليه، وطلبوا منه الجنود لحمايتها. ومن المفيد لقيْصر أن تكون رهن إشارته عدة موانئ يستخدمها في مواصلاته مع صقلية، وميناء أشولا يمكن أن يكون بالغ القيمة إذا دعته عملياته العسكرية لهذه الناحية. فاستجاب إذن لطلب الموفدين وأصدر أمره إلى ك. ميسْيوس C Messius بالذهاب على رأس

عدة فرق. وأمره أن يسير برا، وكان ذلك جرأة منه. فوصل ميسيوس دون عائق. ولحسن حظه أنه أسرع، لأن البومْپيين علموا بالمسير إلى أشولا، فخرج كُنْسيدْيوس الذي كان قائدا على هَدْروميت وسار بثماني فرق ليستولي على المدينة. فلما كان عند أسوارها علم أن القيْصريين سبقوه إليها، فلم يجرؤ على الهجوم وعاد إلى هَدْروميت. لكنه عاد للظهور بعد ذلك ببضعة أيام، وكان معه – زيادة على فرقه – خيالة نوميديون وجيتوليون تسلّمهم من لابيينوس ثم شرع في محاصرة أشولا. وقد عرف ميْسيوس وأهل المدينة كيف يدافعون عنها.

وقدم كذلك على قيْصر مبعوثون عن مدينة ثيسْدروس Thysdrus [55] الواقعة على نحو 50 كيلومترا جنوب روسْبينا. وأخبروا أن 300.000 بْواصوا من القمح قد نقلها لهذا المكان فلاحون وتجار إيطاليون[56] وطلبوا حماية من الجيش كما فعل أهل أشولا. ولكن ثيسْدروس كانت تقع داخل الأراضي، ولذلك تصعب المواصلات بينها وبين معسكر روسبينا. فشكر قيْصر المبعوثين وصرفهم مكتفيا بأنه سيبعث بهذه الحامية بمجرد ما يمكنه ذلك.

فلو أن هذه المطامير من القمح عرضت عليه قبل ذلك بأيام قليلة وهو لا يقدر على استخدامها، لعذبه ذلك عذابا شديدا. فقد سبب له تموين جيوشه وساوس وآلاما، لأن الخروج إلى البوادي المجاورة كان ممنوعا عليه، وكانت المجاعة تهدده، كما كان ينقصه العلف، الأمر الذي اضطره إلى أن يقوت خيوله بالأشنة (algues) التي نقعت في الماء العذب لتزول عنها الملوحة، والتي كانوا يخلطون بها العكرش (chiendent) لتصير مستساغة بعض الشيء. أما الجنود فكان لابد أن يقتر عليهم في انتظار المؤن التي طلبت من صقلية وسردانية، والتي قد يعاكس

نقلها فساد الأحوال الجوية، لكن لحسن الحظ حالف النجاح حملة سالوست على سرسينة (قَرْقنة) : إذ أن المتصرف المالي السابق ديكمْيوس Decimius المكلف بحراسة مخازن الحبوب ركب قاربا وسارع بالفِرار لما علم بقدومه. واقتبل سالوست بالجزيرة اقتبالا حسنا، ووجد بها كثيرا من سفن النقل التي ملأها بالقمح وبعثها إلى روسْپِينا.

أما في صقلية فإن البرقنصل ألْينوس Alliénus ورَبيْريوس Rabirius كانت تصلهما من قيْصر أشد الأوامر إلحاحا. وأخيرا أبحر البعث الثاني الذي كان عليهما أن يهيآه، وكان إرساله بثلاثة أسابيع بعد البعث الأول، وكان يحمل فيلقين من القدماء هما الفيلق 13 والفيلق 14، و800 فارس غالي و1000 من المقلاعيين والقواسة. وكان العبور حسنا، إلا أن كثيرا من السفن جرت بها الرياح فوقعت في قبضة الأعداء. كما أن سفينة من ذوات الصفوف الثلاثة Trirème قد أُسِرَت قرب جزيرة إيجِمور Aegimure، عند مدخل خليج قرطاجة وكان بها جنود قدماء وجدد من الفيلق 14 مع قائد للمائة Centurion. فبعث بهم فاروس إلى سيپْيون الذي وعدهم بالإبقاء على حياتهم وحتى بالمكافأة إن أرادوا الانضمام لجيشه. فرفض قائد المائة بأنفة وتحدى الإمبراطور. فأمر سيپْيون بقتله بمحضره، كما أمر بإعدام القدماء خارج المعسكر، ثم أبقى على المجندين الجدد وضمهم لفيالقه.

بعد ثلاثة أيام وصل معظم الأسطول إلى ميناء روسْپينا. فسُرّ قيْصر سرورا عظيما، ووزع الواصلين الجدد على حصونه وخطوطه الدفاعية ثم أعاد سفن النقل إلى ليليبي لتأتيه بقية جيشه. وحيث إن تحت يديه الآن 33.000 رجل، فإنه لم يعد ينتظر للشروع في الهجوم، لأنه أراد أن يقهر سيپْيون مقدما، إذ كان لاشك يدرك أن يوبا سيعود قريبا.

الكتـاب الأول

يوليوس قيْصر وأفريقيا

الفصل الثالث

معارك أوزيتا وأكـار

1

كان من اللازم على قيصر أن لا يبتعد عن الساحل ويعرض للخطر مواصلاته مع صقلية. ومع ذلك قرر أن يترك نجد روسبينا الذي كان له ملجأ أمينا حين لم يكن قادرا على المعركة، وكان كذلك سجنا ضيقا، إذ كان لا يستطيع فيه التموين إلا عن طريق البحر. فرأى من الواجب أن يحتل موقعا آخر يشرف هو أيضا على سهل أوزيتا، هذا الذي يعسكر به الجيش الجمهوري، والذي يظهر للعيـان كميدان للمعركة المقابلة : موقع – في آن واحد – واسع حصين، في مأمن من المفاجآت وهجمات خيالة العدو والتي تفوق خيالته، ومن محاولة الحصار، فيكون ملجأ أمينا في حالة الاندحار، ويتصل بأراض خلفية تساعده خيراتها على إطعام جيشه، وبالقرب منه ميناء سيستولي عليه.

يمتد عند شرق السهل نجد طيني يتراوح ارتفاعه بين 80 و90 مترا، ينتهي بطرف يميل في انحدار قليل، وتخترقه شعاب واسعة، عميقة ومتوازية، وتكوّن الأرض الفاصلة بين الشعاب سلسلة من الكدى أو التلال. وعلى بضعة أميال إلى الخلف يوجد ميناء لبتيس الذي هو في قبضة قيْصر. وتمتد شرقا وجنوبا البوادي الخصبة التي تقوم بها اليوم مُكْنين وبني حَسَن، والتي كانت تَعِد بالمؤونة. على طرف هذا النجد قرر قيْصر أن يقيم معسكرا واسعا وحصينا، ينزل منه إلى السهل ليخوض المعركة ضد سيپْيون. لكن يظِهر أن سيپْيون لم يفطن لقصده، وعلى كِل حال فقد تركه ينفلت.

في ليلة 25 إلى 26 يناير (أي 9 إلى 10 نفمبر بالتقويم المعدل) أخرج الدكتاتور جميع الفيالق من معسكره المجاور لروسبينا، وكان ذلك من غير أن يعلم أحدا بنوياه. وقادهم أولاً لهذه المدينة حيث ترك حامية، ثم نزل إلى الجنوب وسار مع البحر، وبعدما قطع نحوا من ثمانية كيلومترات، بلغ نهاية الشمال الغربي للنجد وصعد إليه.

كانت الكدى الأولى التي ظهرت من هذه الجهة بين الشعاب، تعلوها بروج قديمة جدا بنيت لتستعمل كمراكز للمراقبة. وكان سيپْيون قد أحل النوميديين في أبعدها إلى الجنوب، فوق كدية القبلة Koudiat el Guebla على ما يحتمل، وهي على ثلاث كيلومترات في خط مستقيم من الساحل[57]. وكانت تمر من هنا طريق تربط بين أوزيتا ولبتيس، ولاشك أن اليومْپيين لم ييأسوا من استرجاعها من يد العدو.

وفي أقل من نصف ساعة استولى قيْصر على الكدى القريبة من البحر، وهكذا وصل إلى مسافة قريبة من الكدية التي تحمل آخر البروج والتي كان النوميديون يحمونها، ثم وقف قليلا ليتعرف على طبيعة

المكان. ولكي يحمي المواقع التي استولى عليها، فإنه أمر جنود فيالقه بإقامة تحصين في وسط المنحدر، بينما أخذ هو في نشر خيالته بأسفل النجد، وذلك ليتأتى له حماية القائمين بالخدمات إذا دعت الضرورة لذلك.

وصل إلى علم سيپْيون ولابيينوس ببعض التأخر خبر مسيرة قيْصر، فأخرجا جميع خيالتهما ورتباها في نظام المعركة. وأصدرا الأوامر للفرسان أن يبتعدوا بنحو 1000 خطوة من معسكرهم. ووراء هؤلاء، على أقل من 400 خطوة من المعسكر أوقفا المشاة في خط ثان، ثم زاد الفرسان من تقدمهم ووصلوا إلى 1500 خطوة من خط دفاع القيْصريين. فصار من المستحيل على هؤلاء أن يتابعوا التحصين والحالة هذه، فأصدر قيْصر لهم الأمر بتوقيف العمل.

كان لابد له من تنحية النوميديين الذين كانوا على جناحه الأيسر يحتلون واحدة من الكدى التي على رف النجد. فتكفل بهذه المهمة كوكبة من الأسبانيين المعززين بمجموعة صغيرة من المشاة المسلحين بسلاح خفيف. وانتهى الأمر بأن «الباربار» (النوميديين) الذين لم يقعوا في الأسر، قد فروا إلى الجهة المقابلة للتي انطلق الهجوم منها، أي نحو الجنوب الغربي، والمنتصرون يطاردونهم.

فجرد لابيينوس من خط خيالته أغلب جناحه الأيمن وانطلق به لنجدة الفارين. فلما رآه قيْصر قد صار على بعد كبير من معظم جيشه أمر الجناح الأيسر لخيالته هو أن يذهب ليسد عليه الطريق. وكان في القسم من السهل الذي تجري به هذه العملية ضيعة واسعة جدا مزودة بأربعة أبراج منعت لابيينوس من أن يتنبه للمناورة التي يقوم بها فرسان قيْصر. ولم يتنبه إلا عندما كان القيْصريون قد داروا مع الضيعة وانقضوا من الخلف على رجاله. وفي نفس الحين كان ينزل من النجد،

من الجهة المقابلة، الفرسان الأسبانيون الذين طاردوا النوميديين بعدما نحّوهم عن مركزهم. فذعر الأهالي الذين كانوا يراقبون لابيينوس، وانطلقوا للفرار عائدين إلى المعسكر من أقرب طريق. أما الغاليون والجرمانيون فقد قاوموا ببسالة، ولكنهم أحيط بهم وقتلوا. ووصل الهلع إلى فيالق سيپْيون فتسارعوا يزدحمون على المعسكر من جميع الأبواب. أما قيْصر فأعلن الأمر بالتراجع وأدخل فرسانه في خطوطه.

وفي الغد نزل إلى السهل بجميع جيوشه، وقد رتبها في نظام المعركة. وحيث إن الأعداء لم يخرجوا من معسكرهم، فإنه اقترب منه، مسايرا أسفل النجد أول الأمر، ثم زاحفا على أوزيتا Uzitta دائما في نفس النظام الذي اتخذه لجيشه، حتى كان على أقل من ألف خطوة من المدينة. ولم يكن بمستطاع سيپْيون أن يتركها تسقط، فقد رأينا أنه كان يأخذ منها الماء، كما كان له بهذا المكان مخازن للسلاح والطعام. فقرر إذن أن يخرج جميع جيشه، وقسمه إلى أربعة خطوط، أولها مكوّن من كوكبات الخيول التي تعقبها فِيَلَة تحمل أبراجا، ثم سار لنجدة أوزيتا. فاتخذ المدينة لحماية موسطته، ثم توسع كثيرا في نشر جناحيه بالسهل أمام العدو وانتظر أن يهاجمه قيْصر. وهي خطة محكمة، ولعل لابيينوس هو صاحبها : ذلك أن العدو يجب عليه في آن واحد أن يهاجم أوزيتا التي لها حامية نوميدية تتوصل من الخلف بكل النجدات التي قد تحتاج إليها، كما يجب عليه أن يحارب يسارا ويمينا فيكون مهددا بأن تطوقه خيالة كثيرة العدد، وبأن تسحقه الفِيَلَة. غير أن قيْصر لم يرد أن يخوض المعركة في هذه الأحوال غير المناسبة. وأملاً منه في أن سيپْيون سيمل الانتظار ويهاجمه، فإنه مكث بالمكان الذي توقف به على بعد 1500 متر من أوزيتا، حتى كادت الشمس تغرب. وفي المساء أعاد

إلى النجد جنوده الذين كانوا تحت السلاح، ومن غير أن يتناولوا طعاما منذ الصباح.

وكان لهجوم الدكتاتور ونجاحه الأول أصداء تجاوزت سهل أوزيتا. ولما بلغت هذه الأنباء إلى كُنْسيدْيوس الذي كان يحاصر أشولا، والذي رأى عدة مرات منشآته تحترق على يد العدو، خشي لاشك، إن طال به المقام أمام أشولا، أن تنقطع مواصلاته مع جيش سيپْيون ومدينة هدرميت التي جاء منها. فَأَتْلَف مؤونته من القمح والخمر والزيت وبقية الطعام، ثم عجل بالرحيل. ولو أنه سلك أخطر طريق للدخول إلى هَدْروميت، لأمكن أن يصطدم بقيْصر. لذلك رأى من الحكمة أن يطيل الطريق جدا نحو الغرب وذلك بأن يمر بالمملكة النوميدية. وسلم إلى سيپْيون أو بعث إليه قسما من الجيوش التي كانت معه.

وهناك نتيجة أخرى لدخول قيْصر في المعركة، وهي قدوم يوبا على الجيش الجمهوري. ولقد سبق أن رأينا كيف أن الملك كان قريبا من أن يتصل بسيپْيون، وأنه دُعي لمملكته بسبب الهجوم المفاجئ الذي شنه بوكوس وسيتْيوس. ولكن رجوعه لم يكن كافيا لإيقاف المهاجمين. وكان من جملة ما ناله سيتيوس من النجاح أنه استولى عنوة بقمة أحد الجبال على قلعة كان يوبا قد حمل إليها قمحا ومعدات حربية، غير أن رجاء سيپْيون الملحّ دفع بالنوميدي إلى الخروج من مملكته من جديد ليشارك في المعركة ضد قيْصر. وقد ادعى ديون كاسْيوس[58] أن سيپْيون واعده أن يتنازل له عن جميع ما يملكه الرومانيون بإفريقيا، مقابل الحصول على مساعدته.

ترك يوبا إذن مساعده سابورا Saburra، قاهر كوريْون، على رأس قسم صغير من جيشه، وكلفه بمحاربة سيتيوس، بينما قدم هو مع ثلاثة

فيالق، و800 فارس نظامي، وعدد كبير جدا من الخيالة والمشاة المجهزين والمسلحين بسلاح خفيف، وأخيرا بثلاثين من الفيَلة. وأقام معسكره على حدة، على بعض المسافة من معسكر سيپْيون. ولعله فعل ذلك لِيوضح أنه لا يخضع لأحد. فكان يحلو له – تكبراً منه – أن يهين الرومانيين وقائدهم، وذلك بأن يطالب لنفسه وحده بحق ارتداء الرداء الأرجواني الذي هو علامة القيادة العليا، وبإصدار الأوامر بعنف حتى لأعضاء مجلس الشيوخ.

وبلغ الخبر إلى جيش قيْصر بقرب وصول يوبا، فكان له وقع أليم في الجيش، وذلك لشدة ما بالغ الناس في قوة هذا الباربار. وعلم الدكتاتور بهذه المخاوف فاستدعى جنوده وألقى عليهم خطابا قصيرا مما اعتاد أن يفعل: «اعلموا أن الملك سيأتي بعد أيام قليلة جدا بعشرة فيالق و30.000 فارس، و100.000 رجل مسلحين بالسلاح الخفيف و300 فيل. فليتوقف بعض الناس عن البحث والظن من الآن، وليصدقوني أنا الذي أعلم الأمور جيدا، وإلا فإني سأجعلهم على ظهر أقدم السفن عندي، على تلك التي تسير بها أي ريح لأي أرض». والحق أن قيْصر كان يعتمد – وهو على صواب – على حصول تغير في الأفكار حينما يرى الجنود معسكر يوبا، ويعترفون بأنه لم يكن فيه ما يدعو للخوف.

وفي اليوم التالي لوصول الملك أوقف هو وسيپْيون جميع جيوشهما وستين فيلاً في نظام المعركة، وتقدم الجميع بعض المسافة عن المعسكرين ثم عادوا ودخلوا المعسكرين بعد ذلك بقليل. ولا شك أن هذه المناورة قد كان القصد منها إضعاف معنويات العدو، ولكنها لم تحدث هذا الأثر.

وفي انتظار الفرصة المواتية لخوض المعركة التي ستكون حاسمة، كان على قيْصر أن يضمن لنفسه موقعا قويا جدا في النجد المشرف

على سهل أوزيتا. فهو في اليوم الأول من هجومه استولى بطرف هذا النجد على الكدى التي كانت شديدة القرب من البحر، حتى «كُدْية القَبْلة» دون شك. وفي الأيام التي تلت ذلك، سواء قبل قدوم يوبا وبعده، توسع إلى كدى أخرى – «كُدية الرصاص»، و«غار الضَبْع» – جنوب «كُدية القبلة» هذه لكي يصل إلى مواجهة أوزيتا ومعسكر سيپْيون.

وفعلا فإن الأرض – سواء أكانت على هذه التلال التي تشبه حصونا تفصل بينها الشعاب، أو كانت من وراء، على النجد نفسه – قد وقع تجهيزها تجهيزاً محكماً. فكان الجنود يكدّون في حفر الخنادق وإقامة المعاقل والآطام. وقد تغير محل المعسكر الرئيسي عدة مرات تبعا لتقدم الخدمات نحو الجنوب. وحيث أن الإقامة بالمكان كانت مؤقتة، فإنها كانت بسيطة، وكانت الخيام قليلة العدد، إذ لم يحمل من صقلية إلا أقل ما يمكن من المتاع وذلك للتخفيف على الأسطول، وكان أغلب الجنود ينامون في مآوي صنعت من الملابس ومن القصب والأعشاب المتشابكة. وذات ليلة هاجت عاصفة شديدة يصحبها برد، فهدمت هذه المآوى الواهنة وأطفأت النيران وأتلفت كثيرا من المؤن. وحدث أن لمعت النيران في أسنّة رماح الفيلق الخامس، فأحدثت هذه الظاهرة الكهربائية – على ما يظن – دَهَشاً شديدا لمؤلف «حرب إفريقيا» ورفقائه.

وفيما وراء غار الضَّبْع، وخلف شِعب عميق، واسع بنحو مائة متر، تخترقه صدوع كثيرة، توجد كدية أخرى أكثر علوا، هي «كدية سيدي جحا» التي يمتد منها البصر بعيدا فوق السهل والنجد. وقد تنبه الأعداء إلى أن قيْصر ربما أراد احتلال هذه الكدية، فقرروا أن يسبقوه إليها، فيوقفوا بهذا العمل تقدمه نحو الجنوب، ويهددوا جناحه. وكان لابيينوس هو الذي تكفل بهذه المهمة، فافترق مع سيپْيون ونزل بمعسكر قريب جدا

من النجد، ربما على بضعة كيلومترات جنوب شرق أوزيتا. فكان إذن على مسافة ضئيلة من تل سيدي جحا الذي ارتاده مع ما يحيط به.

لم يكن بمستطاع قيْصر أن يترك اليومْپيين ينزلون نهائيا بموقع بالغ الأهمية وأن يتحصنوا به. فقدم خيالته أمامه وأخذ في السير ليعبر الشَّعب من غير أن ينتبه إلى أن كميناً قد نصب له. وكان لابْيينوس قد أخفى، في ثنايا الشعب على ما يحتمل، قسما من خيالته ومن مشاته الخفاف، لينقضّ على مؤخرات القيْصريين بعد أن يمروا أمامه، بينما يخرج فرسان آخرون من مَخْبإ آخر ويظهرون فوق التلّ ويهجمون من الأمام. غير أن هؤلاء جعلوا الخطة كلها تخفق لأنهم أسرعوا بالظهور. فأسروا أو قتلوا على يد خيالة قيْصر الذي وصل إلى القمة ونحّى عنها الرجال الذين جعلهم بها لابيينوس. بل لم يتخلص لابيينوس نفسه ومن يحفّون به إلا بعد مشقة.

أصدر الدكتاتور الأمر بالقيام بالخدمات الدفاعية فوق المرتفع الذي استولى عليه. ويظهر أنه لم يتقدم إلى أبعد من ذلك نحو الجنوب. فتحصيناته الآن تمتد تقريبا على طول خمسة كيلومترات في خط مستقيم من الشمال الشرقي لأوزيتا إلى الجنوب الشرقي منها، وأمام هذه المدينة أقام المعسكر الرئيسي الذي لم يعد هناك من داع لتغيير محله، كما أنه كان على نحو الفرسخين من ميناء لبتيس.

2

لم يكن لقيْصر ما يخشاه بهذا المعقل الذي أنشأه، ولكنه صار لا يكفيه أن يكون قد أمن نفسه هكذا. بل كان على أحرّ من الجمر، يودّ أن

يُسرع بالفوز بنصر كامل، غير أن خصومه لم يظهروا أي استعداد لقبول معركة لا تكون لهم فيها جميع حظوظ النجاح. إذن كان لابد من إرغامهم عليها. فمدينة أوزيتا كانت تزوّدهم بقسم مهمّ مما يحتاجون إليه، كما كانت تحمي معسكر سيپْيون، وبانتزاعها من أيديهم، يفرض عليهم قيْصر خوض المعركة.

كانت المدينة تبعد بثلاثة كيلومترات ونصف على الأقل من مواقعه بالنجد الذي لم يكن يريد تركه، حتى لا يكون بالسهل تحت رحمة الخيالة العديدة التي للأعداء. لذلك أقام خلال هذا السهل خطين حصينين ينطلقان من معسكره الرئيسي ويتجهان في تَوازٍ إلى أوزيتا، ثم ينتهيان بأن يكون إحداهما يمين المدينة والآخر إلى يسارها. ويمكنه بالاعتماد على هذه التحصينات أن يدفع بجنوده حتى أسوار أوزيتا ولا يخاف الهجوم على جناحه أو ظهره.

وهناك سبب آخر دعاه للقيام بهذا العمل العظيم. فقد كان ينقصه الماء وهو بالنجد، وكان لا يستطيع التزود منه إلا بجلبه من بعيد، بينما قد يجده بالسهل في قعر الآبار التي قد يحفرها بين خطوطه.

وبينما كان عدد كبير يقوم بأعمال الحفر، كان آخرون يحمونهم وهم في نظام المعركة، ثم يعود هؤلاء وأولئك إلى المعسكر في نظام حسن. أما القادة الأعداء فاستمروا في عزمهم على عدم المخاطرة بجيوشهم في معركة حقيقية، واكتفوا بالدخول في المناوشات بجيوش سريعة الحركة جدا، بالفرسان والمشاة. ولكنهم رموا ذات مساء بكل خيالتهم وجميع مشاتهم على القيْصريين أثناء عودتهم إلى النجد. وتحت وقع هذه الصدمة العنيفة والمفاجأة، تراجع أول الأمر الفرسان الذين كانوا بالمؤخرة، لكن قيْصر هبّ لنجدتهم برجال فيالقه، الأمر

الذي أعاد لهم عزمهم، فاستداروا وانقضّوا على النوميديين لمطاردتهم إذ كانوا قد تفرقوا، ثم ردّوهم حتى المعسكر الملكي وقتلوا كثيرا منهم. وكاد يوبا ولابيينوس أن يسقطا في أيديهم. غير أن الليل الذي أخذ يخيّم والغبار الشديد الذي أثارته الريح لم يساعدا على تحويل هذا النجاح إلى انتصار.

وأخيرا تمم قيْصر خطوطه، لاشك بعد مجهود دام عدة أسابيع. وتقدم بها إلى قريب من أوزيتا، ولكن بعيدا عن أن تنالها الرماح، وأقام بهذا المكان معسكرا أنزل به خمسة فيالق جاء بها من النجد، كما زوده بعدد كبير من الآلات القاذفة.

أما جيشه الذي كان به كثير من المجندين، فقد اتسع له الوقت ليتدرب حتى لا يخشى أبدا عدّواً عرف به. وكانت الفِيَلَة على الخصوص هي التي تهم جنوده. ولكي يُعوّد قيْصر الرجال والخيول على رئية هذه الحيوانات، وعلى أصواتها ورائحتها ومظهرها، أصدر الأمر بجلب أفراد منها من إيطاليا. فتلعم الجنود في معارك وهمية كيفية السلوك أمامها، وأي نواحي بدنها هي أشد تأثيرا بالسهام. ونال الفيلق الخامس على الخصوص أكبر الفائدة من التجربة.

زيادة على الفيالق الثمانية التي كانت مع الدكتاتور منذ انتهت إقامته بنجد روسْينا، فقد انضم إليه فيلقان اثنان من قدماء المحاربين، مشهوران بأعمالهما العظيمة. هما الفيلق 9 و10 وكان الأسطول الذي حملهما من صقلية قد أرسى بإفريقيا بعد مشقة، ذلك أنه وصل إلى مسافة قريبة من ميناء روسْبينا، لكن القادة أخطأوا وظنوا بعض السفن العسكرية القيْصرية الواقفة بالقرب من ثابْسوس، أنها سفن للعدو، ورأوا من الحكمة الابتعاد في البحر. وبعدما تاهوا عدة أيام، اطمأنوا أخيرا

وأنزلوا الجنود (في روسْبينا أو في لِبْتيس). فكانت نجدة مفيدة جدا لقيْصر. ومع ذلك أبى إلا أن يظهر لرفقائه القدماء أنه لم ينس عصيانهم، وأنه يفرض عليهم الطاعة الكاملة. ثم أبعد عن جيشه إلى صقلية نقيبين وثلاثة من قواد المائة سبق لهم أن لعبوا دورا سيئا للغاية في ذلك العصيان.

ونمت قواته عن طريق آخر، وذلك بمن قَدم عليه من الموالين. فمن فوق خطوطه كانت المذاكرات الودية تجري، ويُرمى بالبطاقات التي تَعِدُ المواطنين الرومانيين بالعفو عنهم، وبالمكافآت أيضا، وتعد الأهالي بالمحافظة لهم على ممتلكاتهم. وهي وسيلة للدعاية استخدمها سيپْيون كذلك، ولكن دون توفيق لأنه لم يعط أي وعد، وإنما اكتفى بحثّ القيْصريين على تخليص الشعب ومجلس الشيوخ.

وكان يسهل على من يريدون الفرار أن يعبروا الخطوط التي تخترق السهل، وسرعان ما يجدون أنفسهم في مأمن. وذلك هو ما فعله فرسان من الجرمانيين والغاليين عملوا من قبل تحت قيادة كوريون، وما فعله على الخصوص بعض الجيتوليين[59] الذين سبق أن ضم بعضهم إلى فيالق اليومْپيين، كما ضم بعضهم الآخر إلى الخيالة الملكية، فقد انتهز هؤلاء إحدى الفرص المواتية وذهبوا ليلا بقيادة رؤسائهم إلى المعسكر القريب بأوزيتا. وكان عددهم مع خَدَمِهم يناهز الألف.

لقد سبق أن رأينا أن جيتوليين آخرين من الفارين قد أعيدوا إلى قومهم ليهيئوا ثورة ضد يوبا. وقد اندلعت هذه الثورة فعلا، فاضطر الملك إلى أن يبعث على جناح السرعة ستّ فرق من جيشه ليحمي أراضيه من الثائرين.

وظهر أن ساعة الهجوم على أوزيتا قد حلت. وفهم كل من سيپْيون ولابْيينوس ويوبا أن واجبهم هو عدم السماح للعدوّ بأخذ هذه المدينة، فعرضوا عليه المعركة التي طالما أخروها. وذات صباح خرجوا من معسكراتهم بجميع جيوشهم، وصففوها على مسافة قليلة من المعسكر الأسفل لقيْصر.

وأسندوا يسارهم إلى أوزيتا حيث كانت توجد قوات مهمة. ثم استولوا على نشز طويل من الأرض يتجه من الشمال إلى الجنوب، ويحدّه وادي الملاح شرقا. فكانت جبهتهم هكذا محمية بعرقلة يصعب تخطيها. وربما كان في العرقلة وحل. وفي الوسط وقفت إلى الأمام فيالق سيپْيون ويوبا. ومن ورائها الاحتياطيون من المشاة النوميديين الذين توسع في الفصل بينهم. كما أن الجناحين وقفت بهما الفِيَلة على بعد متساو. ومن ورائها المشاة الخفاف. وبعيدا إلى اليسار، كانت أوزيتا تسد ميدان المعركة. أما اليمين فكانت به جميع الخيالة النظامية بقيادة لابيينوس. وكذلك الخيالة النوميدية والجيتولية، فإنها مع عدد كبير من المشاة الأهالي، قد وقفت بنفس الجهة اليمنى، على مسافة لاتقل عن ميل واحد في اتجاه النجد الذي تحصن به قيْصر.

في هذه الخطة إحكام. وينتظر بها هجوم قيْصر. وحين يتعثر في مجرى النهر الذي لابد له من عبوره، فإن هذه القوات الخفيفة من الخيالة والمشاة تنعطف عليه وتقطع طريق عودته. وإذا دعت الضرورة فإن حامية أوزيتا يمكنها من الجهة المقابلة أن تنقضّ على جانبه الأيمن. فلما رأى قيْصر هذه الاستعدادات سارع بإخراج جيوشه من خطوطها وبتصفيفها أمام الأعداء. وحافظ للجناح الأيمن على اتصاله بالاستحكامات القريبة جدا من أوزيتا حتى لا يدور به العدو من هذه

الجهة، ثم امتد بجيشه من الشمال إلى الجنوب في موازاة كل من وادي الملاح والحُلَفاء، على 300 خطوة – على الأكثر – من هؤلاء. ولايزال تفصيل هذه الترتيبات كثير الغموض لأن نص كتاب «حرب إفريقيا» في حالة رديئة. وعلى كل فقد وَضَعَ قيْصر بالوسط ستة من الفيالق، اثنين منها من المجنّدين وُضعوا على جانبي فيلقين من قدماء المحاربين أي الفيلقان 13 و14[60]. أما الجهة اليمنى، حيث كان يستند إلى تحصيناته، فيظهر أنه اكتفى فيها بالإبقاء على قوات كافية لصد أي هجوم قد يأتي من المدينة. بينما جعل باليسار أحسن فيالقه، أي الفيلقين 9 و10. ومن هنا حتى عرض الوسط صفف جيوشه على ثلاثة خطوط ليجعلها أشد قوة، ولم يكن إذن في بقية الوسط سوى خطين. ووقفت بعيدا إلى الجهة اليسرى جميع الخيالة التي اختلطت بالمشاة الخفاف. وكان عليها أن تقف في وجه الخيالة القوية التي للأعداء. لكن قيْصر كان قليل الوثوق بها. ولذلك جعل بهذا الجانب الفيلق الخامس ليساندها.

وبعدما اطمأن قيْصر بهذا إلى أنه محمي على يساره، قرر أن ينتظر حتى يعبر سيپْيون ويوبا وادي الملاح، ويأتيا لمواجهته بالهجوم على الوسط وعلى الجناح الأيسر. فيصدهما ويرمي بهما لعرض النهر وهناك يسحقهما.

لم يرد أي منهما – كما نرى – أن يجعل نفسه في وضعية سيئة بعبوره لوادي الملاح. فاحتفظ كل منهما برباطة جأشه حتى لا ينجرّ للوقوع في هذه الغلطة. وهكذا مكث الجيشان متقابلين من الصباح حتى الساعة العاشرة من النهار[61].

وعندما جاء المساء، شرع قيْصر في إرجاع رجاله للتحصينات. وإذ ذاك انطلقت فجأة الخيالة الخفيفة النوميدية والجيتولية التي بعثها

الحلفاء لما وراء ميمنتهم، فاقتربت من النجد، ويظهر أن ذلك لم يكن بداية للمعركة، وإنما كان لتشويش تراجع العدو. فتوجه لهذه الناحية قسم من فرسان قيصر ومشاته الخفاف، من غير أن يَصِلهم أمر بذلك. ولكن نظرا لأن الاشتباك جرى على أرض بها مستنقعات، ونظرا لكون عددهم كان قليلا، فقد اضطروا إلى التقهقر بعد أن تحملوا بعض الخسائر. فاقتنع سيپْيون بهذا النجاح البسيط، وعند الليل أصدر للجنود الأمر بالدخول لمعسكراتهم.

وبأمر من قيْصر، كانت فيالقه طيلة الأيام الموالية تفتح الخنادق وتقيم التحصينات بالسهل. والراجح أنه كان يريد منع خيالة الحلفاء أن تدور به عندما يمكن خوض المعركة الحقيقية. وجوابا على هذه المنشآت، قام سيپْيون بإنشاء مثلها، ليحتفظ بالحرية في التحرك حتى سفح النجد. وفي كل يوم كانت خيالة الطرفين تتصادم في معارك غير مهمة على كل حال. فطالت الحرب، وبقيت أوزيتا بيد اليومپْيين، وتعذر على قيْصر أن يحاول مهاجمتها.

بقي قيْصر متحكما في مواصلاته مع صقلية التي يمكن أن يصله منها الرجال والمؤن. وسبق أن ثلاثة بعوث قد عبرت البحر وجاءت إفريقيا بعشرة فيالق. هذا في حين أن أكبر قسم من الأسطول الجمهوري كان يقضي فصل الشتاء عاطلا في أوتيكا. وأخيرا قرر أتيوس فاروس قائد هذا الأسطول أن يستعمله ليمنع مرور بعوث جديدة. فأخذ 55 سفينة ملأها بالمجدفين والمقاتلين الجيتوليين واتجه إلى هَدْروميت، حيث يوجد حوض بحري داخلي، يكون له ملجأ حسنا، قريبا من الأماكن التي لابد أن تتجه إليها سفن الأعداء.

لم يكن الدكتاتور على علم بهذا الخطر المهدد. وكان قد بعث من لبتيس 40 سفينة حربية. منها 27 بعثها إلى ثابْسوس مع ل. كيسْبيوس L. Cispius و13 بعثها إلى هَدْروميت مع ك. أكيلا Q. Aquila، وذلك ليسد الميناءين وليحمي بهذا العمل السفن التي يمكن أن تصل حاملة المؤن من صقلية. فأما كيْسبيوس فقد استطاع أن ينجز مهمته، بينما منع إعصار بحري أكيلا من أن يتجاوز شبه جزيرة روسْبينا. فالتجأ إلى أحد الخلجان الصغيرة التي هي في مأمن من الريح، ومن أعين المارين بالبحر. أما بقية الأسطول فكان يرسو في لبتيس. وحيث لم يكن هناك ما يُخشى، فقد نزل البحارة إلى الأرض، غير أن بعض الفارين أخبروا فاروس بذلك. فخرج في عتمة الليل من حوض هَدْروميت بجميع سفنه، وطهر عند الفجر أمام لبتيس، فأحرق عدة من سفن النقل، واستولى من غير مقاومة على سفينتين حربيتين لهما خمسة صفوف من المجاديف.

بلغ خبر هذا الهجوم إلى قيْصر وهو يفتش استحكاماته على طرف النجد. فأسرع بامتطاء فرسه، وعبر على جناح السرعة الأميال الستة التي تفصل بينه وبين لبتيس، ثم ركب سفينة خفيفة وأمر جميع السفن التي لديه أن تتبعه. ولم يلبث أن وجد أكيلا Aquila، فأخذه معه. ثم جعل يطارد فاروس الذي عجل بالفرار إلى هَدْروميت، مصابا بالدهش من هذه السرعة والجرأة. واسترجع قيْصر إحدى سفينتيه، وأسَر 130 من الأعداء كانوا مكلفين بحراستها، كما استولى على سفينة ثلاثية الصفوف Trirème [62] كانت تأخرت في المعركة. أما سفن فاروس الحربية الأخرى فقد التجأت إلى الحوض البحري بهَدْروميت بعد أن اجتازت شبه جزيرة روسبينا. غير أن قيْصر لم يستطع اجتيازه لأن الرياح كانت قد اشتدت، فمكث حيث هو. وفي الغد وصل عند طلوع

الفجر أمام هَدْروميت وأحرق سفن النقل الراسية خارج الحوض. ومكث هناك بعض الوقت على استعداد لخوض المعركة إذا أخرج فاروس أسطوله، ثم عاد إلى لبتيس، ومنها التحق بمعسكره.

لقد أعطى البرهان على تفوقه في البحر، فكان خصومه عاجزين عن توقيف البعوث الواردة عليه، كما كانت أساطيلهم الضعيفة تنزوي في ميناء هَدْروميت وميناء ثابسوس اللذين يراقبهما كيسْبيوس Cispius وأكيلا Aquila، غير أن أعاصير فصل الشتاء كانت تعرقل وتؤخر المؤن. فكان لابد من الذهاب لجلب هذه المؤن من لبتيس، ولم تكن الطريق آمنة دائما، لأن النوميديين والجيتوليين كانوا يجوسون خلالها.

كانت البلاد فيما يجاور المعسكر قد استنزفت، فصار لابد من القيام بحملات بعيدة جدا من أجل التموين، في أماكن توجد بها الضيعات عادة فارغة، ويجري التفتيش في أطرافها للعثور على المخازن التي أخفى المزارعون فيها الحبوب.

ولم يكن مثل هذه الحملات ليخلو من الخطر. فمؤلف «حرب إفريقيا» يحكي أن قيْصر بعث ذات ليلة اثنين من فيالقه مصحوبين بالخيالة ليبحثوا عن هذه المخازن على بعد عشرة أميال من معسكره في اتجاه الجنوب، فعادوا يحملون كمية كبيرة من القمح.

لكن لابيينوس علم بخروجهم، وظن أن جماعات أخرى ستتلوهم في الخروج، فتقدم على طريق النجد، وابتعد بسبعة أميال عن معسكره الذي يقيم به، وأقام معسكرا آخر لفياقين في مكان سبق للقيْصريين أن قضوا به الليلة السالفة، واختفى - هو نفسه - في مكمن ومعه الكثير من الفرسان والمشاة الخفاف. ولكن بعض الفارين أتوا قيْصر وأخبروه.

فترك بضعة أيام تمرّ. ثم إنه لما قدّر أن الأعداء تراخت حيطتهم لكونهم لم يروا شيئا، أمر ذات صباح أن يخرج من الباب الخلفي للمعسكر عدة فيالق من قدماء المحاربين ومعهم قسم من خيالته سار في المقدمة، فوقع الهجوم بغتة على الجنود الذين نصبهم لابيينوس في أحد الشعاب، وقتل منهم نحو 500 من المشاة وفر الآخرون. وقد جاء لابيينوس لينجدهم ومعه جميع فرسانه، غير أن خيالة قيْصر كانت أقل عددا من أن تتحمل الصدمة، فصفف الدكتاتور فيالقه في نظام المعركة، فخاف لابيينوس وانصرف. وكان النوميديون الفارون قد عادوا لمعسكرهم، فأمر بهم يوبا في الغد أن يُصلبوا جميعا.

ورغما عن الإخفاق الذي أصاب لابيينوس، فإن التموين أصبح صعبا أكثر فأكثر على قيْصر. والخدمات الكبرى التي قام بها خلال السهل للوصول إلى أوزيتا، لم تُفض إلى الاستيلاء على هذه المدينة. وأعداؤه استفادوا من الميدان أحسن الاستفادة فرفضوا المعركة التي يمكن أن يأمل منها الانتصار. ثم إنه أضاع نحوا من عشرة أسابيع منذ أن غادر شبه جزيرة روسبينا. لذلك عزم على أن ينتقل بالحرب إلى مكان غير هذا، إلى جهة لم يسبق له أن استغلها بعد، فيأخذ منها المؤن، ويرجو أن يجد بها أحسن الظروف المناسبة لمعركة سيرغم سيپْيون على خوضها.

3

في أواسط شهر مارس جمع قيْصر بمعسكره بالنجد كل جيوشه، باستثناء الحاميتين اللتين خلفهما في روسبينا ولبتيس، وكذلك التي كانت تحتل آشولا بالجنوب. لما أنهى استعداداته أشعل النار بالمعسكر،

ليمنع العدو من استخدامه على ما يظهر. ثم سار عند نهاية الليل، وكان مسيره في نظام المعركة، كما أنه صان أمتعته بجعلها على يساره، لأنه كان يخشى من الهجوم على جناحه الأيمن. واتجه نحو مدينة أكّار Aggar (التي حاول الجيتوليون الاستيلاء عليها عدة مرات من قبل، ولكن السكان دافعوا عنها بأشد ما يمكن من القوة)[63] فهؤلاء السكان كانوا إذن يميلون إلى قيْصر، وبهذا يمكنه أن ينتظر منهم حسن استقباله.

ترينا خريطة للطرق بالعهد الإمبراطوري[64] مكانا يدعى أكّار، يقع دون شك بهَنْشير سيدي عَمارَة، وهو خرائب مهمة بموسطة تونس، ويبعد بنحو ثلاثين كيلومترا في خط مستقيم إلى الشرق من مَكْتار، كما أن هذا المكان يبعد بأكثر من مائة كيلومتر غربي أوزيتا. ولهذا فما كان قيْصر ليبلغه في مسيرة يظهر أنه قطعها في يوم واحد، ولا أن يرتكب خطأ الابتعاد الشديد عن الساحل الذي ترسو عنده السفن التي تحمل له النجدات والمؤن. وعلى هذا فأكّار تقع على أكثر تقدير على بعد أربعين كيلومترا من المعسكر الذي أخلاه الدكتاتور فوق أوزيتا. فلم يكن بمستطاعه، وهو يحمل معه معداته الحربية وجميع أمتعته الأخرى، أن يقطع في يوم واحد مسافة أطْول من هذه. وزيادة على ذلك، فلابد أن مسيرته كانت أكثر طولا، لأنه كان يريد الذهاب لناحية يجد فيها الأقوات. ونتيجة لذلك لا يكون هو ولا أعداؤه قد استنزفوها. غير أننا نعلم أنه كان أرسل رجاله يبحثون عن القمح إلى مسافة تبعد 15 كيلومترا جنوبي معسكره.

وبالتأكيد كانت هذه الناحية هي التي اتجه إليها للوصول إلى أكّار. وإذ كان يخشى من خصومه المعسكرين في سهل أوزيتا أن يهاجموا جناحه الأيمن، فإن قيْصر ما كان ليستطيع السير إلا في اتجاه الجنوب

أو الغرب. لكن حيث أن السير في اتجاه الغرب يبعده عن الساحل، فلابد من قبول كونه سار في اتجاه الجنوب. وفي جنوب أوزيتا – على بعد 28 و45 كيلومترا – كانت تقع سَرْسورا Sarsura وثيسْدروس Thysdrus وهما المدينتان اللتان حمل عليهما حملة سريعة عند ذهابه من معسكره القريب من أگار وعند عودته إليه، وكان اليومْپيون قد تنبهوا على ما يظهر لإمكان هجومه على ثيسدروس فجهزوها لتتمكن من الدفا ع.

وأخيرا يذكر مؤلفنا أن قيْصر، غادر هذا المعسكر، وقطع 16ميلا أي نحو 24 كيلومترا ثم وصل أمام ثبسوس Thapsus، وأنه وصلها آتيا من الجنوب، لأنه – كما سنبين ذلك – مر بالبرزخ الطويل الذي يمتد من الجنوب إلى الشمال قريبا من ثبسوس، ويفصل البحر عن سَبْخة مُكْنين. وفي مخطوطات «حرب إفريقيا» كثير من الأرقام التي أصابها التحريف، لكن يحسن الاعتقاد أن هذا الرقم (أي 16 ميلا) صحيح. إنه يتطابق مع المعطيات الاخرى للمشكلة.

نحن إذن على استعداد لمشايعة ڤايْت Veith الذي يرى أن أگار هي خرائب المدينة الصغيرة المحوطة بالأسوار، والموجودة بالقسم الجنوبي لسهل شاسع، على 10 كيلومترات جنوبي الجنوب الغربي للمَهْدية. فهذه الخرائب تقع على 34 كيلومترا غلى الجنوب الشرقي من المكان الذي به معسكر القيْصريين المشرف على أوزيتا، وتقع على 28 كيلومترا شرقي سرْسورا، وعلى 22 كيلومترا جنوبي ثَبْسوس. وهذه المسافة الأخيرة يمكن رفعها إلى 24 كيلومترا – أي 16 ميلا المذكورة في «حرب إفريقيا» – إذا بدأنا العدّ، لا من أگار نفسها، ولكن من المعسكر الذي أقامه قيْصر أبعد منها بقليل. كما يقع ميناء سولِّكْثي Sullecthi على 8 كيلومترات تقريبا من هذا المكان. وأبعد من ذلك أي

على نحو 25 كيلومترا يقع ميناء آشولا، المدينة التي كانت بأيدي جنود قيْصر، وكان بمستطاعه الاتصال بها بسهولة.

فوجهة نظر ڤايْت – كما سنرى – توضح جميع التفاصيل الطبوغرافية التي نجدها في قصة الحملة على أگار، ولكن مع الاحتياط إلى أن الناسخين قد حرّفوا بعض الأرقام البيانية.

وبالرغم من أن إحراق المعسكر كان لابد أن تعلم الحلفاء بمغادرة قيْصر، فإن الحلفاء لم يزعجوا قيْصر في مسيرته الطويلة نحو أگار فاستقر بالسهل قرب المدينة، ثم ذهب ليبحث عن الأقوات في أحوازها، فجمع كثيرا من الشعير، ومن الزيت والخمر والتين، وقليلا من القمح.

وكان سيپْيون قد تتبعه بجميع قواته، ماراًّ بالنجد المشرف من الشرق على سهل أوزيتا. وتوقف «على بعد ستة أميال من معسكر قيْصر». وقسّم رجاله على ثلاثة معسكرات يبعد بعضها عن بعض. فحل بنفسه في أحدها، وحل يوبا في الثاني لاشك، وحل لابيينوس بالثالث، وربما كان معه أفرانيوس Afranius أيضا. وكانت هذه المعسكرات قد أقيمت على المرتفعات المشرفة من الشمال الغربي على السهل العريض الذي توجد به أگار. وإلى الأمام بنفس السهل، وعلى نحو ميلين من المعسكرات، توجد مدينة تُدعى طيجيا Tegea التي يمكنها أن تحمي مواقع الحلفاء مما يلي العدو، على غرار أوزيتا سابقا. ولعل هذه المدينة تمثلها الخرائب الرومانية في سيدي دَكْريل (أو هَنْشير مَرْبَس Henchir Merbesse) على تسعة كيلومترات غربي الشمال الغربي لخرائب أگار. وخلف ذلك ب 2500 متر، أي بعد 11.500 متر من أگار تنتصب المرتفعات التي كانت تقل معسكرات سيپْيون. وربما يكون من الضروري إصلاح عدد 6 أميال (أي 9 كيلومترات) بعدد 7 (أي 10 كيلومترات

ونصف)، ـ وربما حتى بثمانية ـ (أي 12 كيلومترا). وذلك حتى لا نكون مرغمين على القول بأن قيْصر أقام معسكره بعيدا جدا غربي أگار خلافا لما تذكره اليوميات.

ويسهل فهم قرار سيپْيون. ذلك أنه لم يكن بمستطاعه السماح لقيْصر بأن يسلك كما لو كان سيد البلاد، وأن يستولي حسب إرادته على مدن جمع فيها الجمهوريون مدخرات من القمح، وأن يجوب البوادي حرا ويستولي فيها على الأقوات، فالضرورة كانت تقضي إذن بأن يكون قريبا منه، وأن يستعمل خيالته ومشاته الخفاف لمضايقته ومناوشته وعرقلة جميع تحركاته خصوصا في التموين، أما المعركة الكبرى، فكان متمسكا برفضه خوضها، ما دام غير متأكد من ربحها.

غير أن هذه المعركة هي التي كان قيْصر يتمناها أكثر من أي وقت مضى. ففي ثلاث مناسبات أثناء حملته القصيرة على أگار، قد عرضها على سيپْيون بإظهار جيشه أمامه. وحاول كذلك أن يرغمه على خوضها بحملات جريئة كانت تحديا وتهديدا، كما كانت وسيلة للحصول على الأقوات.

ونقرأ في كتاب «حرب إفريقيا»[65] أنه كانت هناك مدينة اسمها زيطا Zeta وأنها كانت في ناحية معسكرات سيپْيون، وتبعد عنها بعشرة أميال، كما تبعد بثمانية عشرة ميلا عن معسكر قيْصر. ولهذا فالوصول إليها من هذا المعسكر كان أقل سهولة. وقد بعث إليها سيپْيون فيلقين لجلب الأقوات.

ولما علم قيْصر بخبر ذلك من أحد الفارين، غيّر مكان معسكره وأقامه على أحد التلال، ليكون الموقع به آمن من السهل، ثم ترك بعض

القوات لحمايته. ونعلم من ناحية أخرى أن هذا المعسكر الجديد كان على نحو 7 أميال من معسكر سيپْيون. ولهذا يمكن البحث عن موقعه على أحد المرتفعات التي تحد السهل عند الجنوب الغربي لأگار.

وخرج قيْصر في الهزيع الأخير من الليل مع بقية جيشه، فاجتاز معسكرات الأعداء واستولى على مدينة زيطا. واعتقل بها فارسين رومانيين، كان أحدهما صديقا لسيپْيون، وكان حاكما للموقع، كما استولى قيْصر على 22 جملا يملكها يوبا، وهذه هي المرة الأولى التي تظهر فيها هذه الحيوانات في تاريخ شمال إفريقيا، حيث ستلعب فيها بعد دورا مهما. واستعد أن تتبع الفيلقين بعد أن علم أنهما سارا بعيدا في البادية. ولكنه رأى أن جيوشا للأعداء أتت مسرعة لنجدتهما، فقرر أن يعود لمعسكره، بعد أن ترك في زيطا إحدى الحاميات وأحد نوابه هو أوبْيوس Oppius.

ولما كان على مسافة قليلة من معسكرات سيپْيون التي كان لابد أن يمر بالقرب منها، انقض على مؤخرة جيشه لابيينوس وأفرانيوس اللذان كمنا له مع جميع الخيالة وجميع المشاة الخفاف وراء التلال المجاورة. فقابلهم قيْصر أول الأمر بخيالته، ثم أمر جنود الفيالق أن يحطوا أعباءهم الثقيلة وأن يذهبوا لصدهم. فصد المهاجمون فعلا بدون عناء. ثم عاود الدكتاتور سيره مقتنعا بأن هذا الدرس سيمنعهم من الرجوع لمناوشته، ولكنهم خرجوا من جديد من وراء التلال وعاودوا هجماتهم. فكان المشاة يجرون بخفة عجيبة، مختلطين بالفرسان، فيتقدمون وينسحبون معهم في وقت واحد. وكانت هذه المناورات لاتفتأ تتكرر. فبمجرد ما يسرع مشاة الفيالق في السير، يعلق بهم الأعداء، فإذا واجههم المشاة تحاشاهم الأعداء واكتفوا بأن

يمطروهم بالسهام، ففهم قيْصر أن قصدهم هو إرغامه على التخييم بمكان ينعدم فيه الماء تماما. وتنضاف آلام الجوع إلى أذى الظمأ، خصوصا وأن اليوم بلغ ساعته العاشرة، والجنود لم يتناولوا أي طعام منذ الهزيع الأخير من الليل[66].

كان الوقت يمضي، والشمس ستغيب عما قليل، وطيلة أربع ساعات لم يحدث تقدم في السير ولو بمائة خطوة. فسحب قيْصر من مؤخرة جيشه فرسانه الذين فقدوا خيولا كثيرة، وعوضهم بجنود من الفيالق أقدر على المقاومة. ثم عاد للسير من غير عجلة. غير أن جموعا من الخيالة النوميديين كانوا يتقدمون بسرعة من التلال، على اليمين واليسار لكي يحيطوا به، بينما كان آخرون منهم لا يتركون أي راحة لمؤخرة جيشه، فإذا رمى بعض قدماء المحاربين قذائفهم، فإنهم كانوا يطردون عددا عديدا من الأعداء، ولكن هؤلاء سرعان ما كانوا يعودون، ويرمونهم بحرابهم من غير أن يقتربوا منهم. وأخيرا، وبعد مسيرة متقطعة تخللتها توقفات ومعارك دخل القيْصريون معسكرهم في الساعة الأولى من الليل، وليس بينهم سوى عشرة جرحى، بينما لابيينوس قد فقد – على ما يظهر – ثلاثمائة قتيل، غير الجرحى الكثيرين جدا. أما سيپْيون فإنه لم يتدخل، واكتفى، لإحداث الرعب، بأن يصفّ أمام معسكره فيالقه مع الفِيَلة. وفي الليل أعادهم إلى المعسكر.

إن الواجب يفرض أن لا نتقبل هذه القصة كما وردت علينا. إذ لا يُقبل أن يكون جيش قيْصر بين الهزيع الأخير من الليل أي الثالثة والنصف أو الرابعة صباحا، وبين الساعة الأولى من الليل الموالي أي الخامسة والنصف أو السادسة عشية، أي في 14 ساعة قد قطع مرتين 18 ميلاً وهي 23 كيلومترا، وأن يستولي على مدينة زيطا، وأن يكون عند

عودته قد توقف تقريبا أربع ساعات، ثم يكون بعد ذلك قد لحق بمعسكره دون عجلة، مع عدة توقفات. وليس من المعقول أيضا أن يكون هذا الجيش قريبا من معسكرات سيپْيون، على نحو ثمانية أميال من معسكره هو، عند غروب الشمس، أي حوالي الرابعة والنصف، ثم يعود لمعسكره عند الساعة الأولى من الليل، فيقطع هكذا اثني عشر كيلومترا في ساعة ونصف لا أكثر، وذلك في الظروف التي سبق أن ذكرناها. وإذا أردنا يمكننا أن نفرض أن الجيش قد أرغم من أجل خوض المعركة على وقف سيره مدة ساعتين لا أربع – بين الثانية والنصف والرابعة والنصف عشية – (فلعل الجيش كان في هذه الوضعية كما يقول مؤلفنا في الساعة العاشرة من النهار أي حوالي الثالثة والنصف) ولعله قضى بعد ذلك ثلاث أو أربع ساعات ليلتحق بمعسكره الذي قد يكون دخله بعد نزول الظلام بكثير. ويجب من ناحية أخرى اختصار مسافة 18 ميلا و10 أميال التي قيل أنها تفصل زيطا Zita عن معسكر قيْصر ومعسكرات سيپْيون وتعويضها مثلا بعدد 12 (أو 13) وعدد 5 أميال.

وليس لدينا أية وثيقة تخبرنا عن موقع هذه المدينة، وأرقام المسافات التي تذكرها مخطوطات «حرب إفريقيا» لا تستحق الثقة، وإنما يمكن القول بأن المدينة كانت بالشمال الغربي – أو على الأقل بين الشمال والغرب – لمعسكرات سيپْيون التي مر قيْصر بقربها آتياً من الشمال الشرقي ليصلَ إلى زيطا. ولعلها كانت توجد قريبا من «سيدي نْجا»، على نحو 18 كيلومترا من معسكر قيْصر، وعلى 8 من معسكرات الحلفاء. ولابد أن قيْصر في مسيرته المتقدمة إلى أگار قد مر من هناك أو قريبا منه، ولكن إذا فرضنا أن جيوش الجمهوريين كانت إذ ذاك قد احتلت المدينة، فلاشك أن قيْصر لم يتسع وقته ليتوقف عندها ليستولي عليها.

على أن قيْصر بذهابه لينقضّ على الفيلقين اللذين بعثهما سيپْيون إلى زيطا، وبذهابه ورواحه بإقدام وجرأة أمام معسكرات سيپْيون، كان يريد أن يلحق به إهانة وإخفافا خليقين أن يدفعا به إلى التخلّي عن خطته في التريّث. فهل كان يريد أن يزجّ به في المعركة في اليوم نفسه ؟ إذا كان أراد ذلك، فقد اعتبر أثناء النهار أن الظروف التي ستجرى فيها المعركة قد لا تكون في صالحه. ولذلك انسحب عند وصوله إلى زيطا من مواجهة القوات التي بعثها سيپْيون لنجدة الفيلقين. كما تابع تراجعه عندما كان في عودته قريبا من معسكرات الأعداء التي صفف سيپْيون أمامها مشاته. وزيادة على ذلك، فإن تأخره الكثير بسبب هجمات لابيينوس، كان يعوقه عن أن يقحم في المعركة جنوده المتعبين الذين لم يتناولوا طعاما منذ نهاية الليل. وكانت النتيجة الوحيدة لهذه الحملة الخطيرة جدا هي الاستيلاء على زيطا، المدينة العديمة الأهمية والبعيدة عن معسكره. ولكنه حرص على الاحتفاظ بها إلى حد أنه وكل بها ضابطا من رتبة عالية. فهل كان يرى من المستحسن أن يستولي على مكان وسط بين أگار من جهة، ومن جهة أخرى بين روسْبينا ولبْتيس حيث كانت حامياته ؟ أو أنه أراد أن يصون سكان زيطا من الانتقام ؟ إذ يمكن الاعتقاد بأنه إن كان قد استولى من غير عناء على هذا المركز، فلأنه قد وجد به ميولا نحوه.

وبعد ذلك بقليل وصل من فاگا Vaga المدينة المجاورة التي نجهل مكانها[67] وَفْد يتضرّع طالبا من قيْصر أن يبعث حامية للمدينة، ويَعدَ بأن يزوده بعدة أشياء قد يحتاج إليها. فقبل قيْصر هذا الرجاء، لكن قبل أن يصل جنوده إلى فاگا، سارع يوبا فاستولى على المدينة ونهبها وهدمها وأعمل التقتيل في جميع سكانها.

وبعد مرور يومين من استيلاء قيْصر على زيطا، قاد قيْصر جميع جيوشه، وصففها بالسهل أمام معسكرات الأعداء يعرض عليهم المعركة. ولكنهم رفضوها، فعاد لمعسكره عند اقتراب المساء.

وقام قيْصر بالإشراف علي حفل تطهير جيشه في يوم 12 من أبريل بالتقويم الرسمي (أي 21 من مارس) وهي حفلة دينية كان بمستطاع القادة الرومانيين أن يقرروا إقامتها قبل الشروع في إحدى العمليات العسكرية الحاسمة(68). وكان التاريخ المختار، وهو البداية الرسمية للربيع، يتطابق مع تاريخ إقامة طقوس عتيقة كانت رومة تحتفل بها يوم 19 مارس والأيام الموالية له، ويقصد بها تطهير الأسلحة قبل الدخول في إحدى المعارك الحربية.

ثم عرض قيْصر المعركة من جديد يوم 22 مارس، إذ تقدم حتى كان على خمسة أميال من معسكره، وميلَيْن تقريبا من معسكرات سيپْيون، ولكنه اضطر للرجوع برجاله بعد انتظار طويل.

وفي الغد نقل معسكره واتجه نحو سرْسورا التي كان بها لسيپْيون حامية من النوميديين ومخزن للقمح. ونحن نعرف موقع هذه المدينة الصغيرة، بفضل إحدى خرائط الطرق(69). فالمدينة تمثلها اليوم الخرائب الواقعة في هَنْشير القْصور على أربعة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من بومَرْداس، وقد قلنا إن 28 كيلومترا كانت تقع به. وتابع سيپْيون قيْصر في سيره نحو الغرب، أما لابيينوس فقد انطلق قبله مع الخيالة والجيوش الخفيفة، ولم يلبث أن لحق بالعدو.

فهاجم مؤخرة الجيش، واستولى على بعض العربات التي يبيع أصحابها الطعام للجيش. ثم أغراه هذا النجاح فاقترب من الفيالق،

وظن أن الجنود الذين ترهقهم الأثقال التي يحملونها لن يقدروا على مقاومته. ولكن قيْصر كان قد أخذ حيطته بحيث أعفى 300 رجل من حمل الأمتعة في كل فيلق، فكانوا على استعداد للمعركة. ثم بعثهم لمساندة خيالته ضد خيالة لابْيينوس، الذي فرّ بعدما مُني بخسائر من القتلى والجرحى. ومع ذلك فإنه، حين عاد الجيش للسير، أخذ يتقفاه على اليمين من فوق المرتفعات.

ووصل قيْصر إلى سَرْسورا، فاستولى عليها بعد مقاومة شديدة من حاميتها على مرأى من الأعداء الذين لم يجرأوا على التدخل. ثم قتل الحامية ووزع على جنوده القمح الذي وجده بالمدينة.

وفي 24 من مارس وصل أمام ثيسدْروس (الجمّ) بعد مسيرة سبعة عشر كيلومترا. وكانت هذه المدينة، التي توجد بها مدخرات كبيرة من القمح، قد عرضت من قبل طاعتها على الدكتاتور، وطلبت منه حامية، فلم يستطع أن يرسلها إليها. فقدم كُنْسيدْيوس، أحد القادة البومْپيين، من هَدْروميت منذ قليل بجيوش كثيرة وبفرقة المجالدين التي كونها هو[70]، ثم استولى على ثيسدروس. ويظهر أن السكان أحسنوا اقتباله[71] فتعرف قيْصر على المكان ولكنه تخلى عن محاصرة المدينة نظرا لانعدام الماء، وفي الحين ذهب وخيّم عند عيون للماء تقع على مسافة أربعة أميال أي في «بئر العيون» على ستة كيلومترات شمالي «الجمّ». «ومن هنا عاد في اليوم الرابع إلى المعسكر الذي كان قد أقامه قرب أگار»[72] فإذا كان هذا صحيحا، فإن قيْصر يكون قضى ليلتين بالعيون. وربما وقع خطأ في المخطوطات فيكون قد عاد من حملته في اليوم الثالث لا الرابع، وحتى سيپْيون فإنه أعاد جنوده لمعسكراتهم القديمة.

لم تكن هذه الجولة السريعة للدكتاتور سوى نصف توفيق، بحيث إنه إذا كان قد استطاع القضاء على سَرْسورا، فإن المقادير المتراكمة من القمح في ثيسْدروس قد مكثت في حوزة خصومه.

إن الاستيلاء على ميناء صغير بعيد جدا، لم يكن سوى تعويض هزيل عن خيبة الأمل التي حصلت له. فسكان «ثابينا» Thabena – وهي مكان يقع بناحية الساحل في أقصى أراضي يوبا – قد ثاروا وقتلوا الحامية الملكية ، وأخبروا قيْصر بذلك ورجوه أن يحميهم. ولم يكن بمستطاع قيْصر أن يتركهم لغضب يوبا الخطير، دون أن يفقد سمعته. لذلك بعث إليهم مَرْكيوس كْريسْبوس Marcius Crispus (73) ومعه ثلاث فرق وقواسة وعدد كبير من الآلات.

ولابد أن تكون ثابينا هي ثيناي Thaenae (74) التي عند مدخل خليج سدرة الصغرى، والتي تجاور مباشرة الولاية الرومانية. وقد كانت على أكثر من ثمانين كيلومترا إلى الجنوب من معسكر أگار، وربما تكون جيوش قيْصر قد اتجهت إليها عن طريق البحر.

وبذهابهم ضَعُف الجيش بابتعاد أكثر من ألف من رجاله عنه. ولكن في نفس الوقت وصل من صقلية بعث به 4000 رجل تابعين لكل الفيالق المتجمعة في إفريقيا، وكانوا إما لمرض أو لعطلة، لم يستطيعوا القدوم إليها مع واحداتهم. وكان يصحبهم في قدومهم هذا 4000 فارس و1000 من المقلاعيين والقواسة.

فضم قيْصر هؤلاء القادمين الجدد إلى الجيوش الأخرى التي كانت معه، ثم قام بمحاولة جديدة لخوض المعركة، إذ أخذ جيشه حتى كان على ميلين من معسكرات الأعداء، وتوقف بالسهل قرب طيجيا، وكانت هذه المدينة في قبضة 2000 من الخيالة.

فلما اقترب قيْصر، رتبها سيپْيون على يمين طيجيا Tagea ويسارها، وخرجَ هو بفيالقه، ثم صففها فوق أقرب منحدرات التلال، على نحو ألف خطوة من معسكره. فامتاز هكذا بموقع مشرف وبكونه في حماية المدينة، ولو جزئيا على الأقل. ولما مرت ساعات دون أن يتقدم إلى الأمام، قرر قيْصر أن يبدأ العملية، ليجره إليه.

فأصدر الأمر للجنود الذين يكوّنون أحد جناحيه، أي لبعض الفرسان والمشاة الخفاف والقواسة والمقلاعيين، أن يذهبوا لمهاجمة الخيالة التي على جانب المدينة[75]. فنشر باكيدِيوس Pacédéius – الذي كانت المدينة تحت قيادته – هذه الخيالة، قاصدا بذلك الإحاطة بالمهاجمين، وواجههم بمقاومة عنيفة. ولكي يعزز قيْصر رجاله، فإنه بعث من أقرب فيلق إليه 300 رجل الذين لم يكونوا يحملون أثقالا، وكانوا دائما على استعداد للتدخل. فبعث لابيينوس بدوره إلى باكيديوس بعض النجدات والخيول المرتاحة ليعوض بها عن الخيول الجريحة أو المتعبة فأخذ الفرسان القيْصريون، وعددهم 400 يتراجعون قليلا قليلا أمام قوات من الخيالة التي تفوقهم عشرة مرات، والتي انضم إليها مشاة من النوميديين. فأرسل قيْصر لنجدتهم فرسان الجناح الآخر الذي لم يكن قد تدخل. وبحملة عامة، اضطر الأعداء إلى الفرار، ووقعت متابعتهم على مسافة ثلاثة أميال. وتحملوا من جراء هذه المناوشة الشديدة خسائر فادحة، حتى إن باكيديوس نفسه قد اخترق خوذَته رمحُ جرحه جرحا بالغا. كل هذا وسيپْيون لم يغادر موقعه. لذلك، فإن قيْصر بعدما انتظر وهو في نظام المعركة حتى الساعة العاشرة من النهار، عاد لمعسكره من غير أن يصاب أحد من رجاله على ما قيل.

ففهم قيْصر أن عليه أن يتخلى عن أمله في إنهاء الحرب في سهل أگار هذا، حيث لا يريد سيپْيون أن ينزل جيوشه للصف، وحيث لا يستطيع - هو نفسه - أن يقيم معسكرا أشد قربا من خصمه، لأنه سيعوزه الماء.

لقد مر أكثر من أربعة شهور وهو في إفريقيا. وقد أحرز على بعض الانتصارات، وحافظ على جيشه في حالة تقارب السلامة. ومع ذلك، فإن الذين جاء لمحاربتهم قد نجحوا في التملص من كل لقاء حاسم، كما فرضوا عليه حربا استنزافية يتحملها على مضض، ويخوضها بمشقة، لأن تموينه غير مضمون ضمانا كليا. وهو يجهل قيمة الفيالق اليومْپية، لأنه لم يستطع أن يجعل فيالقه تشتبك معها. وجنوده لم يتح لهم بعد أن يواجهوا فِيَلة يوبا التي سبق لها أن أدخلت عليهم رعبا شديدا. ولكنه تعلم أن يعرف وأن يخشى الخيالة والمشاة النوميديين الخفاف. وكان الخيالة القيْصريون، حينما يخوضون المعركة ضد هؤلاء الأعداء، لا يستطيعون التغلب عليهم دون مساعدة من جنود الفيالق، فكانوا يفقدون كثيرا من الخيول التي تُجرح أو تُقتل بالرماح الآتية من بعيد، وإذا تدخل رجال الفيالق، فإنهم يبذلون عبثا قصارى جهودهم في اللحاق بأناس لا يمكن نيلهم لخفتهم، ولا يفرون إلا ليعودوا للهجوم. فكانت هذه الخطة، وهذه الحبائل والمكامن التي يجب التنبه لها دائما، تحير قدماء المحاربين الذين تعودوا في بلاد الغال أن يقاتلوا في أرض مستوية، وضد رجال يتسمون بالصدق ويواجهون الرومانيين بشجاعتهم، لا بجميع أنواع الختل.

ورغما عن الخبرة التي بدأ قيْصر يتوفر عليها من هذه الحرب الإفريقية، ورغما كذلك عن الوسائل التي اتخذها ليعطي المزيد من الخفة

والحركة ولو لقسم – على الأقل – من جنود فيالقه، فلابد أن القلق كان شديدا داخل جيشه، كما يحتمل أن جانب الجمهوريين، كان به كثيرون أيضا يودون النهاية، ولا يفهمون الأسباب التي تجعل رؤساءهم يتخذون موقفا يكاد يكون سلبيا. فكان هناك شعور، في كلا الجانبين لاشك، بأن الحل النهائي لا يمكن أن يتأخر. بل كان هذا الشعور حتى في رومة، حيث كان الناس ينتظرون أخبار إفريقيا بقلق عظيم.

الكتـاب الأول

يوليوس قيْصر وأفريقيا

الفصل الرابع

انتصار قَيْصر في ثابْسوس ونهاية الحرب

1

كانت مدينة ثابْسوس Thapsus تقع في «رأس ديماس»، وهو مرتفع يمثل زاوية تكاد تكون قائمة، تتجه أضلاعها من الغرب للشرق ومن الشمال للجنوب. ومن ورائها، إلى الجنوب الغربي تمتد بحيرة عريضة هي «سَبْخَة مُكْنين». أما الشواطئ الشمالية والشرقية لهذه البحيرة المائية فتكاد تكون موازية لساحل البحر الأبيض المتوسط. فهناك إذن برزخان يفصلانها عن البحر، ويمتد كل منهما مسافة 12 كيلومترا. وقد ذكر مؤلف «حرب إفريقيا» أن عرضهما لا يزيد على ميل واحد ونصف (2220 من الامتار). لكننا نلاحظ اليوم أن معدل العرض هو ثلاثة كيلومترات، وأنه لا يقل في كل مكان عن كيلومترين ونصف. فليس من المستحيل أن يكون مستوى الماء بالبحيرة قد انخفض منذ العهد القديم، وأن تكون سَعتها قد انخفضت نتيجة لذلك. وزيادة على ذلك، فهناك

أرض مستوية بين المساحة المائية للسبْخة وبين الأرض اليابسة للبــرزخين تمثل منطقة غير واضحة، عريضة إلى حد ما، وبـها مستنقعات وَحِلة. أما في ناحية البحر، فكل برزخ ينتهي بحاجز حجري تعلوه كدى جرداء، وينتهي غير بعيد من «رأس ديماس». وهناك نتوؤان منعزلان يرتفعان على نحو 1200 متر خلف هذا الرأس، هما أكَمتا البحيرة El-Behira اللتان تشرفان من الجنوب الغربي على خرائب ثابْسوس. وفي نفس الاتجاه، وعلى 2500 متر من المرتفع، هناك «ظهْرة الحَفْصة» Dahret El Hafsa، الذي يعلو باثنين وعشرين مترا، ويتحكم في أقصى الشمال للبرزخ الشرقي.

هذه هي الأمكنة التي خاطر فيها قيْصر بمصيره. وكما هو الشأن في كل ما يتعلق بهذه الحرب فإننا نقرأ الرواية المفصلة جدا عن معركة ثابسوس في يوميات رفيق قيْصر فيها. وهـي رواية مشاهد صادق ودقيق، وإن كان لم ير كل شيء، فيهمل ما لم يَرَه. ولذلك يحسن تتميم روايته وتوضيحها بما رواه ديون كاسْيوس[76] (الذي يظهر أنه استقى من تيت ليف)، وكذلك من بلوتارك[77]، إذ يعطينا هذان الكاتبان معلومات ضئيلة لاشك، ولكنها معلومات قيمة، مستقاة إما من أسينْيوس پولْيون Asinius Pollion[78] أو من غيره، أما أپْيان فهو كثير الاختصار وغير دقيق[79]. وفيما عدا هؤلاء، لا نكاد نجد شيئا. أما من بين المعاصرين، فيظهر أن ڤايْت Veith هو أحسن من استنطق النصوص، ولذلك فإننا لن نبتعد عنه إلا في بعض المسائل الثانوية.

في 4 من أبريل خرج قيْصر تحت جُنح الليل من المعسكر الذي كان يقيم به بالقرب من أگـار. وبعد مسيرة 16ميلا (24 كيلومترا) وصل أمام ثابسوس.

كان مروره بالبرزخ الشرقي. وسنرى بالفعل في المعركة التي جرت بعد ذلك بيومين، أنه كان هناك على أقل من 1500 خطوة من معسكره القريب من ثابسوس. وقرب جناحه الأيمن معسكر، كان سيپْيون يشتغل في إقامته من جهة البحر. وذلك ما يؤكد أن المعركة جرت على البرزخ الشمالي، وإلاّ فإن الجناح الأيمن لِقَيْصر سيكون من جهة البحيرة على البرزخ الآخر. ثم إن سيپْيون كان قد دار مع البحيرة من داخل الأراضي، فيستنتج من ذلك أنه كان من قبل يوجد على البرزخ الشرقي، أي في المحل الذي يبدأ منه هذا البرزخ، لأن معسكره الأول – كما قيل – كان على بعد 8 أميال (12 كيلومترا) من ثابْسوس. غير أنه قد وصل إلى هناك متقفياً قيْصر، وإذن فمن هناك مر هذا الأخير في طريقه إلى المرتفع الذي تقع عليه مدينة ثابْسوس.

هذه المدينة المخلصة جدا للجمهوريين، كانت تحميها حامية مهمة، على قيادتها البريطور القديم كايوس ڤِرْجيليوس C Vergilius. ولو سمح سيپْيون للعدو بالاستيلاء على ثابسوس، لحطم نفوذه وشرفه. لكنه لو جاء لنجدتها، فإن قيْصر يأمل أن يرغمه على خوض معركة قد تجري في مجال ضيق، بين البحر والبحيرة، حيث أفضل جيوش خصومه، وهي خيالتهم ومشاتهم الخفاف، لا يستطيعون الحركة بانطلاق. والمؤكد أن الدكتاتور معرض لخطر كبير، وإذا نجح الحلفاء في سد البرزخين، ومن وراء هذين الحاجزين رفضوا المعركة، فإنه ربما استطاع الاستيلاء على ثابسوس، ولكنه سيكون معزولا عن بقية إفريقيا، ومعرضا لأن يموت جوعا، أكثر مما كان وهو بنجد روسْبينا، لأن تموينه عن طريق البحر غير مضمون. ولكنه اطمأن مرة أخرى إلى عبقريته وحسن حظه.

وفي نفس اليوم الذي وصل فيه أمام ثابسوس، شرع في خدمات هامة، فلم يعترض عليها ڤِرْجيلْيوس، شعورا منه بأنه لن يتغلب، فأقيم معسكر بالمكان الذي لاشك أن الطبيعة كانت تحض على إقامته به، أي في كُدْيَتَي الْبحيرة El-Behira، وكان متصلا بالساحل بتحصينات على اليمين واليسار، بحيث كان مجموع الخطوط يمثل هلالا يحيط بالمدينة. ولكي يمنع قيْصر سيپْيون عن الاقتراب من ثابسوس ونجدتها قبل أن تنهى عملية الإحاطة بها، فإنه أقام في نفس الحين المحارس في عدة أماكن مناسبة، كما أقام حصنا جعل به ثلاث فرق. وكان هذا الحصن على ما يحتمل تتويجا للموقع المشرف على «ظهرة الحَفْصة».

كان سيپْيون بمجرد ما علم بسير قيْصر، قد أخذ يتقفاه من فوق المرتفعات القائمة جنوب بحيرة مُكْنين. فلما وصل هو ويوبا إلى مدخل البرزخ الشرقي أقاما معسكرين يبعد أحدهما عن الآخر بمسافة قريبة، وكان المعسكر الروماني عند الغرب، بينما أقيم المعسكر النوميدي إلى الشرق.

وفي الغد اقتحم سيپْيون البرزخ، وكان قصده أن يدخل إلى ثابْسوس جيوشا تعزز حاميتها وتمكنها من أن تقاوم طويلا. ولكن الحصن الذي وجده أثناء طريقه أوقفه فولّى إلى الوراء. فقد كانت الاحتياطات التي اتخذها قيْصر ناجعة. وعلى هذا، فبمستطاعه أن يتابع خدماته للحصار، وأن يكمل على ما يحتمل أيضا جهاز التحصينات التي تمكنه بين ثابسوس والبحيرة من سد الطريق بين البرزخين.

أما سيپْيون، فإنه لما عاد لمعسكره شرع في تطبيق الخطة التي يرجَّح أنه فكر فيها – أو أشير بها عليه – منذ الأمس. وهي خطة لم يذكرها مؤلف «حرب إفريقيا»، ولكن عرّفنا بها دِيون كاشيوس. وهي

حصر قيْصر بسدّ كل من البرزخين بخندق وتحصين. فأما بالجنوب فكان الأمر سهلا. إذ كان يكفي أن يربط المعسكران أحدهما بالآخر. وأن يربط بينهما وبين البحيرة من جهة، ثم بالبحر من جهة أخرى. فهل وقع الشروع في العمل في نفس ذلك اليوم، أو في صبيحة الغد؟ إن دِيون كاسْيوس يتحدث بصفة تمكننا من اعتقاد ذلك. بينما كان لابد من مسيرة طويلة للوصول في البرزخ الشمالي إلى المكان الذي يقام به الحاجز الثاني.

ومكث أَفْرانْيوس – وهو قنصل سابق – وكذلك يوبا يحفظان قسما من الجيوش، فكان أحدهما بالمعسكر الروماني والآخر بالمعسكر النوميدي. بينما سار سيپْيون بالليل مع بقية الجيش والفِيلَة. وكان سيره بمحاذاة الشواطئ الجنوبية والغربية للبحيرة، ثم دخل في البرزخ الشمالي، وبعد أن قطع نحوا من ثلاثين كيلومترا منذ انطلاقه في السير، وصل في فجر يوم 6 أبريل (أي 7 فبراير بالتقويم المعدّل) إلى مكان يبعد 1500 خطوة من معسكر قيْصر والحصن الذي تحدثنا عنه. فإذا جعلنا معسكر قيْصر في «البحيرة» El Behira وجعلنا الحصن في «ظَهْرة الحَفْصة»، فلابد من قبول كون سيپْيون قد اتخذ موقعه على القمة التي بها ضريح «سيدي الزبيدي». وبعد إقامة معسكره، لاشك أنه كان ينوي الشروع على عجل في التحصينات التي تسد البرزخ.

ولماذا اختار مكانا قريبا جدا من العدو ؟ إنه لو توقف عند مدخل البرزخ، على الجانب الآخر من البحيرة، كما سبق له أن فعل منذ يومين، لكان له متسع من الوقت يقيم فيه معسكره، ويستعد ليصد أي هجوم. ويجاب على ذلك بأن البرزخ الشمالي خلافا للبرزخ الشرقي – أكثر سعة عند مدخله، من سعته قرب ثابْسوس. ففي «سيدي الزبيدي» لا تبلغ

السعة سوى كيلومترين ونصف، بينما هي تتراوح بين أربعة وتسعة كيلومترات غربي هذا المكان. فبقدر ما يقصر الحاجز، ينتهي العمل فيه بسرعة، ويكون الدفاع عنه سهلا. وزيادة على ذلك، فإن سيپْيون الذي لم يستطع بالأمس أن يمد يد المساعدة لأهل ثابسوس، يود اليوم على ما يحتمل تشجيعهم على المقاومة بمجيئه وحلوله بالقرب منهم أكثر ما يستطيع.

صار لزاما على قيْصر الذي يتهدده الحصار أن يخوض المعركة حالا، لأن وضعية الأمكنة والوسائل الدفاعية التي اتخذها تضمن له تفوقا يتمثل في أن تحت يديه جميع جيشه المجتمع بملتقى البرزخين، بينما كان جيش الأعداء، على النقيض من ذلك، مقسما إلى قسمين تفصل بينهما، فيما وراء البُحيرة، مسافة ثلاثين كيلومترا. في حين أن المرور بين البرزخين كانت تعترضه تحصينات قيْصر، الذي يستطيع، إذا أحكمت حراسة هذه العراقل، أن ينقضّ على أحد القسمين دون أن يخشى تدخل القسم الآخر، ويعود للثاني بعد قضائه على الأول. أما حامية ثابْسوس، فستجد هي أيضا التحصينات أمامها، إن هي أرادت أن تناله من الخلف.

وبمجرد ما علم بمكان سيپْيون أوقف أشغال الحفر التي كان الجنود قد عادوا إليها في هذه الساعة المبكرة. وتوقّياً منه للخطر المزدوج المتمثل في خروج أهل ثابسوس إليه، والتمثل على الخصوص في هجوم قد يأتي من البرزخ الشرقي، فإنه ترك بالمعسكر البرقنصول نونْيوس آسْبرِناس Nonius Asprénas وترك معه فيلقين. ثم اتجه على جناح السرعةَ مع جيوشه الأخرى التي لا تحمل سوى أسلحتها نحو العدو، وذلك بالرغم عن المستنقعات التي كان لابد لجناحه الأيسر أن

يقطعها من جهة البُحيرة. أما السفن التي كانت تقف أمام ثابسوس وتحاصرها، فقد أصدر الأمر لقسم منها أن يذهب إلى وراء سيپْيون، وأن يقترب من الساحل أشد ما يمكن. وحينما تعطى الإشارة، يصيح رجالها صيحات عالية لتخويف اليومْپيين ليرغموهم على أن يهتموا بمؤخراتهم.

وكان سيپْيون قد اتخذ الحيطة لحماية الرجال المشتغلين بالمعسكر ضد أي هجوم محتمل. فقد صفّف بقية جيشه في نظام المعركة بالبرزخ، وجعل الفِيَلة بالجناحين، بحيث كانت فيلة الجناح الأيسر أمام المعسكر، وخلف هذه الحيوانات كان المشاة والخفاف منهم لاشك، أمام الفيالق فلابد أنها كانت بالموسطة. وكان الفرسان الأهالي يعززون الفيلة التي يحتمل أنهم اتخذوا مواقفهم من بعدها، أي في طرفي هذا الجهاز الحربي.

ونظم قيْصر فيالقه على ثلاثة خطوط، فجعل على اليمين الفيلقين التاسع والعاشر، وعلى اليسار الثالث عشر والرابع عشر. وكانت جميعا مكونة من قدماء المحاربين. وصحب معه أيضا بعض المجندين الذين ربما كانوا فيلقا واحدا أو فيلقين – ولابد أنه جعلهم بالموسطة، يحيط بهم جنوده القدماء (وذلك ما لم يذكره كتاب «حرب إفريقيا»). أما الفيلق الخامس المدرب على حرب الفِيَلة، فقد قسم إلى مجموعتين، بكل واحدة منها خمس فرق، وجعلت هذه الوحدات قرب طرفي المجموعة المتكونة من الفيالق الأخرى، ولكن مع تأخر عنها إلى الخلف. إذ كان أمامها – على ما يحتمل – القواسة والمقلاعيون الذين كان عليهم أن يبدأوا المعركة ضد الفيلة. أما الخيالة المتخللة بالمشاة الخفاف، فلم يكن مكانها سوى الطرفين حتى البحر والبُحيرة. وبعد أن صفف قيْصر

الجيش على هذا النحو، طاف على الصفوف راجلاً يحث جنوده القدماء والجدد على القيام بواجبهم.

في هذه الأثناء كانت الحركة شديدة في ناحية الأعداء. فكان الذهاب والإياب بين خطوط المعركة والمعسكر الذي لم يكن سيپْيون قد أوقف به الخدمات، وحدثت الحيرة لاشك بسبب سرعة قدوم قيْصر، فكان كثير من الناس يجهلون ما يجب أن يفعلوه، وتصلهم الأوامر المتناقضة. وشاهد القيْصريون هذا الاضطراب فعزوه إلى الخوف، حتى أن في حرس الدكتاتور من رَجوه أن لا يتأخر عن إعطاء الإشارة بالمعركة، لأن النصر ليس مشكوكا فيه. ولكنه لم يرد أن يفعل شيئا من ذلك. فلماذا ؟ إن الفقرة – من كتاب «حرب إفريقيا» – التي تذكر سبب هذا الرفض لا تقدم لنا معنى واضحا. فلاشك أنها مضطربة، ومختلف التفسيرات التي يقترحها العلماء لا تكاد تقنعنا.

وفجأة نفخ صاحب البوق من جهة اليمين إيذانا بالهجوم، بعد ما أرغمه الجنود على ذلك. فتحركت جميع الفرق، رغما عن جهود قادة المائة الذين تسابقوا أمام الرجال ليمنعوهم عن التقدم دون أن يصدر لهم أمر بذلك. ورأى قيْصر أن كل مقاومة أصبحت مستحيلة، فأعطى كلمة السر وهي "التوفيق Félicitas" ثم ركب فرسه وقصد العدو. وقد كتب بلوتارك [80] قائلا : «إن كثيرا من الناس يدّعون أنه لم يحضر المعركة، لأنه أصيب بنوبة صرعته حين كان يصفف جيشه، وأنه أمر قبل أن يفقد الشعور، بأن ينقل إلى برزخ مجاور، ولكن يظهر أنه لا معنى للوقوف عند هذا الادعاء الذي تناقضه التفاصيل الواردة في كتاب «حرب إفريقيا».

كان المقلاعيون والقواسة على اليمين يمطرون الفيَلة بالحجارة والسهام. فذعرت هذه الحيوانات، واستدارت على أعقابها تدوس المشاة الواقفين خلفها في صفوف متراصة، ثم تسارعت إلى أبواب المعسكر التي كان بناؤها غير تام. وانطلق كذلك في الفرار الفرسان الأهالي الذين كان من واجبهم مساندتها. وسرعان ما دارت الفيالق القيْصرية حول الفيلة، واستولت على المعسكر الذي كان غير تام البناء، ولا يمكن الدفاع عنه.

أما على اليسار فإن القدماء بالفيلق الخامس قد أتيحت لهم الفرصة ليظهروا جرأتهم، لأن الفيلة بهذا الجانب كان لها موقف أشد. ونقرأ في كتاب «حرب إفريقيا»[81] إن فيلاً منها آلمه جرحه، فقسا بشدة على أحد الخدم، فانطلق إليه أحد جنود الفيلق، فترك الحيوان جثة الخادم، وأحاط الجندي بخرطومه ورفعه في الفضاء. ولكن الجندي الشجاع أحدث في الخرطوم جرحا بالغا بسيفه، وأرغم الفيل على أن يتركه.

تحطم الجناح الأيسر لسيپْيون، وفي الخلف وقع الاستيلاء على معسكره. وفي نفس الحين كانت الموسطة والجناح الأيمن مهددين بالتطويق، فلم يقاوما طويلا.

كان انتصار قيْصر إذن انتصارا سريعا، ولم يتكبد فيه سوى خسارة ضئيلة. أما الفيلة التي كان اليومْپيون يعتمدون عليها، فإنها كانت سبب خسرانهم، كما كانت هذه المعركة العظيمة آخر معركة استُعملت فيها هذه الحيوانات الخطيرة.

ويظهر أن كثيرا من الفارين قد تشتتوا فيما وراء البرزخ، في اتجاه الشمال أو الغرب. كما أن عددا كبيرا غيرهم، ربما كانوا نحوا من

10.000 رجل[82]، قد أخذوا على عجل الطريق التي سبق أن ساروا بها ليلا على طول البُحيرة، ليعودوا إلى المعسكر الذي كانوا قد خرجوا منه مع سيپْيون. وكان هذا الأخير قد تخلى عنهم[83]. ولما تتبعهم المنتصرون، لم يستطيعوا تنظيم أنفسهم، ووصلوا كذلك على غير انتظام إلى مدخل البرزخ الشرقي. (ربما كان وصولهم في بداية ما بعد الظهر). وكانوا يتمنون أن يتمكنوا من الدفاع بالمعسكر الروماني تحت إمرة أحد القادة. ولكنهم لم يجدوا هناك أحدا. فاتجهوا عند ذلك إلى المعسكر الملكي، فكان بيد القيْصريين.

إذن، فما الذي جرى بهذا الجانب؟ يخبرنا بذلك صاحب اليوميات، الذي يظهر أنه شارك في المعركة ضد سيپْيون وفي متابعة المغلوبين. فهو يروي حوادث اليوم، ويسكت عن غيرها، مما لانجد عنه في مكان آخر سوى معلومات ضئيلة جدا. وقال لنا أن قيْصر، بعدما استولى على معسكر سيپْيون، قد استولى كذلك على معسكر أفْرانْيوس ومعسكر يوبا، والمؤكد أنه قاد بنفسه هذه العملية المزدوجة[84]. وعلى هذا، يكون قد عاد إلى الخلف بعد انتصاره بالبرزخ الشرقي، ومعه قسم كبير من جيوشه، إذ لم تكن هناك فائدة في استعمال كل الجيوش في مطاردة الفارين. وهناك استطاع الاتصال بالفيلقين اللذين تركهما تحت قيادة أسْبرِناس Asprénas. وكان لابد له من أن يحث السير، طوال البرزخ الشرقي، مدة ساعتين ونصف ليصل إلى معسكري الأعداء الواقعين على نحو 11 كيلومترا من معسكره. فلم يخض المعركة للاستيلاء عليهما، لأن أفرانيوس ويوبا فَرّا من وجهه. ولابد أن يكون خبر اقتراب قيْصر قد وصلهما، لكن الراجح أن هذا الخبر لم يكن كافيا ليقرر التخلي عن كل مقاومة، كما يرجح أن فارسا أطلق العنان لفرسه وحمل إليهما خبرا آخر، هو خبر كارثة سيپْيون.

كان القيْصريون قد غادروا معسكر أفرانيوس ودخلوا إلى المعسكر النوميدي، حين كاد يصطدم بهم جنود سيپْيون الفارون. ولما فقد هؤلاء كل أمل، انسحبوا إلى تل مجاور حيث ألقوا السلاح، وأدوا التحية العسكرية المعتادة، إشارة إلى أنهم يستسلمون. لكن ذلك لم ينفع هؤلاء التعساء في شيء، فانتقم منهم القدماء القيْصريون على ما تكبدوه من متاعب وآلام وأخطار حرب لا تنتهي. ولم يقبلوا – وهم في جنون الغضب – أن يقابلوهم بالعفو. بل إنهم جرحوا أو قتلوا أناسا ذوي حيثية من نفس جيشهم، اتهموهم بأنهم مسؤولون عن هذه الآلام. فاضطر كثير من الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ إلى الابتعاد حتى لا يكونوا ضحية جنود مهتاجين لا يسمعون رجاء ولا يستمعون لأمر. وعلى مرأى من قيْصر الذي لم يستطع إيقافهم، قتلوا الأعداء عن آخرهم، وهم عزّل أمامهم من السلاح. يذكر أپْيان[85]، أن جيش سيپْيون وجيش يوبا يبلغان متجمعين نحواً من 80.000 رجل، وربما كان هذا العدد صحيحا. ويذكر بلوتارك أن خسارة الجيشَيْن معا قد تكون 50.000 رجل[86]. ولكن العدد الوارد في كتاب «حرب إفريقيا»[87] وهو 10.000 من القتلى أقرب إلى الصحة. ولم يتكبد القيْصريون سوى 50 قتيلا، وليس ذلك بمستحيل، لأن عملهم لم يكن سوى مع رجال فارين أو عزّل من السلاح. ولقد أخطأ أپْيان Appien حين أكد أن المعركة كانت قاسية جدا، وحدثت بها تقلبات مختلفة، وأن النصر لم يكن كاملا إلا بعد نزول الظلام[88].

كان المدافعون عن ثابسوس قد حاولوا الخروج أثناء النهار. فمروا بالباب البحري، ثم اندفعوا في البحر وغاصوا في مائه إلى أنصاف أجسامهم، وساروا بمحاذاة البرزخ الشمالي، محاولين الوصول إلى الشاطئ فيما وراء تحصينات قيْصر، الذي قلنا إنه كان قد وصل

للساحل. غير أن الخدم والعبيد الذين أتوا مسرعين من المعسكر أمطروهم بالحجارة والسهام، ومنعوهم من إنجاز مشروعهم. وقد جرت هذه الحادثة حسب كتاب «حرب إفريقيا» أثناء معركة البرزخ الشرقي، وتساءل مؤلّفه هل كان جنود ڤِرْجيلْيوس Vergilius يريدون المشاركة في العملية الحربية، أو أنهم كانوا يودّون الفرار بتركهم المدينة ؟ على أن الفرض الثاني لا يكون مقبولا إذا كانت المعركة لا تزال جارية، وإلا، فيكون معنى ذلك أنهم يذهبون للاصطدام بجيش قيْصر. وحيث إن الخدم والعبيد هم الذين تدخلوا، فيحسن قبول كون فيلقي أسبْريناسْ لم يكونا بالمعسكر، وأنهما ربما كانا إذ ذاك يسيران مع قيْصر إلى معسكر أفرانْيوس ومعسكر يوبا بعد انتهاء المعركة ضد سيپْيون. فلما رأت حامية ثابسوس أن الأحوال تسوء، حاولت أن تفرّ على ما يظهر، منتهزة كون معسكر الدكتاتور كاد يكون خاليا، وكون المرور ممكنا عن طريق البرزخ الشمالي. وبالفعل، فإن الجيوش التي دحرت سيپْيون كان بعضها يطارد الفارين، وبعضها يسير على طول البرزخ الشرقي.

عاد قيْصر لمعسكره عند نهاية النهار، وأراد في نفس الحين أن يعطي لِڤِرْجيلْيوس ولأهل ثابْسوس البرهان على الكارثة التي حلت بحزبهم، فيجذبهم بذلك إلى التسوية. فوقف أمام أسوار المدينة، وصفف الفيلة الأربعة والستين التي استولى عليها مجهزة ومسلحة بالبروج. ثم دعا ڤِرْجيلْيوس إلى الاستسلام وواعده أن يكون حليما. ولكن لم يصله أي جواب.

وفي الغد جمع قواته أمام ثابسوس، وقدم قُرباناً، ثم وزع الهبات من الغنائم على جميع الجنود القدماء، وحلى ذوي الشجاعة الفائقة

بالأوسمة. ولعل هذه هي المناسبة التي نال فيها الفيلق الخامس شرف رسم صورة الفيل على أشرعته.

وبعد أن أمر خيالته أن تتقدم بقيادة م. ڤاليريْوس ميصالا M. Valerius Messalla، توجه إلى أوتيكا مع قسم من المشاة، وترك خمسة فيالق لتنهي الحرب في هذه الجهة من إفريقيا، حيث جرت كلها بين هدرميت، وثابْسوس، وأگّار، وثيسْدروس. أما البرقنصول ك. كانينْيوس ريبيلوس C. Caninius Rébilus الرفيق القديم لكوريْون Curion في الحرب، فقد كلف ومعه ثلاثة فيالق بمحاصرة ثابْسوس. وكذلك كْنايوس ضوميتْيوس كَلْفينوس Cn. Domitius Calvinus فإنه كلف أن يذهب بفيلقين لمحاصرة ثيسْدروس التي كان كُنْسيدْيوس على قيادتها.

وتقريبا، في الحين الذي انتصر فيه قيْصر، أحرز سيتْيوس على انتصار عظيم. فقد حطم جيش سَبورّا Saburra قائد جيش يوبا. وقُتِل سبورا نفسه. فانتهى الصراع إذن في نوميديا. واحتل أسطول سيتيوس ميناء هيبون Hippone، وذهب هو نفسه لمقابلة الدكتاتور لينال ثمن خدماته.

2

لم يعش كاتون Caton بعد اندحاره في الحرب التي أبى أن يكون هو رئيسها، وإن كان أكثر رجالها استحقاقا للاحترام والتوقير.

وقد خلف لنا بلوتارك[89] قصة طويلة عن أيامه الأخيرة وموته. ولابد أنه استقى هذه القصة من «حياة كاتون» التي هي مديح كتبه ثْراصِياس Thraséas[90] في أواسط القرن الميلادي الأول. ومن الممكن أن يكون ثْراصِياس نفسه قد اعتمد على ترجمة لكاتون كتبها مُناتْيوس روفوس،

الرفيق المخلص لكاتون وصديقه الحميم. أما جل تراجمه الأخرى، وأهمها ما كتبه أپْيان، ودِيون كاسْيوس، فهي إن لم تكن مستقاة من نفس المصدر، فإنها ترجع على الأقل لنفس الاتجاه، ولكن مع تغييرات فيها بعض الخطأ. أما ترجمة كاتون في «حرب إفريقيا»[91] فيظهر أنها أوردت المعلومات التي تلقاها المؤلف في مدينة أوتيكا بعد موت كاتون ببضعة أيام، إذ كان المؤلف – على ما يحتمل – قد رافق قيْصر بهذه المدينة.

وبعد يومين من معركة ثابسوس وصل في المساء بريد إلى أوتيكا وأخبر بوقوع الكارثة. فمكث كاتون هادئا وسط الاضطراب العام. وقد ظن أول الأمر أن بمستطاعه أن يتابع الحرب، لأن أوتيكا كانت في حالة تستطيع بها أن تتحمل حصارا طويلا لأنها كانت محصنة جدا ومزودة بأقوات كثيرة. والحقيقة أنه لم تكن تحت يده سوى جيوش قليلة، لأن الحامية الكثيرة التي كان سيپْيون قد تركها عند ذهابه للمعركة، قد قل عددها على ما يظهر بسبب النجدات التي بعث بها كاتون للجيش. لكن يكمن الأمل في أن قسما من الجنود المندحرين قد ينجحون في العودة من ميدان المعركة. ثم إن في أوتيكا نفسها رجالاً قادرين على حمل السلاح، ولم يؤخذوا بعد للجيش.

وفي الغد (9 أبريل) دعا كاتون إلى معبد جوبيتر Jupiter «الثلاثمائةَ» – أي حسب رأينا مجلسَ ممثلي المواطنين الرومانيين الذين يسكنون المدينة – ودعا معهم جميع أعضاء مجلس الشيوخ الحاضرين، وأبناءهم. وحثّهم على مقاومة قيْصر، ورجاهم أن يتذاكروا في ذلك. فتأثروا بأقواله التي تملأها الحصافة والنبل، وأظهروا الاستعداد لمساعدته. واقترح أحدهم تحرير العبيد لتجنيدهم، فوافقه الكثير على هذا الاقتراح. لكن كاتون الذي يهتم بالمشروعية دائما، ذكّر الحاضرين

بأن العبيد لا يمكن تحريرهم إلا على يد أسيادهم، وأن على هؤلاء الأخيرين أن يفعلوا ما يلزم. فالتزم كثير منهم بذلك في الحين، فأمر كاتون بتسجيل تصريحاتهم.

وخلال ذلك وصلته الرسائل من يوبا وسيپْيون. وكان الملك قد فر إلى أرض جبلية يختفي فيها مع بعض الرفقاء. أما سيپْيون، فالتجأ إلى سفينة كانت راسية قرب مرتفع غير بعيد. وكانا معاً يسألان كاتون عما قرر أن يفعله. وهل ينتظرانه، أو يلتحقان به إذا كان يريد الدفاع عن أوتيكا ؟ غير أن كاتون قبل أن يجيبهما، رأى من الحكمة أن ينتظر حتى يأخذ «الثلاثمائة» قرارا نهائيا.

وسارع أعضاء مجلس الشيوخ بتحرير عبيدهم، وتسليحهم، بينما أنف جل «الثلاثمائة» أن يفعلوا مثلهم، لأن في ذلك خسارة كبيرة لهؤلاء التجار ورجال البنوك ومجهزي السفن الذين كان في خدمتهم كثير من العبيد. فبعد التروي خفّت حميتهم لجانب الجمهوريين. فكانوا يتحدثون فيما بينهم بأن قيْصر هو الأقوى، وأنهم يخشونه، بل إن منهم من أخذ يفكر في تهدئة قيْصر بالاستيلاء على أعضاء مجلس الشيوخ وتسليمهم إليه. فارتاب كاتون وكتب إلى سيپْيون ويوبا أن لا يقتربا.

وكانت مجموعة من خيالة جيش سيپْيون تقدّر بنحو 1500 قد استطاعوا النجاة من الكارثة، واتجهوا إلى أوتيكا. وفي طريق عودتهم كانت توجد مدينة دُعيت باسم پاراد Parade في مخطوطات «حرب إفريقيا»[92]، ولاشك أنها هي التي ذُكِرت في وثائق أكثر حداثة باسم فِرادي مَيوس Pheradi Maius. وكانت تقع على نحو خمسين كيلومترا شمال الشمال الغربي من هدروميت، بقليل خلف خليج الحمّامات. وحيث إن خبر انتصار قيْصر كان قد وصلها، فإن أهلها رفضوا قبول الفارين.

لكن هؤلاء استولوا على المدينة، وأوقدوا بساحتها نارا عظيمة أحرقوا بها كل ما يملكه السكان، ثم رموا في اللهيب جميع السكان من رجال ونساء وأطفال(93).

ولما اقتربوا من أوتيكا، يوم 10 أبريل على ما يحتمل، ثارت بينهم مناقشات حول ما يجب أن يفعلوه فكان بعضهم يريد الالتحاق بيوبا، وبعض آخر يريد أن يجعل نفسه تحت إمرة كاتون، وبعض ثالث كانوا يخشون أهل أوتيكا المعروفين بميلهم إلى قيْصر. فتقدم ثلاثة منهم إلى كاتون الذي خرج من المدينة وسط أعضاء مجلس الشيوخ، واتصل بقواد هذا الجيش. فرجاهم بإلحاح، كما رجاهم رفقاؤه، أن يدخلوا إلى أوتيكا، وأن يساهموا في الدفاع عنها. ثم عاد القادة لمحادثة رجالهم، بينما بقي كاتون والأعضاء على أكمة ينتظرون الجواب.

وأثناء ذلك ورد الخبر بأن «الثلاثمائة» يثيرون الفتن بالمدينة. فبعث إليهم كاتون يرجوهم أن ينتظروا قليلا قبل أن يتخذوا أي قرار. ثم حاول تطمين أعضاء مجلس الشيوخ الذين كانوا يبكون ويتحسرون.

وأخيرا جاء جواب الفرسان: إنهم يقبلون العمل تحت إمرة كاتون، ولكنهم يطلبون منه أن يطرد أو يقتل جميع الأهالي الساكنين بأوتيكا، حيث إن هؤلاء قد يسلّمون المدينة للعدوّ إن هم مكثوا معهم بها. ومع أن كاتون وجد هذه المطالب قاسية جدا، فإنه اكتفى بأن قال بهدوء إنه يستشير «الثلاثمائة». فلما كان أمام هؤلاء، خاطبوه دون مواربة بأنهم لا يستطيعون، ولا يريدون محاربة قيْصر. بل إن من بينهم من قال بصوت خافت إنه يجب الإمساك بأعضاء مجلس الشيوخ حتى يقدم الغالب. فلم يسمع كاتون، لأنه كان ثقيل الأذن كما هو معروف، أو لأنه تظاهر بالصمم.

لقد اتخذ قراره إذن، سرا ومع نفسه. إنه يتخلى عن خوض معركة ليس فيها أمل. وسينهي حياته، لأنه لا يريد بفراره أن يطيل بخسة وجودَه الذي صار لا فائدة فيه. كما أنه لا يريد عفو قيْصر أيضا. ولكنه قبل تواريه عن الأنظار، سيجتهد ليضمن الحياة لمن يريدون البقاء أحياء، بل ويضمن حتى العفو لمن هو على استعداد لتسليم نفسه للدكتاتور، ذلك أن كرم نفسه وكبرياءه أيضا قد جعلاه يصفح عن الآخرين.

لم ينل الفرسان ما كانوا يطلبون، فقرروا الذهاب إلى مملكة يوبا، (ربما في صبيحة يوم 11 أبريل). وبمجرد ما علم كاتون بذلك، ركب فرسه والتحق بهم. وبعد إلحاحه في الرجاء، قبلوا المكوث ذلك اليوم. فقد كان يريد استخدامهم عند الحاجة في حفظ الأمن، إن قام «الثلاثمائة» بارتكاب العنف ضد أعضاء مجلس الشيوخ قبل أن يغادروا أوتيكا. لقد أرجعهم وأمرهم بالمكوث عند الأبواب وفي القلعة.

وخشي «الثلاثمائة» ان يعاقبوا بسبب تقلبهم، فبعثوا إليه يطلبون منه بإلحاح أن يعود إليهم. فعاد رغما عن معارضة الشيوخ الذين كانوا يخافون الخيانة. غير أن الذين طلبوا منه العودة، أثنوا عليه كثيرا، وأخبروه أنهم قرروا أن يطلبوا العفو من قيْصر، ولكنهم قبل كل شيء سيرجون الدكتاتور أن يصفح عن كاتون. فكان الجواب : أنه يحسن بهم أن يبعثوا دون توانٍ بوفد لينالوا الإبقاء على الحياة، ولكنه طلب منهم أن لا يطلبوا شيئا له هو، ثم انسحب بعد ذلك.

وأخذ كثير من الفارين يَصِلون جماعة بعد أخرى. ولكن أوتيكا لا يمكن أن تصلح ملجأ لهم، إذ وصل الخبر أن قيْصر يتقدم مع جيشه. فحث كاتون الشيوخ على أن يذهبوا بأسرع ما يستطيعون، ثم جعل السفن رهن إشارتهم.

وأحدث له الخيالة وساوس أخرى. ذلك أنهم لم يكتفوا بدور الشرطة الذي قبلوا القيام بهِ لهذا اليوم، بل حاولوا اقتحام المعسكر الذي كانت به جماعة كبيرة من أهل أوتيكا قد تجمعت قرب أسوار المدينة وأرادوا الانتقام بسهولة، للانحدار الذي أصابهم، من رجال يعتبرونهم كالأعداء. ولكن هذه الجماعة من الناس، قويت قلوبهم بانتصار قيْصر، واستطاعوا أن يصدّوهم بالحجارة والعصي. فاهتاج الخيالة، وانطلقوا في المدينة يقتلون وينهبون. ثم ذهبوا يقصدون نوميديا. ويقال إن كاتون قد نجح، على ما يظهر، في أن يستردّ منهم جميع ما نهبوه. ولكن يظهر حسبما يرويه مؤلف «حرب إفريقيا» أنه أعطى لكل واحد منهم مائة سيسْتيرس Sesterces. كما ان فَوْسْتوس سولا Faustus Sulla الذي كان يرافقهم صحبة أبنائه وزوجته (وهي بنت پومْپي) أعطاهم مثل ذلك القدر على ما يظهر. أما أفرانيوس فإنه قد ذهب معهم أيضا، إن لم يكن قد لحق بهم من بعد.

وعلى هذا، فإن كاتون قد فعل ما استطاع ليمنع وقوع أي مكروه بأهل أوتيكا. وحيث إنه كان قد خص نفسه بالتصرف في الأموال البلدية، فقد قرر أن يعطي البيان عن تصرفه لقضاء المدينة، ودفع لهم ما تبقى لديه. ثم استدعى الأوتيكيين إلى نفس المدينة ورجاهم أن لا يوغروا صدر قيْصر على «الثلاثمائة».

وبعد ذلك عاد إلى الميناء ليشرف على إبحار الذاهبين، فودعهم وداعاً حاراً. وقدم النصائح، بل حتى المساعدة وزاد السفر، مع الاحتراز عن تشجيع المتفخمين أو المتحمسين الذين يدّعون أنهم سيمكثون ويظهرون بمظهر الأبطال. ومع ذلك فإن ابنه رفض أن يفارقه، ولم يرد هو أن يرغمه على ذلك. وهكذا قضى كل الليل وجل نهار الغد (12 أبريل؟). أما لوكيوس يولْيوس قيْصر L. Julius César الذي كان في

منصب المتصرف المالي، فقد أوفده «الثلاثمائة» للذهاب لمقابلة ابن عمه الدكتاتور. وقبل ذهابه زار كاتون، فمنعه هذا من أن يتحدث بشيء في صالحه، وإنما تذاكر معه فيما يجب أن يقوله ليحصل على العفو «للثلاثمائة». ثم أوصاه بابنه وبعتقائه.

ودخل بعد ذلك لمنزله، وتحدث طويلا مع بعض الأصدقاء ومع ابنه، فمنعه من الاشتغال بالسياسة. ولما جاء المساء دخل الحمّام، وتناول العشاء صحبة طائفة من المدعوين الذين كان من بينهم حكام مدينة اوتيكا. وكما جرت عادته منذ الاندحار بمعركة فَرْصال، فإنه تناول عشاءه جالساً، لا مضطجعا على الفراش.

وبعد العشاء جرت المذاكرات في بعض الموضوعات الفلسفية فأكد كاتون أن فاعل الخير هو وحده الرجل الحر. وكان يتحدث بقوة وحرارة إلى حد أن مستمعيه خالجهم الشعور بما سيفعله – هو نفسه – بحريته، ففهم ذلك منهم واجتهد في تطمينهم. ثم غيّر موضوع المذاكرة، وتحدث عن الذين غادروا أوتيكا بطريق البحر أو البر، وأبدى الاهتمام بمصيرهم. ثم قام بجولته المعتادة. وحين دخل لحجرته، قبّل ابنه وأصدقاءه بحنان أكثر من المعتاد.

وعندما بقي بمفرده تناول «فيدون»، وهو الحوار الذي كتبه أفلاطون عن خلود الروح، وقرأ منه قسما كبيرا. ثم طلب سيفه الذي كان معلقا فوق رأسه، فلم يجده، لأن ابنه كان أخذه أثناء العشاء. فنادى أحد العبيد وسأله عمن أخذه. فلم يَدْر الرجل جوابا. فعاد كاتون إلى القراءة، وبعد قليل من الزمن أمر أن يؤتى بسيفه، ثم أنهى قراءته ودعا خدمه الواحد بعد الآخر، وطلب منهم سيفه بغضب شديد، وانقض على أحدهم وضربهُ ضربة شديدة جُرحت منها يده. فأقبل ابنه مسرعا، مع أصدقائه، وتوسل

إليه. ولكن كاتون أجابه بصوت قاس قائلا: «هل تريدون أن تعاملوني معاملة مَنْ فقد عقله ؟ ثُم لو كنت أريد قتل نفسي، أفما كان باستطاعتي أن أفعل ذلك دون حاجة إلى السيف ؟

فخرج الشاب باكيا، وتبعه الجميع باستثناء فيلسوفَيْن استبقاهما كاتون بجانبه بعض الوقت. وبعد أن جاءه عبد صغير بالسيف، تفحصه ووضعه بجانبه. وعاد إلى كتابه فقرأه وأعاد قراءته، ثم نام نوما عميقا. وعند منتصف الليل استيقظ من نومه وطلب اثنين من عبيده المعتقين، وكانا من الموثوق بهم. فكلف أحدهما وهو بوتاس Boutas أن يذهب إلى ساحل البحر وأن يتأكد من أن جميع الناس قد ذهبوا. ثم أمر الآخر وهو طبيب أن يضمد له يده. وسرعان ما دخل بوتاس وأخبر أن الناس قد ذهبوا جميعاً، غير أن الرياح تنفخ بالبحر كالإعصار. فتنهد كاتون، وبعث بوتاس من جديد ليرى هل رجع أحد من وسط البحر، وأنه في حاجة للمساعدة. ثم عاد للنوم إلى أن عاد العتيق، وأخبره أن كل شيء هادئ حول الموانئ فأمره أن يذهب ويغلق الباب من خلفه.

ثم أخذ سيفه وأدخله في أعلى بطنه، غير أن الجرح الذي بيده أضعف الطعنة. فسقط من فوق فراشه، وأثناء سقوطه قلب شيئا أحدث ضجيجا. فصاح العبيد الذين كانوا عند الباب، فتسارع ابنه وأصدقاؤه إلى الحجرة. وردّ له أحد الأطباء أحشاءه إلى جوفه، وهمّ أن يخيط الجرح، لكن كاتون تنبه من غيبوبته ومنعه من ذلك، وأعاد فتح جرحه ولفظ نفسه.

وذاع الخبر بسرعة، فأقبل الجميع مسرعين، من أعضاء مجلس «الثلاثمائة»، وغيرهم من الرومانيين، وحكام اوتيكا وسكانها. وجرت له جنازة فخمة (بسبب الفضل الخاص الذي امتاز به كثيرا عن غيره من

رؤساء حزبه، كما يقول صاحب «حرب إفريقيا»[94]. ثم دفن على الساحل، وأقيم على قبره من بعد تمثال يمثله ممسكا بسيف. فأكسبت هذه الميتة من الشهرة لأوتيكا أكثر مما أكسبها ماض تاريخي من عشرة قرون. وصارت الأجيال التالية تعرف كاتون باسم كاتون الأوتيكي Caton d'Utique. وقد اتفق الناس على القول بأنه خرج من الحياة مخرجا مجيدا. وكتب عنه سيسرون ثناء كان له صدى كبير، كما كتب بعده كثير ممن دافعوا عنه.

كان قيْصر يودّ لو قبض على كاتون، فيكون له من الدهاء، لاشك فوق ماله من الحلم، ويصفح عنه. ولما علم بخبر هذا الانتحار وهو يسرع السير إلى أوتيكا، يقال إنه صاح : «إني أحسد موتك ياكاتون، لأنك منعتني من إنقاذ حياتك». وهي كلمات يلوح عليها أنها اختلقت بعد الحادث، وأنها ربما تعبر عن شعور صادق. وعلى كل حال فإن الدكتاتور عفا عن ابن كاتون، وترك له ثروة أبيه. ومع ذلك، فإن الامتعاض الشديد بدا عليه حينما ظهر بعد بضعة شهور الثناء الذي كتبه سيسرون. فكلّف - وهو بأسبانيا يحارب آخر اليومْپيين - مساعده هيرْتيوس Hirtius أن يكتب جوابا أوليا، ثم كتب بنفسه نقيضة شديدة جدا في كتابين. ولكنه لم ينجح في تلطيخ سمعة عدوّه الذي لا يقهر، حتى أن فِرْجيل Virgile، وهوراس Horace وسِنيكا Sénèque، ولوكانوس Lucain، وكثيرا غيرهم سيحيّون في كاتون الرجلَ المستقيم الذي عاش ومات دون وهن.

3

بعد موت كاتون دعا لوكْيوس قَيْصر الشعب ونصحه أن يفتح جميع أبواب المدينة، فقد كانت له – كما قال – ثقة كبيرة في عفو قيْصر، ثم

ذهب لمقابلة الدكتاتور. لكن ميصالا Messala عجل بالوصول (يوم 13 أبريل ؟) ومعه الخيالة. فوجد الأبواب مفتوحة، فجعل بها الحرس.

وكان قيْصر قد تبعه في سير سريع. وفي الطريق استولى على أوزيتا التي كانت بها حامية صغيرة، وكانت مزودة جدا بالقمح والأسلحة. ودخل إلى هَدْروميت دون حرب، وعفا بها عن ابن كُنْسيدْيوس وعن المساعد القديم لكنسيديوس وهو : ك. ليگارْيوس Q. Ligarius. وهنا وجد أيضا القمح والأسلحة، كما وجد مقادير كبيرة من المال. وبعد أن ترك بهذه المدينة أحد الفيالق، غادرها في نفس اليوم متوجها نحو أوتيكا. ولما تقدم إليه لوكيوس قيْصر، ارتمى على قدميه، ولم يطلب سوى الحياة. فوهبها له قيْصر، كما وهبها لبعض أعضاء مجلس الشيوخ ولأبناء الشيوخ الذين لم يذهبوا. ثم وصل أمام أوتيكا عند نزول الظلام (يوم 15 أبريل ؟)، ولم يدخلها إلا في صباح الغد.

وفي اجتماع دعا إليه، شكر قيْصر أهل المدينة على ميلهم إليه، ووبخ رجال الأعمال الرومانيين، وعلى الأخص «الثلاثمائة»، على العون المالي الذي أسدوه لفاروس Varus وسيپْيون Scipion. ومع ذلك أنهى كلامه بأن صرح لهم بأنه يستبقيهم على الحياة. وقال : إنه قرر بيع قسم من ممتلكاتهم، ولكنه يأذن لهم بشرائه من جديد إن استطاعوا. فطلب منه «الثلاثمائة»، الذين كانوا يخافون أشد العقاب، أن يعيّن لهم قدرا إجماليا من المال يؤدونه بالتكافل فيما بينهم. فحدد القدر في 200 مليون من السيسْتيرْس تؤدّى على ستة أقساط وفي مدة ثلاث سنين. وقيل : إنهم شكروه جميعا بحرارة[95]

وعلى غرار أوتيكا سقطت إفريقيا الرومانية في يد قاهر ثابْسوس. أما كُنْسيدْيوس الذي كان مستوليا على ثيسْدروس ومعه المجالدون

والجيتوليون، فإنه تخلى عن المدينة حين علم بالكارثة التي حلت بأصحابه، وباقتراب فيلقين قيْصريين منه، واتجه نحو مملكة نوميديا. ولكن بعض الجيتوليين الذين كانوا يصاحبونه، قتلوه ليستولوا على الأموال التي كان يحملها. أما فِرْجيلْيوس الذي كان في ثابسوس قد رفض الاستسلام لقيْصر، فإنه حوصر براً وبحراً، ورضي بالاستسلام بعدما علم بانتحار كاتون وفرار أو موت القادة الجمهوريين الآخرين، وبعدما علم كذلك باندحار سابورا Saburra، وضائقة يوبا، وبدخول الدكتاتور إلى أوتيكا. فأعطى الوعد بالإبقاء عليه وعلى أبنائه.

استسلمت لقيْصر جميع المدن الأخرى بالولاية دون مقاومة. وأراد أن يحتفل الناس بعفوه احتفالهم بانتصاره، فأحرق – على ما قيل – جميع المكتوبات التي وقع العثور عليها بالصناديق السرية لسيپْيون، من غير أن يقرأ تلك المكتوبات، اما الشيوخ الذين ساءت سمعتهم جدا، فقد منعوا من إيطاليا وحجزت ممتلكاتهم. ويظهر أن أحدا منهم لم يقع إعدامه، لصدور أمر صارم من قيْصر بذلك.

أما لوكيوس قيْصر، الذي أبدى في مناسبات مختلفة كرها شديدا للدكتاتور، وكان هذا الأخير قد استبقاه على الحياة، فإنه اختفى في ظروف غامضة. ويظهر أن الدكتاتور كان قرر أن يحاكمه، ثم قرر إعدامه سرا على ما يحتمل، خشية أن يكون ملزما بالحكم عليه. وحينما ذاع خبر موته، لم يشك بعض الناس في أن الدكتاتور هو المسؤول عن موته، بينما اعتقد الآخرون – أو أظهروا الاعتقاد – بأنه لم يأمر بذلك.

ونذكر أن فوسْتوس سولا، وأفْرانْيوس كانا قد انضما إلى الخيالة الذين غادروا أوتيكا للتوجه إلى نوميديا، ومنها إلى أسبانيا عن طريق موريطانيا. ولكن الصدفة دفعت بهم في طريق سيتْيوس الذي كان في

طريقه إلى قيْصر. فنصب لهم سيتيوس كمينا وُفّق فيه كل التوفيق، إذ قتل أو أسر جميع الخيالة تقريبا. وبعد بضعة أيام قدم سيتيوس إلى قيْصر كلا من فوستوس وأفرانيوس، فقتلهما الجنود في فتنة حدثت، كما يقول مؤلف «حرب إفريقيا»[96]. فهل كانت لقيْصر يد في هذا الإعدام السريع ؟ إنه – على كل – لم يلحق أيَّ أذًى بِبُومْبِيَا Pompéia زوجة فوسْتوس، ولا بأبنائه، كما أنه ترك لهم ثروتهم.

وكان سيپْيون بعد معركة ثابسوس قد استطاع الإبحار، وحاول أن يلتحق بأسبانيا بحرا مع البعض من أعضاء مجلس الشيوخ. وكان معه اثنتا عشرة سفينة منها المسلح وغير المسلح. ولكن إعصارا بحريا أرغمه على الالتجاء لميناء هيبون Hippone، حيث أسعفه الحظ فوجد أسطول سيتيوس. فأحاط الأسطول بسفنه وأغرقها، ومات سيتيون هو ورفقاؤه. وقبل موته نطق بكلمة تليق بروماني شهم. ذلك أنه ضرب نفسه بسيفه عندما رأى الأعداء يقتحمون سفينته، ولما سألوه وهم يجهلون من هو : أين الإمبراطور ؟ أجابهم قائلا : «إن الإمبراطور على أحسن حال». ثم رمى بنفسه في البحر.

على أن آخرين غيره واتاهم الحظ فبلغوا إلى إسبانيا، حيث عاودوا الحرب مع كْنايوس پومْپي Gnaeus Pompée، وهم سيكْستوس پومْپي Sextus Pompée ولابْيينوس Labiénus، وأتْيوس فاروس Attius Varrus الذي استطاع أن ينجي أسطوله.

أما يوبا الذي كان معه بِتْرِيوس، فإنه اختفى بعض الوقت في بعض المزارع، ثم أخذ يسير بالليل حتى وصل أمام عاصمته زاما Zama حيث كان قد ترك زوجاته وأبناءه ومقادير كبيرة من المال. ولكن السكان الذين

كانوا على علم باندحاره منعوه من الدخول، لأنه عند ذهابه للمعركة قد جمع أكواما من الحطب وسط الساحة العمومية وقال : إنه إذا اندحر فسيحرق كل ثرواته وجميع أهل المدينة، وأخيرا يحرق نفسه وأهله. فيظهر أن الطاغية الإفريقي كان يذكر أن بعض ملوك الشرق العظماء كانوا قد أرادوا أن ينهوا حياتهم بهذه الطريقة المتعالية. لكن أهل زاما لم يكونوا يكترثون للدور الذي يهيئه يوبا لهم.

وانتظر كثيرا عند الأبواب، من غير أن يكون لتهديداته ولا لرجائه أي جدوى. وأخيرا طلب أن يعاد له زوجاته وأبناؤه ليذهب بهم، ولكنه لم ينل أي جواب. فابتعد عن المدينة، وذهب إلى إحدى ضياعه مع بِتْرِيوس وبعض الخيالة.

ولم تظهر واحدة من مدنه الأخرى أي استعداد لاقتباله. فقرر، وقرر بتريوس أيضا أن وقت الموت قد حان. وتروي القصة أنهما طلقا الحياة بعد عشاء فخم. لكن الاحتمال قليل في أن يكونا قد استطاعا أن يتمتعا في المكان الذي كانا به هذه المتعة الفاخرة. ولكن لاشك أيضا أنهما قررا أن يتواجها في مبارزة بينهما وأن يقتل أحدهما الآخر. وفي عهد سولا Sylla كان مَرْيوس الصغير Marius le Jeune وبونْتيوس تلسينوس Pontius Télésinus قد اختارا على ما قيل هذه الطريقة الانتحارية. وتختلف الروايات في ذكر الطريقة التي جرت بها الأحداث بالنسبة ليوبا وبتريوس. وحسب الصيغة الراجحة، فإن أحدهما – لا ندري هل الروماني أو النوميدي – قد قتل دون مشقة الآخر الذي كان أقل منه قوة. أما الثاني الذي بقي حيا، فإنه حاول أن يطعن نفسه بسيفه، فلما لم يوفّق في عمله، أمر أحد العبيد أن يقتله، فوافق العبد على أن يقوم بذلك.

بعد أن رفض أهل زاما قبول ملكهم بالمدينة بعثوا على عجل إلى قيْصر يخبرونه بذلك، ويرجونه أن يبعث إليهم بالنجدة، لأنهم كانوا يخشون أن يهاجمهم يوبا. فشكر الدكتاتور الموفدين، وطلب منهم أن يعودوا لمدينتهم، وأن يخبروا بقدومه القريب إليها. وفي الغد خرج من أوتيكا مع خيالته. وأثناء مسيره كان القادة والجنود من الجيش الملكي يفدون عليه ويطلبون عفوه، وكان هو يصفح عنهم. حتى إذا بلغ العاصمة النوميدية تقدم إليه جميع فرسان الملك، واثقين من عفوه.

فكافأ سكان زاما على سلوكهم تجاه يوبا. وباع في المزاد العمومي ممتلكات هذا الأمير وكذلك ممتلكات المواطنين الرومانيين الساكنين بالمدينة، الذين حملوا السلاح ضده. ثم حول المملكة إلى ولاية ترك بها سالوسْت برتبة بروقنصل[97].

وعاد إلى أوتيكا، وبها أيضا اتخذ القرارات ضد بعض الأشخاص أو المدن التي كانت قد انحازت لجانب أعدائه. وهذه القرارات هي حجز الممتلكات، والغرامات المالية. فألزمت ثابسوس وهَدْروميت - وكلتاهما مدينة طلق - بأداء مليونين وثلاثة ملايين من السيسْتيرس، كما أدت جماعة المواطنين الرومانيين المقيمين بكل واحدة من المدينتين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين. وفرض على ثيسْدروس - وهي مدينة ذات أهمية قليلة - غرامة كانت عبارة عن مقدار من القمح. أما مدينة لبتيس التي بين خليجي سدرة، فقد جرها أشخاص من ذوي النفوذ إلى أن حالفت يوبا عدوها القديم، وزودته بالأسلحة والأموال والجنود، فعاقبها قيْصر عقابا قاسيا، فألزمها أن تؤدي ثلاثة ملايين لبرا (Litra : libra) من الزيت في السنة[98].

وهكذا، فإن قيْصر سوى المسائل المستعجلة بنشاطه المعهود، ثم ركب البحر يوم 13 يونيو (أي يوم 15 أبريل من التقويم المعدل). فوصل

إلى رومة يوم 25 يوليوز، لأنه توقف في سردانية، ولأنه حدث له تأخير بسبب هيجان البحر من بعد.

وفي الشهر الموالي أقام أربعة من مواكب التمجيد احتفالا بانتصاراته في بلاد الغال، ومصر، والبونت، وأفريقيا. ويقال أنه عرض أثناء احتفاله الإفريقي مشاهد تمثل موت سيپْيون، وموت بيتريوس وكاتون، وأن كثيرا من المتفرجين فكروا أنه كان أحرى به أن لا يذكرهم بهذه المشاهد المحزنة لحرب قتل فيها الأخوة بعضهم بعضا.

ومن الوجهة الرسمية، فإن اندحار يوبا الملك «الباربار»، هو الذي خول التمجيد العظيم لقيْصر في هذا اليوم. فكان يسير أمام عربته ابن يوبا، أي الطفل الذي سيصبح بعد عشرين سنة، وبفضل أوغسطس، ملكا بإفريقيا. كما ان أوغسطس نفسه – واسمه حينئذ، ك. أكْتافيوس C. Octavius وسنه أقل من سبع عشرة سنة – قد كان هناك خلف عربة عمه الكبير. فقد سبق له أن طلب حضور الحرب، ولكن أمه آتيا Atia وقيْصر عارضا في ذلك بسبب صغر سنه وصحته الضعيفة، ومع ذلك قبل قيْصر حضوره في موكب انتصاره الإفريقي، بل خوله بهذه المناسبة مكافآت عسكرية، كما لو كان أُكْتاف Octave قد شارك في الحملة المنتصرة.

وكانت مساهمة إفريقيا بمناسبة هذه الأعياد مساهمة واسعة، بحيث إن الأطباق التي حملت عليها الغنائم بالموكب الرابع قد كانت من عاج، وفي الموكب الأول كانت من عود العرعر. وفي الألعاب التي عقبت ذلك ظهرت في الملعب مآت من الأسود وأربعون من الفيلة، وظهرت حتى الزرافات. وأمكن لقيْصر أن يفتخر أنه بانتصاره الإفريقي حصل للشعب الروماني على أتاوة سنوية من 1 200.000 بْواصو من القمح، وثلاثة ملايين لِبرا من الزيت.

الكتـاب الأول

يوليوس قيْصر وأفريقيا

الفصل الخامس

تسوية مسائل إفريقيا

1

نتج عن انتصار قيصر تغيرات سياسية وترابية مهمة في الشمال الإفريقي. فالملك الموري بوكوس كان للدكتاتور حليفا مفيدا جدا: ولما مات مسِنيسّا الذي كانت أراضيه تمتد من سيرتا إلى موريطانيا[99]، ومات كذَلك يوبا الذي شاركه مسِنيسّا في نفس المصير، فرّ أرَبْيون Arabion ابن مسِنيسّا إلى أسبانيا مع القادة الجمهوريين الذين استطاعوا الفرار إليها، فنال بوكوس قسما من هذه المملكة الفارغة من الحكم ووسع بذلك نحو الشرق حدود مملكته، وإن كنا نحن نجهل هذه الحدود : ويحتمل جدا أن تكون حدوده الجديدة قد أثبتت على البحر الأبيض المتوسط عند مصب نهر أمبساگا Ampsaga أي الوادي الكبير بالشمال الغربي لقُسّنطينة. وهي التي كانت فيما بعد حدا شرقيا لمملكة يوبا الثاني الذي وهبه اوغسطس أراضي بوكوس، كما كانت حدا لولاية

موريطانيا القيْصرية الرومانية التي كانت تنطبق – كما قال پْلين الشيخ Pline l'Ancien [100] – على مملكة بوكوس. وسنرى من بعد أن بوكوس جرده أرَبْيون سنة 44 مما استولى عليه. ولكن المعتقد انه استعاد كل تلك الأراضي سنة 40، بعد موت أربْيون بن مسِنيسّا، فَنهرُ أمبساگا إذن، لابد أنه كان حدا لمملكة بوكوس منذ سنَة 46، مثلما كان في السنين الأخيرة لملكه.

أما بوگود Bogud ملك موريطانيا الغربية، فإنه كان أيضا حليفا لقيْصر، غير أنه لم يتدخل في حرب إفريقيا. لكن عندما ذهب الدكتاتور بعد بضعة أشهر ليحارب اليومْپيين بأسبانيا، انضم إليه بوگود بجيوش عديدة. وفي يوم معركة مونْدا Munda انقض على معسكر الأعداء، فأرغم لابيينوس بعمله هذا على التخلي عن ميدان المعركة للدفاع عن المعسكر. وذلك هو ما ضمن انتصار قيْصر.

بالرغم عما قاله دِيون كاسْيوس[101] فإنه لا محل للقول بأن بوكوس كان قد بعث أبناءه لجيش گايوس پومْپي. فمثل هذا العمل العاق لقيْصر يكون من قبيل الجنون، ولابد أن يضيع به بوكوس مملكته. وقد وقع ديون كاسْيوس في الخلط. لأن أرَبْيون عدوّ بوكوس هو الذي كان في جانب اليومْپيين. أما أبناء بوكوس، إذا كانوا حقيقة قد ذهبوا لأسبانيا، فلابد أنهم جعلوا نفسهم تحت إمرة الدكتاتور، مثلما فعل بوگود.

وهب قيْصر لسيتيوس ما تبقى من مملكة مسِنيسّا (مَسْتنيزن) [102]، كما وهبه زيادة على ذلك القسم الغربي من مملكة يوبا، مع مدينة سرتا (قسنطينة) العاصمة النومدية العتيقة. وكان ذلك مكافأة له على الخدمات التي قدمها، كما كان وسيلة لإبعاد مملكة موريطانيا عن الجوار المباشر للولاية التي أحدثت في نوميديا الشرقية. فالوثوق بالمغامر الإيطالي كان

أكثر منه بأمير إفريقي. فأسكن سيتيوس رفقاءه في السلاح، الذين كانوا يُدعون باسم السِّتْياني Sittiani، في هذه المنطقة الشاسعة التي كانت تمتد على البحر الأبيض المتوسط من مصب نهر أمبساگا إلى مكان يقع بين روسيكاد Ruscade أي فيليبفيل Philippeville وَهِپون Hippone التي كانت تتصل من جهة الداخل بأرض الجيتوليين على مسافة تبعد عن الساحل بنحو مائة كيلومتر.

فكانت دولة حقيقية، حيث إن متأمرها المحظوظ كان سيّداً عليها، ويزاول بها اختصاصات كادت تكون ملكية، وظهرت صورته على العملة التي ضربت في سِرْتا. ولا يظهر أن أراضي سيتيوس، كانت في أول الأمر، جزءا من ولاية إفريقيا الجديدة Africa nova التي أحدثت سنة 46 في غرب الولاية القديمة، والتي كان سالوست أول حاكم لها. وقد سبق أن رأينا أن مؤرخ يوغرطة لم يكن يعرف مدينة سرتا. بل بعد ذلك أيضا تميزت أراضي السِّتْياني من بعض الوجوه عن بقية أفريكا، التي وقع ضم الأولى إليها: ففي بداية عهد الإمبراطورية لم تدخل أراضي السِّتْياني ضمن العملية الواسعة للمسح، التي شملت المنطقة التي ضمها قيْصر لرومة. وحتى القرن الثالث كان اتحاد المستعمرات السِّرْتية الأربع يحافظ على نظام إداري، يضمن للاتحاد وحدته، ويكوّن استثناء في النظام البلدي الروماني.

ومع ذلك فإن سرتا وأراضي سيتيوس قد ضُمّت من وقت مبكر إلى الولاية المجاورة. وربما ضمت منذ موت ستيوس سنة 44 ق.م إلى إفريقيا الجديدة أولاً، ثم إلى ولاية أفريكا، عندما انضمت الولايتان الجديدة والقديمة بعد بضع سنين، وكوّنتا ولاية واحدة. وعلى نهر أمْبساگا - الذي هو الحد الغربي لأراضي السِّتْياني - جعل

بومبونيوس مِيلاَ Pomponius Mela [103] الحد الغربي لأفريكا، ناقلا ذلك عن مكتوب متأخر بقليل عن سنة 44 ق.م. ومثل ذلك يقال عن وثيقة إدارية من عهد أوغسطين نقلها پْلين الشيخ Pline l'Ancien. وهذا الحد الرسمي لأفريكا هو ما ذكره بْطُلِمي أيضا[104]. وفي خريطة أَكْريبا Agrippa التي كتبت قبل الميلاد بسنين قليلة، كان نهر أمْبساكا يكوّن الحد بين موريطانيا وأرض الجيتوليين Gaetulia من جهة، وبين نوميديا وأفريكا من جهة أخرى. وكانت نوميديا تشمل في آن معاً منطقة سِرْتا والقسم من مملكة يوبا الذي صيّره قيْصر ولاية. أما أفريكا فهي الولاية التي أحدثت بهذا الأسم سنة 146 ق.م.

وفي العهد الإمبراطوري كان يوجد بالمنطقة التي حازها سيتيوس من قيْصر أربع مستعمرات. هي مستعمرة سِرْتا Cirta، ومستعمرة روسيكاد Rusicade، ومستعمرة شولو Chullu، ومستعمرة ميليڤ Milev [105].

فالأولى دعاها بومْبونْيوس مِيلاَ باسم المستعمرة السِّتْيانية Sittianorum، وقد نقل ذلك عن كاتب، ذكرنا من قبل، أنه كتب بعد موت قيْصر بزمن قليل. لكن إذا كانت منطقة سِرْتا، بين 46 و44 ق.م، ملكا لسيتْيوس، بحيث لم تكن جزءا من أية ولاية، فإنه يصعب على ما يظهر، قبول كون مستعمرة رومانية استطاعت أن تتأسس بها، وأن جمهورية من المواطنين استطاعت أن تجد لنفسها مكانا في دولة ملكية. فلربما أن هذه المستعمرة لم تتكون إلا بعد وفاة سيتيوس التي حدثت ببضعة أسابيع بعد موت قيْصر. وبالطبع كان المستعمرون المستوطنون هم السِّتْياني المقيمون بالمدينة وأحوازها. ويحتمل أن حق المواطنية الرومانية قد أُعْطِيَ لمن لم يكونوا من بينهم قد حصلوا عليه من قبل.

ومن قبيل الذكرى للدكتاتور على ما يحتمل دعيت المستعمرة باسم اليوليوسية - من اسمه يوليوس - وأضيف له لقب الستّيانية.

أما المستعمرات الثلاثة الأخرى، فلا نعرف لها ذكرى قبل عهد تْراجان Trajan. وحتى بْطُلِمي الذي يظهر أنه اعتمد فيما يتعلق بإفريقيا على وثائق معاصرة لهذا الأمير، فإنه لم يضف اسم مستعمرة إلى أسماء كل من روسيكاد، وشولو، وميليف. أما پْلين - وربما اعتمد في ذلك على مصدر قديم - فإنه يصف شولو، وروسيكاد لا بكونهما مستعمرتين، بل اكتفى بكونهما مَعْقلين Oppida. ومع ذلك فإن الألقاب التي تحملها هذه المستعمرات تساعد على الفرض بأنها تأسست قبل العهد الإمبراطوري، ولو تأسست في عهد أوغُسْطس ومن أتى بعده لما أمكن السكوت في تسميتها الرسمية عن التذكير باسم الأمير الذي قرر تأسيسها. وكذلك، فإن المؤكد من ناحية أخرى، أن الوصف بكلمة سَرْنية Sarnensis مشتق من سَرْنوس sarnus وهو اسم النهر الذي يروي مدينة نوكيرْيا Nuceria مسقط رأس سيتيوس بمقاطعة كَمْبانيا. وليس من المستحيل أن توحي كلمتا Vénéria وMinervia بذكريات عن كمبانيا مثل ڤينوس پومْپي Vénus de Pompéi ومُرتفع منِرْڤا الذي هو نهاية شبه جزيرة سورانْت Sorrente. وبهذا يمكن إذن أن تكون لهذه الأسماء علاقة متينة بوطن سيتيوس وبعض رفقائه. ولكن هل يحتمل أن تكون هذه الأسماء أعطيت لميليف، وروسيكاد، وشولو بعد حلول سيتيوس والستياني بزمن طويل في نوميديا ؟ نحن نميل - رغما عن فقدان الحجج - إلى الاعتقاد بأن هذه المستعمرات معاصرة لسِرْتا، لأن الاتساع الكبير لمنطقة أصحاب سيتيوس كان يفرض تأسيس عدة مراكز رسمية، يستطيع فيها المواطنون الرومانيون تدبير القضايا التي

توجب حضورهم. وهكذا فالمستعمرات التي وقع تأسيسها، تأسست بالقرب من ثلاث مدن عتيقة حافظت دون شك على قانونها البلدي، حتى كان اليوم الذي ذابت فيه المدينة البونيقية أو النوميدية في المدينة الرومانية. وفي العهد الإمبراطوري لم يكن هناك سوى هيئة واحدة لعلاة الموظفين، كما لم يكن هناك سوى مجلس بلدي واحد لمجموع المستعمرات الأربع. وكان الموظفون العلاة يقيمون بسيرْتا، وبها كان المجلس يجتمع، بينما المستعمرات الأخرى كان بها ولاة يزاولون بالتوكيل سلطة المسؤولين العلاة في هذا الاتحاد للمستعمرات الأربع، ولابد ان الأمر كان على هذا المنوال منذ العهد الذي ولدت فيه المستعمرات الأربع.

2

في زاما Zama عاصمة يوبا قرر قيْصر إلغاء مملكة نوميديا. لأن المثل الذي أعطاه يوغرطة ثم يوبا أوضح أن هناك خطرا في أن يُبقي، قرب ولاية إفريقيا الصغيرة، على مَلك قوي مستعد للإفلات من رقبة الجمهورية، ولأن يقوم بدور مهم في الخصومات بين الرومانيين، وأن ينال غاليا ثمن حمايته المزرية.

وهكذا أحدث ولاية جديدة سميت باسم «إفريقيا الجديدة» Africa Nova، بينما أطلق اسم «إفريقيا القديمة» Africa Vetus على الولاية التي أحدثت قبل ذلك بقرن من الزمن. وقد أدمجت الولايتان في بعضهما بعد ذلك بقليل، ومع ذلك فإن هذين الاسمين لم يهملا تماما. ولم يكن اسم إفريقيا الداخلية Africa Interior (وربما إفريقيا السفلى Africa inferior)

اسما رسميا. أما في الاستعمال العادي فكان الناس يستخدمون اسم نوميديا Numidia. وذلك لأن الولاية الجديدة حلت محل المملكة النوميدية.

كان حد «إفريقيا الجديدة» من ناحية الشرق مسطورا، هو خندق سيپْيون أي «الحفير الملكي» Fossa Regia الذي تنتهي عنده الولاية القديمة من نهر توسْكا Tusca أي الوادي الكبير قرب طَبَرْقة Tabarca إلى مدخل سدْرة الصغرى قرب مدينة ثيناي Thaenae. أما من الناحية المقابلة، فإن الولاية الجديدة كانت مفصولة عن منطقة سيتْيوس بخط كان يمر غرب هيپون Hippone، وغرب وجنوب غرب كَلاما (گَلْمَة). ونجهل إلى أين كان الخط يصل جنوبا، بين أقصى الجنوب الشرقي لمنطقة سيتيوس وسدْرة الصغرى. فلعل الحد من هنا لم يوضح بالتدقيق. وبالفعل، فإن الجيتوليين الرحّل الذين كانوا يعيشون في السهول بالجنوب الشرقي للجزائر وبجنوب تونس قد مكثوا في شبه استقلال.

ونعلم ان الملوك النوميديين كانوا سادة لساحل سدْرَة الصغرى والكبرى، باستثناء منطقة لبْتيس الكبرى، المدينة التي حالفت رومة منذ حرب يوغرطة. وكانت هذه المدينة قد عرضت نفسها لكثير من الخطر بميلها لأعداء قيْصر، الذي فرض عليها غرامة فادحة لما انتهت الحرب. وليس من الممكن أن يكون قد ترك لها استقلالها الكامل. أما ممتلكات يوبا بهذه السواحل، فلابد أنها نالت حظها مما أصاب المملكة. ويجب إذن ان نستنتج من هذا أن السواحل وقع ضمها لإفريقيا الجديدة. لكن يدفعنا إلى التردد في قبول هذا، الخطأُ الكبيرُ الذي ارتكبه سالوست فيما يتعلق بأضرحة فيلين Autels de Philènes [106]، التي جعلها بغرب لبتيس، لا بداخل سدرة الكبرى كما هو الأليق. وعلى هذا، فإذا كانت

«إفريقيا الجديدة» قد امتدت حتى الأضرحة التي تصير لها حدا، فكيف يمكن لسالوست، وهو حاكم الولاية، أن يجهل ذلك ؟

ويمكن أن نتساءل : هل ناحية سدْرَة لم يقع ضمها إلى «إفريقيا القديمة» ؟ إن الكاتب الذي ينقل عنه بومْبونيوس مِيلاَ يذكر أن أفريكا Africa تمتد من مرتفع ميتاگونْيوم Métagonium (وهو مصبّ أمْبساگا بالضبط) إلى أضرحة فيلين، وهو يعني بلفظ أفريكا المجموعة المتكونة من «إفريقيا القديمة» و«إفريقيا الجديدة»، اللتين ربما كانتا حين كتابته قد انضمتا في ولاية واحدة. فهذا النص إذن لا يبدد ارتيابنا، ولكنه يسوغ لنا على الأقل الاعتقاد بأن ساحل السدْرَتَيْن قد كان، بعد موت قيْصر بقليل، جزءا من ولاية دعيت باسم أفريكا. فإذا كان خطأ سالوست يمنعها من قبول انضمامه سنة 46 ق.م إلى إفريقيا الجديدة، فلابد أن يكون الدكتاتور قد ضمه إلى إفريقيا القديمة.

والحقيقة أن خريطة أگْريبا Agrippa تذكر أن الحد بين سرَنيكا وأفْريكا كان عند المدخل الشمالي لسدْرَة الصغرى، في المكان الذي يصل فيه للبحر الحفيرُ المكوّن لحد ولاية «إفريقيا القديمة». فيظهر إذن أن منطقة سدرة، قد ضُمت بعد انتصار قيْصر إما إلى ولاية إفريقيا الجديدة، وإما إلى إفريقيا القديمة. وهذا هو الأرجح، ثم لا ندري متى ولماذا اتبعت ولاية سرنيكا في عهد أوغسطس مدة كادت تطول. غير أن المؤكد هو أنها قد أعيد ضمها لأفريكا، لأفريكا الموحدة، قبل موت هذا الأمير. ولعل ذلك حدث حوالي سنة 6 للميلاد. وكان هذا الانضمام بصفة نهائية، وعادت أضرحة فيلين لما كانت عليه طيلة قرون، أي عادت حداً غربياً لسيرنيكا. وفوق ذلك، لم يكن من المعقول أن يضم جنوب تونس

لنَجْد بَرْقَة، كما لم يكن من الضروري ربطه بطرابلس. وقد فهم الحاكم الروماني ذلك، وأقلع عن خطأ نعتقد أنه ليس راجعا لقيْصر.

ونجهل أين كانت عاصمة «إفريقيا الجديدة»، ولربما كانت هي زاما Zama أو ثوگا Thugga. وفي سنة 43 ق.م كان بالولاية ثلاثة فيالق من قدماء المحاربين، وكانت قد عملت تحت إمرة قيْصر، الذي يظهر أنه خلفها هناك سنة 46 ق.م. وكان لابد من وجود جيش قوي مثل هذا لحفظ الأمن بين النوميديين، ولتلافي أعمال السلب من جانب الجيتوليين.

ومن الطبيعي، فإن الضرائب التي كان يوبا يجبيها من رعاياه قد وقع الاحتفاظ بها. ويظهر أن الدكتاتور نفسه قد باعها أثناء إقامته القصيرة في زاما. ولسنا ندري هل المقدار المحدد في 1200.000 بْواصو من القمح الذي أفاده الفتح سنويا للشعب الروماني، يمثل ضرائب أو يمثل مداخيل المزارع الملكية القديمة، وبقدر ما نستطيع الحكم على الأشياء، فإن الأهالي لم يستفيدوا أي شيء من تغيير سادتهم. وهذا سالوست ارتكب، أثناء السنة التي حكم فيها، أسوأ أعمال الابتزاز، وعوضاً من أن يعاقبه قيْصر على ذلك، فإنه منع ضحاياه من متابعته أمام العدالة. بل ادّعى البعض أن قيْصر أخذ من المجرم مقدارا طائلا من المال، مكافأة له على تدخله الناجح.

لاشك أن الملوك كانوا يملكون ممتلكات عقارية واسعة جدا، ولابد أن هذه الممتلكات قد وقع حجزها بعد اندحار يوبا. فالاستيلاء على نوميديا إذن، كان من شأنه أن ملّك للشعب الروماني مِلْكا عقاريا واسعا، يظهر أنه قد وقع تفويته من بعد. وبهذا تكونت على ما يحتمل ولفائدة أعضاء مجلس الشيوخ وطائفة الفرسان[107]، هذه «اللاّتيفونْديات» Latifundia [108] التي سنجدها في العهد الإمبراطوري في المنطقة التي

صيّرها قيْصر ولاية «إفريقيا الجديدة». وربما أن النظام المتعلق باستثمار أملاك الدولة، المسمى بقانون مانْسيانا Lex Manciana، قد كتب عند بيع الدولة لهذه الأراضي. وسندرس فيما بعد هذه الوثيقة المهمة.

وبمجرد ما انتهت الفتوح، هل وُزِّع قسم من الأراضي المحجوزة في قطع صغيرة على بعض المواطنين، كقدماء المحاربين أو غيرهم، بقصد توطين العدد من الرومانيين في نوميديا ؟ ليس لدينا حجة على ذلك. لكن نلاحظ أن موسطة تونس كان يوجد بها في العهد الإمبراطوري جماعات من المواطنين الرومانيين، مُلاّكاً عقاريين. وكانت هذه الجماعات تابعة لمستعمرة قرطاجة. غير أن هذا النظام لا يمكن أن يرجع إلى عهد كانت فيه موسطة تونس وقرطاجة، التي عادت للحياة سنة 44 ق.م، تابعتين لولايتين مختلفتين، هما إفريقيا الجديدة وإفريقيا القديمة.

فإذا كان يوليوس قيْصر هو الذي أحدث بعض المستعمرات في نوميديا، فإنها حملت اسم اليوليوسية Julia تعظيما لمؤسسها. ولكن أوغسطس Auguste، وتيبير Tibère وكليگولا Caligula كانوا بعد قيْصر جميعا من آل يوليوس Julii، إذن فلربما كان مولد المستعمرات اليوليوسية على يد واحد من هؤلاء الأمراء، لا على يد قيْصر. ونضيف أن مستعمرة وصفت بأنها يوليوسية، ولم يكن مؤسسها حتماً واحدا من آل يوليوس، وإنما تحولت إلى مستعمرة بعد أن كانت جماعة مشاركة يوليوسية Municipium Julium [109] أسسها شخص اسمه يوليوس وحافظت على اسمه.

وبالمنطقة التي صارت في سنة 46 ق.م تحمل اسم ولاية «إفريقيا الجديدة»، نعرف أربع مستعمرات يوليوسية Coloniae Juliae في العهد

الإمبراطوري، وذلك في جهات أقيمت بها منذ زمن بعيد مدن نوميدية أو فينيقية : أي في سكّا Sicca، وأسوراس Assuras ، وسميثو Simitthu، وطَبَرَقَة Thabraca. فإما بالنسبة لإحداها، وهي التي عُرفت باسم : المستعمرة اليولْيوسية الڤينورية سيرْتا الجديدة سكّا Colonia Julia veneria Cirta Nova Sicca فإن نقشا يبرهن على أن أوغسطس قد أسسها، الأمر الذي يؤكد ما أشار له پْلين الشيخ.

والمستعمرة اليوليوسية الأسوراسية Colonia Julia Assuritana فإنها كانت موجودة في بداية عهد تيبير Tibère حوالي 16-18 ميلادية. ولا يظهر أنها تأسست بين التاريخ الذي تلقب فيه أوكتاف Octave بلقب أوغسطس Auguste وهو 27 ق.م، وبين وفاة هذا الإمبراطور، إذ لو حدث ذلك لوصفت بأنها أوغسطوسية Augusta أو بأنها يوليوسية أوغسطوسية Julia Augusta. ولم يقع تأسيسها كذلك على يد أوكتاف قبل سنة 27 ق.م، لأن اسمها لم يرد ذكره في القائمة الرسمية للمستعمرات والجماعات المشاركة وغير ذلك مما أسسه أوكتاف بإفريقيا. وهي القائمة التي حررت في عهده ونقلها پْلين Pline. إذن، فقد يكون تأسيسها وقع إما على يد قيْصر، أو تنفيذا لإرادته، او يكون التأسيس وقع في بداية عهد إمارة تيبير، أي بزمن قليل أو مباشرة قبل تحرير الوثيقة (القائمة) التي عرّفتنا بها، والتي جعلت المستعمرة تحت رعاية حاكم الولاية. ويذكر پْلين مركزا باسم Oppidum Civium Romanorum Absuritanum (110)، وفي ذلك برهان على أن أوغسطس حول مدينة أسوراس الأجنبية Pérégrine (111) إلى جماعة مشاركة رومانية. ويظهر أن المعمرين وقع إرسالهم إلى هذا المكان بعد وفاة أول إمبراطور، وأن الجماعة المشاركة تحولت إلى مستعمرة. وهذا ما لم يكن كلاهما قد عاش بجانب الآخر بعضا من الزمان.

أما مستعمرة V.P (نجهل دلالة هذين الحرفين) اليوليوسية الطَبَرْقية Julia Thabarcenorum والمستعمرة اليوليوسية الأغسطوسية النوميدية السميثوية : Colonia Julia Augusta Numidica Simitthensium، فقد كانتا موجودتين في بداية القرن الثاني. وليس لدينا عنهما معلومات دقيقة ترجع لما قبل ذلك. وفي طَبَرْقَة، وَسِميثو (شِمْتو Chemtou)، كما في أسوراس، لا يتحدث پْلين عن مستعمرة، وإنما يذكر مركزا حصينا للمواطنين الرومانيين Oppidum Civicum Romanorum. إذن فكل منهما جماعة مشاركة يوليوسية، أو يوليوسية أوغسطوسية، تأسست في عهد أوكتاف الملقب بأوغسطس. ويحتمل أن المستعمرة هنا أيضا جاءت متأخرة عن الجماعة المشاركة، لأن مستعمرة سيمِثو، الموصوفة بكونها يوليوسية أوغسطوسية، يرجع تاريخها على ما يحتمل لنهاية عهد أوغسطس، أي لما بعد تحرير القائمة التي نقلها پْلين. أما طَبَرْقَة الموصوفة بكونها يوليوسية فحسب، فإنها قد تكون متأخرة عن عهد إمارة أوغسطس. ومع ذلك، وبالنسبة لمستعمرة طبرقة، فإن افتراض كون تأسيسها وقع قبل عهد أوكتاف أوغسطس، افتراض لا يرفض. وفي هذه الحال تكون مدينة طبرقة الأجنبية (الأهلية) قد عاشت جنبا إلى جنب مع المستعمرة الرومانية، وتكون قد تحولت إلى جماعة (مدينة) مشاركة في عهد أول إمبراطور، ولا تكون قد اندمجت في المستعمرة إلا من بعد.

فنرى المستعمرات اليوليوسية الأربع التي عرفت في نوميديا، قد كان منها اثنتان ترجعان لعهد أوغسطس، بينما إسناد الإثْنَتَيْن الأخريَيْن إلى يوليوس قيْصر أمر مشكوك فيه جدا.

والخلاصة هي أن الدكتاتور لا يظهر بأنه كان له وقت، بل ربما لم يكن يريد أن ينمي الازدهار الاقتصادي بالولاية التي أحدثها، ولا أن ينشر فيها بعملية استعمار واسع اللغة والحضارة اللاتانيتين.

3

تأثرت ولاية «إفريقيا القديمة» من الحرب الأهلية، حتى إن كاتب يوميات حملات قيْصر سرد أعمال العنف والخسائر المادية التي أوقعها اليومْپيون بالأهالي. ومن المؤكد أن الناحية التي جرت بها المعارك الحربية كان بها الجيشان يستوليان على كل ما يستطيعان الاستيلاء عليه. غير أن هذه الناحية – وهي قسم من مقاطعة بيزَسين Byzacène – لم تكن واسعة جدا، ولاشك أن رفيق قيْصر قد بالغ بالنسبة لمجموع الولاية. وكانت بعض السنين من السلام والإدارة السديدة تستطيع أن تصلح الاحوال. لذلك فإن الغالب قد فرض الغرامات على المدن التي سبق أن ناصبته العداء، ولكنه عفا عن الأشخاص وترك لهم ما يملكون.

كان يوجد بالولاية سبع مدن، أعلنت رومة سنة 146 ق.م أنها مدن حرّة. وكان من بينها اثنتان هما هَدْرُميت وثابْسوس قد أظهرتا ميلهما إلى اليومْپيين. فيحتمل أن قيْصر جردهما من وضعيتهما الممتازة في نفس الحين الذي كان يفرض فيه عليهما أداء مقادير كبيرة من المال. ويحتمل أنهما في عهد أوكتاف Octave قد استرجعتا حريتهما، إن لم تكونا قد استعادتا جميع امتيازاتهما السابقة. فقد ورد ذكرهما في جملة المدن الحصينة الحرة Oppida Libera في الوثيقة التي نقلها پْلين، والتي لا تذكر على ما يحتمل سوى القرارات الإدارية التي اتخذها أوكتاف اوغسطس. وفي نفس القائمة يرد ذكر لبتيس التي بمقاطعة بيزَسين

(لَمْطَة) وأشولا موصوفتين كذلك بأنهما Oppida Libera. فتكونان إذن قد استعادتا أيضا قسما من الحرية التي سبق لهما أن نالتاها سنة 146 ق.م، ولكنهما أضاعتاها بعد ذلك، مثلما أضاعتها هَدْروميت وثابسوس. ولكن لا يظهر أن قيْصر هو الذي انتزعها منها، لأن المدينتين انضمتا لجانبه. فلابد أن نفرض أنهما، لسبب نجهله، قد أصيبتا بهذه النكبة أثناء الفتن التي تلت موت الدكتاتور.

هل أحدث قيْصر – كما سيفعل ذلك أوغسطس من بعد – مدنا أهلية حرة، ذات أنظمة بلدية من الطراز البونيقي ؟ إن الأمر ممكن، ولكن لابرهان عليه.

ويظهر أنه لم ينشء أي جماعة (مدينة) مشاركة. حتى إن أوتيكا، المدينة الفينيقية التي كان ميلها إليه غير مشكوك فيه، وإن كانت لم تستطع التعبير بجلاء عن هذا الميل قبل انتصاره، هذه المدينة إذن، لم تتحول إلى جماعة مشاركة يوليوسية إلا بعد موته بثمانية أعوام، على يد أوكتاف.

ولكن الدكتاتور وطّن أو فكر في توطين الكثير من المعمرين في إفريقيا القديمة. فقد قرر بالنسبة لهذه الولاية التي مر عليها قرن، أن الوقت قد حان للقيام بصبغها بالصبغة الرومانية التي أهملتها، بل منعتها الحكومة الأرستقراطية.

ونحن نجهل كيف حصل على الأراضي. ولربما يكون حصل عليها بطريقة الشراء على الخصوص، كما أن ممتلكات البومْبيين المحجوزة، وما بقي من أراضي الملك العمومي قد يكون وقع توزيعه على المعمرين الجدد أو بيع في المزاد ليذر أموالا تخصص لشراء الأراضي.

وقد كان هناك وسيلتان لإسكان المعمِّرين : وذلك بإعطاء الأرض المتهيئة هنا وهناك لأشخاص غير مجمعين في جماعة حرة، وبتأسيس مستعمرة مزودة بالأرض، وتوزع فيها القطع الفلاحية على المواطنين الذين عينوا ليكونوا هذه المستعمرة. ولابد أن قيْصر قد استعمل كلتا الطريقتين. وكان المستفيدون هم المواطنين من الطبقة السفلى الذين جيئَ بهم من إيطاليا، وبعضا من الجنود السابقين. وهكذا نالت إفريقيا حصتها - ولا ندري كم نالت - من 80.000 مواطن بعثهم أو قرر سيّد العالم أن يبعثهم إلى المستعمرات فيما وراء البحار. وقد ذكر دِيون كاسْيوس[112] أن قيْصر قبل مغادرته الولاية للعودة إلى رومة، قد سرح أكبر الجنود سنّاً، حتى لا يخشى من جانبهم ثورة جديدة. فإن كان هذا صحيحا، أمكننا أن نفرض أنّ قسما من هؤلاء المحاربين القدماء، قد أسكنوا بالولاية حيث نالوا سراحهم.

إن أهم المستعمرات القيْصرية بإفريقيا، كانت هي قرطاجة. ويحكي أپْيان Appien ان الدكتاتور كان قد خيّم قرب خرائب المدينة العظيمة، فرأى في منامه جيشا عظيما يبكي، وبمجرد ما استيقظ كتب على لوحاته "عمِّروا قرطاجة". وهذا يشبه الأسطورة إلى حد كبير. لأن قيْصر الذي لاشك انه لم يخيّم أبدا بجوار التربة اللعينة[113]، قد أمكنه الذهاب إليها أثناء مقامه في أوتيكا. لكنه لم يكن بحاجة إلى الأحلام ليفهم أن مدينة عظيمة ستقوم من جديد بهذا الموقع الممتاز بمجرد ما يلغي الحكم الصادر عليها بالإعدام. وكان عليه، وهو وارث الگراكيين Les Gracques، وقاهر النبلاء، أن ينجز المشروع الذي كان كايوس گْراكوس Gracchus قد فكر فيه، لكن أعداء النقيب حالوا دون تحقيقه.

فاتخذ إذن في أواخر حياته الوسائل الضرورية لإعادة قرطاجة إلى الوجود، وذلك على غرار كورانث Corinthe التي هُدّمت معها في نفس الوقت تقريبا. وبرغم أن الموت فاجأه قبل إنجاز قراره، فإن تأسيس قرطاجة الجديدة يعزى له.

وحسب أپْيان Appien، فإن أوكتاف عثر على المشروع بين الوثائق التي خلفها قيْصر. فالتزم به، وبعث إلى قرطاجة 3000 معمِّر روماني. وقد حدث هذا بمائة واثنتين من السنين بعد تهديم المدينة البونيقية، أي في سنة 44 ق.م. وهنا وقع خلط. إذ أن أوكتاف لم يوطّن المعمرين بقرطاجة إلا في سنة 29 ق.م. وربما كان عددهم 3000 كما يقول أپْيان، ولكن التاريخ الذي ذكر – وهو سنة 44 –كان تاريخ تأسيس المستعمرة القيْصرية التي كانت مهيأة إلى حدٍّ ما، عند وفاة الدكتاتور يوم 15 مارس. وفي هذا التأسيس لم يكن لأوكتاف Octave الشاب أن يتدخل على ما يظهر، إذ لم يكن له بعدُ أي صفة رسمية تسمح له بذلك.

ويجعل صولان Solin [114] مولد قرطاجة الثانية في عهد قنصلية مارك أنطوان Marc Antoine، وپ. ضولَبيلاّ P. Dolabella بمائة واثنتين من السنين بعد تهديم قرطاجة الأولى. وضولَبيلاّ قد خلف قيْصر، وصار قنصلا يوم 16 مارس سنة 44 ق.م. وتوجد عدة نقوش من العهد الإمبراطوري تعرفنا بأسماء عدة كهان سنويين للربّة سيريريس Cereres وابنتها في قرطاجة. وتذكر سنوات كهانتهم حسب تاريخ تمكننا المطابقة من أن نلاحظ بأنه دون شك ليس متأخرا عن سنة 39 ق.م. إذن فقرطاجة كانت في هذا الوقت موجودة في الواقع، لا كمشروع فحسب، لأن الاحتفال بإحدى العبادات المهمة كان يقام بها. وسنرى أن وجودها المادي متأكد في العهد الذي حكم فيه ليبيد Lipide إفريقيا من سنة 40إلى 36 ق.م.

وُدعيت المدينة الجديدة باسم «المستعمرة اليوليوسية الوفاقية قرطاجة» Colonia Julia Concordia Karthago. وليس هناك سبب وجيه لنفرض أن كلمة الوفاق Concordia قد أضيفت فيها بعد، بل إنها تليق جيدا بمستعمرة أنشئت باسم يوليوس قيْصر، وبعد موته.

وإذا فهمنا جيدا بعض كلمات تِرْتولْيان Tertulien (115)، فإن المعمرين قادهم وأسكنهم ت. سطاتيلْيوس توروس T. Statilius Taurus الذي عاد سنة 35 ق.م إلى إفريقيا بصفة بروقُنْصُل. ونحن نجهل عددهم، ماعدا إذا كان العدد 3000، الذي ذكر في الفقرة التي خلط فيها أپْيان بين استنتاج سنة 44 ق.م واستنتاج سنة 29 ق.م، راجعا إلى الأولى (أي 44 ق.م) لا إلى الثانية. وكانوا من جهة أولى من قدماء المحاربين، ومن جهة أخرى كانوا من المواطنين الفقراء المجلوبين من إيطاليا. وربما كان فيهم أيضا ذرية بقيت في إفريقيا، انحدرت من المعمرين الذين سبق أن جلبهم كايوس گراكوس. ووقع قبول العتقاء، لا ليأخذوا القطع الأرضية فحسب، بل ليكونوا زيادة على ذلك أعضاء في المجلس البلدي، وليزاولوا المسؤوليات الكبرى، وهو حق كان قيْصر قد وهبه بصفة عامة لهم في مستعمراته. وتذكر إحدى الكتابات واحدة من هؤلاء العتقاء بأنه نال في قرطاجة منصب إيديل Edile بعد أن كان عونا لواحد من حكام إفريقيا بين 44 و 40ق.م (116). ومن المؤكد أن بعض الأهالي قد انضموا إلى المعمرين.

ويقول پْلين الشيخ إن قرطاجة الجديدة قامت بالمكان الذي كانت القديمة فيه(117). بينما يذكر أپْيان أنها قامت قريبا منه. والمدينة الرومانية التي نعرف اليوم تصميمها، كانت على شكل رقعة شطرنج تتجه خطوطها من غرب الشمال الغربي إلى شرق الجنوب الشرقي ومن

شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، فيغطي قرطاجة البونيقية، وذلك ما يؤكد ما يذكره پْلين. ولكن لا يُستَبعد أن هذا التصميم إنما يرجع لعهد تعميرها الثاني الذي حدث في 29 ق.م. وبهذا، ألا يمكن أن ينطبق ما ذكره أپْيان على المستعمرة القيْصرية التي خلط هو بينها وبين مستعمرة أوكتاف ؟ وحتى لا يخرق الأمر بالتحريم الصادر سنة 146 ق.م، ربما تكون المدينة الجديدة قد أقيمت خارج المدينة الأولى، وتزاحمت المنازل بين بيرسا Byrsa والميناء، وكذلك خارج تل بيرسا الذي كان معقلا ومكانا مقدسا في العهد البونيقي. فتكون قد أقيمت بالشمال الغربي لهذا التل، بناحية الملْگا Malga، مع المحافظة على وجه غرب الجنوب الغربي إلى شرق الشمال الشرقي، ومن شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، أي الوجهة التي استعملت قبل ذلك بقرن من الزمان لمسح ولاية إفريقيا، والتي لابد أنها استعملت أساسا لتصميم مستعمرة كايوس گراكوس. فالصهاريج الرومانية الكبيرة التي بالملْگا تتناسب بدقة مع هذا الاتجاه، بخلاف صهاريج البرج الجديد المناسب لصهاريج قرطاجة في العهد الإمبراطوري. وحيث إن هذه الصهاريج لم يقع إحداثها – من غير شك – في البرهة القصيرة التي عاشتها مستعمرة سنة 122 ق.م، فيمكن أن نستنتج من ذلك مع شيء من الرجحان أنها ترجع للمستعمرة القيْصرية. ونضيف أن هذه الناحية قد اكتشفت بها بقايا لآثار عمومية مهمة. فبالقرب من الصهاريج اكتشف على الخصوص نقش بارز يمثل يوليوس قيْصر مُؤَلَّهاً، ومارس أُلْطور Mars Ultor، وڤينوس Vénus، وهي قطع من مذبح كبير من عهد أوغسطس محلّه اللائق به هو وسط مستعمرة قيْصر. وبالقرب من الملْگا أيضا توجد أقدم مقابر قرطاجة الرومانية.

كما أن ولاية «إفريقيا القديمة» قد أنشئت بها مستعمرات أخرى بسيطة جدا. أنشأها قيْصر، أو أنشئت بعد موته بقليل، طبقا لإرادته، ونعرف منها – عدا قرطاجة – عشراً من المستعمرات اليوليوسية. كما يحسن أن يُعزى لأوكتاف أوغسطس تلك التي ذكرتها الوثيقة الإدارية التي نقلها پْلين، وهي مَكْسولا .Maxula (رادِسْ) التي لم يصلنا اسمها الرسمي، والمستعمرة اليوليوسية... أوثينا (وُدْنَة)، والمستعمرة اليوليوسية... ثوبورْبو مايوس Thuburbo Maius (هَنْشير القَصْبة)، وأخريات هي على وجه التأكيد أو الاحتمال مستعمرات قيْصرية، وأخيرا غيرها مما لا يمكن التأريخ له بالضبط.

أما المستعمرة اليوليوسية كوروبيس Colonia Julia Curubis (كورْبة) على الساحل الشرقي لهضبة الرأس الطيّب فإنها كانت موجودة منذ سنة 45 ق.م. وفي هذا العهد نقشت كتابة أوردت اسم مثْنى Duumvir كان من العتقاء[118]. كما تذكر كتابة أخرى نقشت سنة 20 ق.م مثنى وإيديلَيْن Ediles يظهر من ألقابهم أنهم كانوا أيضا من العتقاء. فهذان التذكاران لم يرد بهما سوى مثنى واحد، بينما صيغة أحدثهما عهداً تشهد بأنه لم يكن هناك سوى مثنى واحد يزاول المهام. ومع ذلك، فربما لا يكون هذا حجة للتأكيد بأن القاعدة، في المستعمرة القيْصرية بكوروبيس، كانت هي انتخاب موظف واحد عادٍ مسؤول، قد يحمل في نفس الحين، وخلافا للصواب، لقب المثْنى.

وفي جنوب «الرأس الطيب» Cap Bon كانت توجد مستعمرة في كْلوبيا Clupea (بالقرب من القليبية)، وذلك في بداية القرن الميلادي الثاني. وهي قديمة جدا، لأن أحد النقوش يذكر شخصا كان مثْنى مرَّتَيْن في كْلوبيا حوالي 40-35 ق.م. لكن المثنين لم يكن لهم وجود سوى

بالجماعات الرومانية. وكان هذا الشخص معتقا، سبق لنا أن لاقيناه يزاول مهمة إيديل Edile في المستعمرة القيْصرية بقرطاجة. ويكاد يكون من المؤكد أن كْلوبيا كانت مستعمرة يوليوسية، تأسست في حياة يوليوس قيْصر، أو بالتقريب، مباشرة بعد موته.

أما المستعمرة اليوليوسية كارْبِطانا Carpitana (هَنْشير المريْسَة)، بناحية الجنوب الغربي لهضبة الرأس الطيّب بمقابلة قرطاجة، وكذلك المستعمرة اليوليوسية هيبو دِيارْهيتوس Hippo Diarrhytus (بِنْزَرت) فقد وصلهما، كما يشهد بذلك أحد النقوش، معمرون من أصل واحد. ولابد أنهما أنشئتا في وقت واحد. ولم تكونا مما أنشأه أوكتاف أوغسطس، بحجة أنهما لم تذكرا في القائمة الرسمية التي نقلها پْلين، والتي لم تذكر فيها أيضا مستعمرتا كوربيس وكلوبيا، ولأنهما لم توصفا بكونهما أوغسطوسيتين. ولمعرفة تاريخ إنشائهما، لابد إما أن نتقدم حتى عهد قيْصر أو نتأخر إلى عهد تيبير Tibère وعهد كاليگولا Caligula. غير أن تيبير ومثله خَلَفه، لايظهر أنهما قد اهتما باستعمار إفريقيا على نطاق واسع. بينما نعرف، على النقيض من ذلك، وجود مستعمرتين قيْصريتين بهذه الهضبة التي توجد بها كارْبيس Carpis وهما كوروبيس، وكْلوبيا. وبعد موت قيْصر مباشرة أمر المتصرف المالي Questeur للولاية بإنجاز بعض الخدمات بالمياه المعدنية لحمّام كُرْبوس Hammam Korbous بالقرب من كاربيس. فيرجح إذن أن هذه المستعمرة وكذلك مستعمرة هيبو ديارهيتوس تُعْزيان للدكتاتور.

ففي كلوبيا وهيبو، وربما في غيرهما، وقع تأسيس المستعمرات التي تحدثنا عنها قرب المراكز القديمة للسكان، ولم تذب فيها. وأسس أوغسطس مدناً حصينة حرة : Oppida Libera وجماعات أجنبية (أهلية)

حرة في كوربيس وكلوبيا، كما نعلم من بعض النقود أن هيبو ديارهيتوس كانت بها جماعة حرة في عهد أوغسطس وتيبير. وكذلك أسس أوغسطس مدينة حصينة حرة في نيابليس (نابل) بأسفل هضبة الرأس الطيب عند مدخل خليج الحمّامات. أما المستعمرة اليوليوسية نيابليس التي تأسست بنفس المكان، فلا ترجع لعهده، وذلك لنفس الأسباب التي ذكرناها في موضوع هيبو وكاربيس. ويمكننا الاعتقاد بأنها أيضا مستعمرة قيْصرية.

ولدينا أسباب وجيهة جدا لنقل وجود مستعمرات يوليوسية في هَدْرُميت (سوسة) وثيسْدروس (الجمّ) بالقرب من جماعات أجنبية (أهلية) حرة، وبالقرب أيضا من مدن حصينة حرة، وأن هذه المستعمرات أسسها أوغسطس أو أعادها هو للوجود. ويحتمل أن الأحرف الثلاثة C.I.H المنقوشة على القراميد التي عثر عليها في سوسة، يكون معناها : المستعمرة اليوليوسية الهَدْرُوميتية[119]. ولكن هذا ليس مؤكدا. إذ لو أن هَدْروميت كانت حقيقة مستعمرة يوليوسية، لَصح التعجب من إغفال ذكر هذا الاسم في نقش دُعيت فيه مطولاً باسم: Colonia Concordia Ulpia Traiana Augusta Frugefira Hadrumetina. وصحيح أن كلمة Concordia تذكرنا بالمستعمرة القيْصرية Julia Concordia Karthago، وبغيرها من المستعمرات اليوليوسية. ونقرأ على قطعة نقدية ضربت في هذا المكان في عهد أوغسطس أو تيبير اسمين لمثْنَيين، أي لمسؤولين في جماعة رومانية، وهذه إما أنها جماعة مشاركة خلفت المدينة الأجنبية بعد أن حررت القائمة التي نقلها پْلين، وإما أنها هي المستعمرة اليوليوسية التي ربما تأسست في وقت لا ندريه، ولكنه وقت منع من ذكرها في القائمة، أي قبل عهد أوكتاف أوغسطس، أو عند نهاية عهد حكمه، أو في عهد تيبير.

ويشهد نقش من رومة أن صفة «اليوليوسية» قد ارتبطت باسم ثيسْدروس Thysdrus. ولم تكن تطلق على الجماعة المشاركة التي لم تحدث إلا في عهد سِبْتيم سيڤيرْ Septime Sévère، وذلك بالتحويل الذي أدخله على المدينة الحرة Civitas Libera، بل كانت الصفة تطلق على مستعمرة كانت موجودة لاشك بهذا المكان في القرنين الثاني والثالث، وكانت من دون شك أقدم زمنا، وكانت بيد قبيلة گَليرْيا Galeria التي لانجدها بغير هذا المكان من ولايات إفريقيا على ما أظن. وهي القبيلة التي تكونت منها سنة 43 ق.م مستعمرة لِيون Lyon بفرنسا، والتي أدخل فيها أوغسطس عددا كبيرا من الجماعات الأسبانية، كما أن نقشا من ثيسْدروس يظهر أنه من عهد أوغسطس، يرجح أنه يذكر عرّافا Augure لم يستطع مزاولة هذه المهمة الدينية إلا في جماعة رومانية. فإذا كانت المستعمرة اليوليوسية الثيسْدروسِية التي لم يرد ذكرها في قائمة پْلين، لم تؤسس في أواخر عهد أوغسطس فإنها تكون متقدمة على عهد هذا الأمير، وتكون إذن قيْصرية.

فهذه الوثائق – وهي لاشك ناقصة جدا – تمكننا من أن نلمح أهمية المجهود الاستعماري الذي قام به قيصر أو أمر به في ولاية «إفريقيا القديمة»، خلال وقت قصير، أي في المدة المتراوحة بين أبريل 46 ومارس 44 ق.م.

الكتـاب الثاني

أفريقيا عند قيام الإمبراطورية

نهاية الممالك الأهلية

الفصل الأول

أفريقيا من سنة 44 إلى سنة 27 ق.م

1

دخلت إفريقيا بعد موت قيْصر في الخلافات التي كانت تهز العالم الروماني، فقد تصادم في الصراع أنصار الجمهورية وأنصار المثلثين[120]، كما تصادم أنصار أوكتاف Octave وأنصار أنطوان Antoine، واشترك في هذه المصادمات أمراء من الأهالي، ولكن لم يكن لهم سوى دور ثانوي، لأن عهد الادعاءات العريضة التي كانت ليوبا قد مر. ولا نعرف شيئا عن هذه الحقبة المضطربة، إلا من خلال بعض الفصول من أبْيان Appien وديون كاسْيوس Dion Cassius، اللذين لا يتفقان فيما بينهما دائما. ولعل الأول منهما يتصل عن طريق مجهولة، بكتاب «التواريخ» لآسينْيوس پولْيون الذي عاصر الأحداث، بينما الثاني لابد أن يكون اعتمد كثيرا على تيت ليف[121] الذي نجهل مصادره، وضاعت روايته عن هذا الموضوع، كما ضاعت رواية پولْيون.

لقد رأينا من قبل أن الملكيْن الموريّيْن بوكوس وسيتْيوس اقتسما فيما بينهما مملكة مسِنيسّا (مستنيزن)، وأن أرَبْيون ابن هذا الأخير التجأ إلى أسبانيا. وعاد إلى إفريقيا بمجرد ما مات قيْصر. وربما يكون قد أرجع معه بعض النوميديين الذين قد يكونون صحبوه إلى منفاه، والذين وقفوا مثله بجانب اليومْپيين فتدربوا على الحروب[122]. وربما تكون رعية أبيه قد تلقته بالمقابلة الحسنة. وسرعان ما استرجع القسم الذي كان بوكوس قد استولى عليه من مملكة مسِنيسّا.

أما عن سيتْيوس فقد قتله (بحيلة) كما يقول أپْيان، ولا نعلم عن هذا أكثر مما ذكر. وبلغ خبر موته إلى رومة بعد اغتيال قيْصر بثلاثة أشهر، فتلقى سيسرون الخبر بعدم الاكتراث، وإن كان سبق له أن أظهر للمغامر عطفا كبيرا. لكن رفقاء سيتيوس (أي الستْيانيّين) احتفظوا بسيرتا وما يحيط بها من الأراضي. ونعتقد أن هذا العهد هو الذي ضُمّت فيه منطقتهم إلى الولاية المجاورة – «إفريقيا الجديدة» – وبذلك صينت عن مطالبات أرَبْيون وأطماعه، كما تكون سيرْتا قد تحولت في نفس الوقت إلى مستعمرة رومانية.

وبعد اغتيال قيْصر ببضعة أشهر كان حاكم إفريقيا هو ك. كورْنيفيسْيون Q. Cornificius، الذي كان صديقا لسيسرون Cicéron وكاتول الشاعر Catulle. وكان يدّعي البلاغة والشعر، ولكن كانت له ميزات حربية مكنته من بعض الانتصارات في إيليريا Illyrie خلال سنة 48 ق.م، وفي قيليقيا Cilicie وسورية بعد ذلك بسنتين. وهناك قِطَعٌ نقدية ضربها إبان حكمه لإفريقيا، نجده عليها يحمل لقب إمْبراطور، مما يشهد بإحرازه على انتصار عظيم، لا ندري أين ولا متى حصل.

ولم يكن قد وصل إلى إفريقيا قبل ذلك بكثير. لأن سلَفَه وهو : ك.كَلْفيسْيوس سابينوس C. Calvisius Sabinus، كان قد وصل إلى رومة قبل منتصف مارس بقليل، بعد أن ترك مساعديه يقومون بالنيابة عنه في إفريقيا. ونال كورْنيفسْيوس الولاية بقرار من مجلس الشيوخ، يظهر أنه اتخذ بمجرد وفاة قَيْصر، كما يظهر أنه تأكيد لتعيين سبق أن اتخذه الدكتاتور.

فلم يخف ميوله للحزب الجمهوري وكان يرأسه آنذاك صديقه سيسرون، الذي لم يعد يراعي مطلقا القنصل مارك أنطوان Marc Antoine ابتداء من شهر سبتمبر 44 ق.م. وفي 28 نوفمبر صوت مجلس الشيوخ على اقتراح تقدم به مارك أنطوان قبل ذهابه إلى بلاد الغال القريبة Gaule cisalpine. والاقتراح يقضي بتوزيع جديد لحكومات الولاية، فشاء الحظ أن تكون إفريقيا من نصيب كَلْفيسيوس سابينوس، أي شاء الحظ أن سلف كورْنيفسْيوس يصير خَلَفه. ولكن مجلس الشيوخ غيّر رأيه يوم 20 ديسمبر أي بعد ثلاثة أسابيع، فقرر باقتراح من سيسرون أن الولايات يُحتفظ لها بحكامها وأنها لا تؤول لأي أحد، إلا لمن يُعين بأمر مجلس الشيوخ. ومع ذلك فإن كَلْفيسْيوس لم يفتر مدة شهور عديدة يعتبر نفسه معيّناً بصفة قانونية على حكومة ولاية «إفريقيا القديمة». كما أصر على البقاء بها مساعدوه الذين سبق أن تركهم هناك، وأحدثوا ما لا يحصى من العراقل لكورنيفسيوس، حتى أنهم في يونيو 43 ق.م لم يكونوا بعد قد غادروا الولاية، رغما عن الأمر الذي وصلهم من مجلس الشيوخ.

ومع ذلك، فإن الولاية – ولو من الوجهة الرسمية على الأقل – كانت تظهر ميلاً لكورنيفسيوس الذي يعاضده مجلس الشيوخ. وفي 19 مارس 43 صدر عن مجلس الشيوخ قرار، كتب له سيسرون عنه قائلا بأنه

مشرف له. فلربما أن تعيينه قد وقع تمديده في هذا التاريخ، وأياً ما كان الأمر، فإن المجلس لم يعيّن له خلفاً. كما أن فيلقا من الفيالق الثلاثة التي بإفريقيا الجديدة قد أسند إليه، ولا ندري هل حدث هذا في نفس الإبان أو بعده بقليل.

أن أرض إفريقيا، وهي التي تزود بالقمح، كانت ذات أهمية بالنسبة للحزب الجمهوري. وبأمر من مجلس الشيوخ ضربت في هذا الإبان عملة ذهبية، وعليها صورة نصفية تمثل أفريكا. وكان هذا العمل نوعا من التملق لأحد الولايات التي يحتاج إليها، حتى إن سيسرون لم يغفل في رسائله أن يستثير نشاط كورنيفسيوس.

أما في «إفريقيا الجديدة» فلاشك أن ت. سيكْستيوس T. Sextius كان حاكما في ربيع سنة 43 ق.م. ولابد أنه كان حاكما قبل ذلك بزمان. ونظرا لصداقته مع أنطوان، فإن تعيينه لم يعد ممكنا بعد القطيعة بين هذا الأخير ومجلس الشيوخ. ومن الطبيعي أن يشك فيه الجمهوريون. بل ربما أن مجلس الشيوخ أراد أن يعين له خلفا، غير أن قراره لم يعقبه تنفيذ، وإن كان انتزع من يده فيالقه المكونة من جنود قدماء كانوا مع قيْصر. وقد سبق أن قلنا إن فيلقا منها أسند إلى كورنيفِسْيوس. أما الإثنان الأخران فقد دعيا إلى إيطاليا ليشاركا في الحرب ضد أنطوان. وقد كان وصولهما منتظرا منذ نهاية شهر ماي سنة 43 ق.م. فهل تباطأ سيكسْتيوس في إرسالهما ؟ على كل، لما وصل الفيلقان كانت القطيعة قد حدثت بين الحزب الجمهوري وأوكتاف الذي كان يزحف على رومة. وعوضا عن أن يحارباه، فإنهما انضما إليه، وفي يوم 19 غشت صار وريث قيْصر قنصلا.

وبعد ثلاثة أشهر، أي يوم 27 نوفمبر صدر قانون منح لأوكتاف، وأنطوان، وليبيد Lépide لقب مثلثي رئاسة الدولة[123]، وجعلهم سادتها لمدة خمس سنين لغاية 31 ديسمبر 38 ق.م. ونال أوكتاف في التقسيم الذي قاموا به فيما بينهم، ولايتَي إفريقيا بالإضافة إلى صقلية وسردانية. فأسرع ت. سيكسْتيوس وجعل نفسه تحت إمرة أوكتاف الذي أصبح شريكا لأنطوان، بينما رفض كورنيفِسْيوس أن يخدم المثلثين، وأخفى عنده بعض المحكوم عليهم بالإعدام الفارين من الموت، وشرع في الاتصال بسيكسْتوس پومْپي Sextus Pompée الذي كان قد استولى على صقلية، فمنع بهذا العمل القيْصر الشاب (أوكتاف) من الاستيلاء عليها، بل إن كورنيفسيوس بعث لپومْپي ببعض الجنود.

فأنذره سيكسْتيوس Sextius باسم أوكتاف أن يمكّنه من الولاية القديمة. فأجاب كورنيفسيوس على الإنذار بأنه يجهل ما قرره المثلثون فيما بينهم، أما هو فحيث إنه نال حكومته من مجلس الشيوخ، فإنه لن يدفعها لشخص آخر إلا بأمر المجلس.

وتبع ذلك قيام الحرب سنة 42 ق.م. وكانت حربا قصيرة جدا. فقد كان كورنيفسيوس يساعده متصرفه المالي د. لايلْيوس D. Laelius كما يساعده ڤَنْتيدْيوس Ventidius أحد خلفائه. وكان جيشه أكثر عددا وأفضل على ما يقال، وإن كان هو قد وصف بنفسه جنوده ذات يوم بأنهم أرانب تحمل الخوذات. وكان بمستطاعه أن يضيف إلى الجيوش التي وجدها بولايته الفيلق الذي كان سيكستيوس قد تنازل له عنه قبل ذلك ببضعة أشهر. ومع أن سيكسْتيوس كان قد فقد فيالقه الثلاثة، فقد كان من السهل عليه أن يحشد بنوميديا المشاة والخيالة الخفيفة. وطلب الحاكمان العون من الملك أرَبْيون ومن السِّتِّيين. غير أن هؤلاء كانوا

متمسكين بذكريات قيْصر العظيم، فمالوا لقضية مُتَبَنّاه. بينما ذكريات الماضي كانت - على النقيض من ذلك - تدعو أرَبْيون إلى محاربة القيْصريين. ولكنه قدر في الأخير أن النصر سيكون حليف سيكستيوس ورفقائه، فانضم لجانبهم من غير أن يصغي لنداء الضمير.

وإنه لمن الصعب أن نؤالف، وإن نوافق في بعض الأحيان بين الروايتين المختلفتين جدا، اللتين رواهما عن هذه الحرب كل من أپْيان وديون كاسْيوس(124). وإليك ما نراه أقرب للصواب.

ظن سيكسْتيوس أول الأمر أن الأعداء سينتهزون الفرصة بتفوقهم العددي، وينقضون على ولايته. فتأهب لمقاومتهم. فلما رآهم يحجمون، شرع هو في المهاجمة لأن فألاً حسناً شجعه على ذلك. اقتحم «إفريقيا القديمة» واستولى على هَدْروميت وعدة من المدن الاخرى، الأمر الذي جعله يبالغ في ثقته بنفسه. فلم يأخذ حذره وفقد كثيرا من الجنود في كمين نصبه له فنتيديوس. وبعد هذا الاندحار تراجع إلى نوميديا التي اقتحمها أعداؤه. فحاصر لايْليوس مدينة سيرتا بمساعدة أرَبْيون، وجرت بعض المعارك بين الخيالة نال فيها فنتيديوس بعض الانتصارات على سيكستيوس، وأسر متصرفه المالي. ولكن الأحوال سرعان ما تغيرت بسبب أرَبْيون الذي ساعد القيْصريين بفرسانه الأشداء، فخاض سيكستيوس المعركة ضد فنتيديوس وقتله، كما أسر أو قتل جنود الذين كانوا يفرون منهزمين. ولما سمع لايليوس هذا الخبر رفع الحص عن سيرتا، وعاد بجانب كورنيفسيوس الذي كان معسكرا قرب أوتيكا.

فسار سيكستيوس إليهما، مع أن جنوده كانوا أقل عددا. وأق معسكره بمواجهة معسكر الأعداء. وذهب لايليوس مع الخيالة بقص الاستطلاع، فهاجمته خيالة أرَبْيون من الأمام، كما هاجمه سيكستي

والجيوش الخفيفة من جانبه. وخوفاً من أن يُحاط به سار واستولى على أحد المرتفعات المجاورة. فتبعه أرَبْيون وقتل كثيرا من رجاله ثم أحاط بالتل. فلما رأى كورْنيفسْيون ذلك، خرج ليدفع النجدة لمتصرفه المالي. ولكن سيكسْتيوس أخذه من الخلف، فلم يقاومه كورنيفسيوس إلا بمشقة. وأثناء ذلك بعث أربْيون رجالا خفافا، فتسلقوا الصخور، ووصلوا دون أن يثيروا الانتباه، إلى معسكر كورنيفسيوس واستولوا عليه. فأمر الضابط المكلف بحراسة المعسكر خادما له أن يتولى قتله. أما كورنيفسيوس الذي كان سيكستيوس يضايقه، والذي لم يكن يعلم أن معسكره قد ضاع، فقد كان يجدّ للوصول إلى المرتفع الذي التجأ إليه لايليوس. غير أن فرسان أرَبْيون انقضوا عليه وقتلوه، وفر جنوده. فانتحر لايليوس لأنه رأى هذا المشهد. وتشتت الجيش الجمهوري. كما فر في كل اتجاه المحكوم عليهم الذين كان كورنيفسيوس قد آواهم، فذهب أكثرهم إلى صقلية عند سيكسْتيوس پومْپي Sextius Pompée، وأعطى سيكتيوس المكافآت، من الغنائم، لأرَبْيون والسِّتّيين، وأخضع مدن الولاية من غير أن يشتط بانتصاره. ومن ذلك العهد صارت ولايتا إفريقيا بيده.

2

بعدما انتصر أنطوان وأوكتاف في مدينة فيلبس Philippes بمقْدونيا في خريف سنة 42 ق.م على كَسْيوس، وبْروتوس، قرار إعادة النظر في توزيع الولايات. فأبعد ليبيد Lépide مؤقتا، لأنه مكث في إيطاليا بينما ذهب زميلاه إلى مقدونيا لمحاربة قتلة قيْصر، فكان موقفه – على ما قيل – قليل الوفاء، إذ اتهم بممالأة سيكسْتيوس پومْپي. فانتزعت منه الولايتان الأسبانيتان وبلاد الغال الناربونية La Gaule Narbonnaise، على أن ينال عوضا عنها ولايتي إفريقيا إذا اتضح عدم صحة التهم الموجهة إليه.

وفي انتظار ذلك، حاز أنطوان «إفريقيا القديمة»، حيث ترك سيكْستيوس الذي هو موضع ثقته. وحاز أوكتاف «إفريقيا الجديدة» التي بعث إليها : ك. فوفيكْيوس فانْكو C. Fuficius Fango، وهو جندي قديم من أصل وضيع، دخل لمجلس الشيوخ بفضل قيْصر. ولكن يظهر أن تعديلا آخر قد تقرر، بعد ذلك بقليل، بين أوكتاف وبين لوكْيوس أنطونْيوس Lucius Antonius قنصل سنة 41 ق.م. وكان هذا الأخير، هو وفولْڤيا Fulvie زوجة أخيه، يسهران بروما على مصالح أخيه أنطوان المثلث الذي كان آنذاك بالمشرق. وبعد تدخل لوكيوس، سلّم سيكستيوس ولايته وجنوده لفانكو الذي أصبح حاكما على الولايتين معاً باسم قيْصر.

لكن يقال أن سيكْستيوس وجد الذريعة لتمديد مقامه، إذ كان يقدّر أن الأشياء ستتّخذ عما قريب وجهة جديدة، وفعلا فإن الحرب اندلعت في نفس هذه السنة بيْن أوكتاف من جهة، وبين لوكْيوس إنطونْيوس وفولْڤيا من جهة أخرى. وانتهت في آخر فبراير سنة 40 ق.م باستسلا لوكيوس في مدينة بيروز Pérouse. فجاء الأمر إلى سيكسْتيوس م فولْڤيا بالتدخل. وطلب هذا الأخير من فانكو أن يسلّم إليه ولاية «إفريقي القديمة»، وطبعا فإن هذا رفض تسليمها[125]. ولكن هذا الجِلْف كان ق أغضب أهل الولاية بحكمه السيء، فانضموا لجانب سيكْستيوس الذ جمع حوله عددا كبيرا من قدماء المحاربين ومن الأهالي. وأرغم فان على التراجع إلى «إفريقيا الجديدة» في حالة سيئة.

فأنزل العقاب الشديد بالسّتّيين الذين استهانوا به، وطرد أر عن مملكته عقابا له على رفضه مد يد المساعدة له. فالتجأ المل سيكْستيوس الذي رفض أن يسلمه لفانكو. فهاجم فانكو نتيجة

الولاية القديمة وعاش فيها. فسار سيكستيوس لمواجهته، وانتصر عليه في عدة معارك صغيرة، يرجع الفضل فيها على الخصوص إلى خيالة أَرَبْيون، ثم رمى به إلى نوميديا حيث تقفاه. ولكن سيكستيوس اخذ يشك في أَرَبْيون وقتله غدرا، فغضب فرسان الملك، وتركوا سيكستيوس وانضم أكثرهم إلى فاگون. ولكن الحاكمَيْن تصالحا بعد ذلك، في الظاهر على الأقل.

وكان فاگون هو الذي نقض هذا السلم باقتحامه بغتة ولاية «إفريقيا القديمة». وجرت بينهما معركة كان فيها كل منهما منتصرا ومندحرا معا. إذ تفوق سيكستيوس بفيالقه، وفاگون بخيالته النوميديين. وفي نفس الحين وقع الاستيلاء على المعسكرين ونهبهما من غير أن يعلم القائدان بذلك. ولما بلغهما الخبر أعادا المعركة، ولكن النوميديين في هذه المرة انطلقوا للفرار. فالتجأ فاگون إلى بعض الجبال، حيث مر سرب من الظباء بقرب معسكره بالليل، فظن أن خيالة الأعداء قدمت لمباغتته فانتحر. ولم يجد سيكستيوس بعد ذلك مشقة في إخضاع نوميديا، باستثناء مدينة زاما التي قاومته طويلا، ولكنه قهرها بالتجويع.

جرت هذه الأحداث في النصف الثاني من سنة 41 ق.م، وفي الشهور الأولى من السنة الموالية لها. وأصبح سيكستيوس من جديد سيدا على الولايتين. وكان تحت إمرته آنذاك أربعة فيالق. ومن كتابة تذكارية صنعت بأمر أحد العتقاء، كان يعمل معه عونا بإفريقيا، نعلم أنه نال لقب إمبراطور، بعد انتصارات أحرز عليها ضد الأهالي، وربما بعد الاستيلاء على زاما.

أما مملكة أَرَبْيون فقد أعيدت لبوكوس، الذي امتدت مملكته من جديد حتى نهر أمبساگا.

ولما أنهى أوكتاف الحرب في بيروز توجه إلى بلاد الغال. وأثناء عودته في أواسط سنة 40 ق.م، طلب من ليبيد Lépide أن يذهب ليحوز حكومة ولايتي إفريقيا، وكلفه أن يصحب معه إليها ستة فيالق يشك في إخلاصها. وقد رأينا أن أنطوان وأوكتاف بعد معركة فيلبس، قررا إمكان إسناد هاتين الولايتين لزميلهما ليبيد، الذي اضطر لانتظارهما ما يقرب من السنتين. وأثناء إبرام اتفاقية براندس Brindes (جرى ذلك في نهاية الصيف) أعطى أنطوان موافقته على القرار الذي اتخذه أوكتاف من غير أن يستشيره. فلم يبد سيكستيوس معارضة لأوكتاف، بل دفع إليه الولايتين والفيالق الأربعة.

كان م. إيميلْيوس ليبيدوس M. Aemilius Lepidus شخصية ذا محتد نبيل، وكان ذا ثروة واسعة، ولا يأنف من العمل لتوسيعها، كما كان ذا ذكاء محدود، بطيء الحركة، قليل الصراحة وكثير الادعاء. وأتاه حظ لم يكن له أهلا، فجعل منه كبيرَ الكهنة، وأحدَ الرؤساء الرسميين الثلاثة للدولة. فلما تجدد الثالوث Triumviat لمدة خمس سنين (من فاتح يناير 37 إلى 31 ديسمبر 33 ق.م) حافظ فيه ليبيد على مكانه، رغما عن كون زميليه (أنطوان وأوكتاف) لم يخفيا استخفافهما به.

وطالت مدة إقامته بإفريقيا ما يقرب من أربع سنين، ما كانت تخلف أي أثر، وإنما يذكر بكونه صير قسما من قرطاجة الجديدة مقفر فبدأ بهذا العمل وهو ينال من حقوق المستعمرة. وفي هذا الموضو ذكر ترتوليان "بأذاه القاسي" من غير أن يوضح أكثر من ذلك. فهل يك ليبيد قد تنبه إلى أنه الكاهن الأكبر Grand pontife ؟ وهل يكون من أن المستعمرة اقتحمت ترابا، كان لابد أن يحافظ فيه على نذر سيبيو

كان تحت إمرته قوات عظيمة، فزيادة على الفيالق الستة التي قدمت معه، وزيادة على فيالق سيكستيوس الأربعة، زاد هو – ولا ندري كيف – ستة فيالق أخرى. ويجب أن نقول إن عدد الجنود بهذه الفيالق الستة عشر كان قليلا، ولاشيء يشير إلى أنه استعملها ليوسع أو ليقوي السيطرة الرومانية في إفريقيا.

ونظرا لقبوله المشاركة في حرب أوكتاف ضد سيكسْتيوس پومْپي، فإنه ذهب إلى صقلية يوم فاتح يوليو سنة 36 ق.م، ومعه سبعون سفينة حربية، و1000 سفينة للنقل، و12 فيلقا، و5000 فارس نوميدي. وبعد ذلك بقليل حمل بعث جديد أربعة فيالق أخرى، قضى العدو على اثنين منها. ولم يحصل ليبيد Lépide على انتصارات كبيرة بالجزيرة بعدما نزل بها. لكن بعد الانتصار البحري الباهر الذي ناله أگريپا مساعد أوكتاف يوم 3 سبتمبر في نولوك Nauloque، وفرار سيكستيوس إلى المشرق، ضم ليبيد ثمانية فيالق پومْپية إلى الفيالق التي كان أتى بها، واعتقد آنذاك أنه يستطيع أن يلزم أوكتاف بالتنازل له عن صقلية، فلما تركته جيوشه اضطر ليطلب الصفح من زميله. فانتهت حياته السياسية بذلك، ولم يترك له أوكتاف سوى الكهانة الكبرى.

واستولى له على ولايته، وعلى أسطوله وجيشه من غير أن يقتسم ذلك مع أنطوان. وأصبح سيد الإفريقيتين منذ نهاية 36 ق.م وزاول بهما وفي بقية المناطق الغربية سلطاته الخارقة للعادة باعتباره مثلثا، وهو اللقب الذي لم يفتأ يحمله من بداية سنة 32 إلى نهاية المدة الخماسية الثانية للثالوت، لكن من غير أن يتخلى عن السلطة العليا التي حازها قانونيا لمدة عشر سنين.

في سنة 35 فكر في الذهاب إلى إفريقيا، غير أن الأعاصير البحرية منعته من مجاوزة صقلية. وكان ت. ستاتيلْيوس طوروس، بعدما أتم إخضاع الجزيرة، هو الذي ذهب برتبة بروقنصل ليحوز باسمه الولايتين فيما وراء البحر. ولم يلق في ذلك مقاومة.

ومن المحتمل أيضا أن تكون «إفريقيا القديمة» و«إفريقيا الجديدة» قد ضُمّتا لبعضهما في عهود البروقنصلات الذين خلفوه، والذين كانوا مثله شخصيات قنصلية. وفي إحدى الوثائق الرسمية لأوغسطس، ذكرت أسماء الولايات التي كانت تابعة له سنة 32 ق.م. وهي : ولايتا الغال، ولايتا إسبانيا، ولاية إفريقيا، ولاية صقلية، وولاية سردانية[126]. ونلاحظ ان كلمة إفريقيا قد وردت هنا مفردة. فربما أن أوغسطس في هذه الوثيقة التي حررت متأخرة بكثير، قد غفل عن اعتبار ذلك التمييز بين الولايتين، الذي يظهر أن وجوده القانوني استمر بضع سنين بعدما وقع الإدماج الفعلي للولايتين. وينص ديون كاسيوس على إفريقيا ونوميديا «أي إفريقيا الجديدة» من بين ولايات سنة 27 ق.م[127]، في حين أنه، منذ سنة 27 هذه، لم يعد هناك سوى ولاية واحدة باسم إفريقيا، أعطيت لمجلس الشيوخ ويحكمها قنصل سابق.

وكان ستاتيليوس طوروس، وكذلك الكثير من الحكام الذين خلفوه يخوضون مع الجيوش التي تحت إمرتهم معارك ضد النوميديين الثوار أو ضد الجيتوليين النهابين. وهي عمليات حربية لم تعرف إلا بالإشارة المختصرة لمواكب التمجيد التي إقامها طوروس خارج إفريقيا في شهر يونيو سنة 34، وإقامها لوكْيوس كورنيفسْيوس في ديسمبر من إحدى السنوات 33-30، وإقامها لوكيْوس أوطْرونْيوس بايْتوس L. Autronius Paetus في غشت سنة 28 ق.م.

وفي السنين الثمان التي عقبت استيلاء أوكتاف على إفريقيا، بعد تنحية ليبيد، تمّ إنشاء عدد من الجماعات المشاركة، ومن المستعمرات والجماعات الأهلية الحرة. ولاشك أن أهل اوتيكا تحولوا إلى القيْصر الشاب بالعواطف التي كانت لهم على مُتبنّيه الدكتاتور. وأعطيت لهم المواطَنية الرومانية منذ نهاية سنة 36 ق.م. وأصبحت مدينتهم تحمل اسم : الجماعة المشاركة اليوليوسية الأوتيكية Municipium Juliun Uticense أما مستعمرات أوكتاف أوغسطس المذكورة في الوثيقة الرسمية التي نقلها پْلين من غير إن تلقب بلقب الأغسطوسية، فإنها هي التي وقع تأسيسها قبل أن ينال أوكتاف نفسه لقب أوغسطس أي قبل 27، وهي سيكا Sicca، وثُبورْبو Thuburbo، وربما حتى أوثينا Uthina. وكانت مستعمرات للجنود القدماء، على غرار جميع مستعمرات أول إمبراطور.

وفي سنة 29 ق.م ذهب معمرون جدد بقصد تقوية المستعمرة القيْصرية بقرطاجة. وكان هؤلاء الجنود القدماء بقيادة سانتيوس ساتورنينوس Sentius Saturninus الذي صار قنصلا بعد عشر سنين. وقد قلنا من قبل إن قرطاجة سنة 29 هذه، قد أقيمت فوق قرطاجة البونيقية من غير أن يعترض على ذلك أي وازع ديني. وقلنا كذلك أن بعضا من الأهالي كانوا لاشك يقيمون بجوار بعض المعمرين، وذلك منذ سنة 44 وفي السنوات التالية، وأن السعة التي أعطيت للمدينة جلبت الكثير غيرهم. وفي سنة 28 نالوا حق تكوين جماعة حرة على الطراز البونيقي بموظفين علاة مسؤولين يُدْعون باسم الأسباط (الشيوفيط Suffètes).

هذه هي الجماعات الرومانية والأهلية التي تساعدنا الوثائق الدقيقة على إرجاعها لسنوات 36-28 ق.م. على أن قائمة المنشآت التي أحدثها

أوكتاف أوغسطس، المحفوضة في كتاب پْلين تشتمل لاشك على جماعات أخرى وعلى مدن أجنبية (أهلية) أخرى، ولكن ليس لدينا وسيلة للتمييز بين الجماعات المشارة وبين المدن التي كان إنشاؤها أحدث عهدا. وسندرس جملة هذا الأثر المهم للقيْصر الثاني حينما نعرض أحوال إفريقيا في عهد الإمبراطورية.

في بداية سنة 27 ادعى أوكتاف أنه يعيد النظام الجمهوري، ولكنه في الحقيقة نظم النظام الإمبراطوري، وإذ ذاك نال أيضا اسم أوغسطس Augustus. وحيث كان لازما للمؤرخين أن يقسموا الماضي إلى أقسام واضحة. فالعهد الإمبراطوري – وهو أحد هذه الأقسام – يبدو مبرراً كافياً، سواء بالنسبة لولاية إفريقيا أو لجميع العالم الروماني.

3

وكيف كانت الأحوال في موريطانيا حين كانت تجري جميع هذه الأحداث في إفريقيا الرومانية ؟

بعد موت قيْصر، وضع بوگود ملك موريطانيا الغربية نفسه في خدمة مارك أنطوان، كما لو كان وضعها في خدمة الدكتاتور. وفي 43ق.م كان في جيش أنطوان خيالة موريون لابد أن بوگود هو الذي بعث بهم إليه. وفي شهر يونيو من نفس السنة، اجتاز كُرنيلْيوس بَلْبوس Cornelius Balbus المتصرف المالي لولاية أسبانيا البعيدة Espagne Ultérieure إلى مملكة بوگود (بعدما حمل معه ما انتهب). وحيث إنه كان من أنصار أنطوان، ورأى أن آسينْيوس پولْيون حاكم الولاية يتردد في الدخول في الحرب الأهلية فقد ظن أن الأحسن

لمصالحه هو أن يذهب عند «البارباز» الذي كان قد اختار أصدقاءه وأعداءه فعلا.

وفي إبان الحرب التي دعيت باسم حرب بيروز Pérouse، في سنة 40-41، كان كَيوس كَريناس C. Carrinas حاكما باسم أوكتاف على أسبانيا البعيدة. ونقرأ في أَبْيان[128] إن لوكْيوس أنطونْيوس أمر بوكوس ملك الموريين بمهاجمته. ولاشك أن هنا خطأ واقعاً في الإسم، لأن بوگود هو الذي تدخل، إذ كان يسهل عليه أن يجتاز من مملكته إلى الهضبة الأسبانية وأن يعطي فيها البرهان على تعلقه بأنطوان.

وفي 38 ق.م وقعت حملة جديدة لبوگود على أسبانيا. فهل قام بها من ذات نفسه ؟ أو دفعه إليها وليّه ؟ يقول دْيون كاسْيوس[129] إنه لايدري. ومع أن أنطوان في هذا الإبان لم يكن موافقا على الحرب ضد سيكْسْتوس پومْپي، فإنه كذلك لم يكن في خصام مع أوكتاف. فمن المشكوك فيه إذن أن يكون بوگود قد تحرك بإيعاز من أنطوان. ويمكن أن نتساءل : ألم يصْغ لإيحاءات من سيكستوس ؟ فلربما أنه نسي حقيقة مع أي الجهات كان أثناء معركة مونْدا Munda التي جرت قبل ذلك بسبع سنين. وقد اكتفى دِيون بالقول : بأنه فعل بإسبانيا شراً كثيراً، وأنه تألم من ذلك كثيرا. وربما كان هذا هو الوقت الذي حاصر فيه المعبد الشهير لهركول Hercule القريب من گاديس Gadès، وليس لدينا عن هذا الحصار الذي طال أمده سوى إشارة من غير ذكر للتاريخ[130].

أما أهل طنجة فمكافأة لهم على ثورتهم التي جاءت في الوقت المناسب، نالوا المواطنة الرومانية منذ سنة 38 ق.م[131]. ونال بوكوس من أوكتاف تأكيد فتوحه، ومن ذلك الوقت فِصاعدا، وهو على مملكة

امتدت من المحيط إلى نهر أمبْساگا. وكانت وفاته سنة 33 ق.م[132]. ويحتمل أنه لم يخلف وريثا[133].

هل وهب مملكته للشعب الروماني أو لأوكتاف ؟ إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال فإن أوكتاف هو الذي قرر في مصير المملكة. فلم يعين – وعلى الأقل في ذلك الحين – خلفا للملك الراحل. كما أنه، برغم ما يقوله ديون كاسْيوس[134]. لم يحوّل المملكة إلى ولاية. والفقرة التي ذكرناها من قبل، والتي وردت في مكتوب رسمي حرره أوكتاف بنفسه[135]، لم يرد فيها اسم موريطانيا من بين ولايات الغرب التي كانت خاضعة له سنة 32 ق.م[136]. وكذلك، فإن ديون لم يوردها من بين الولايات الموجودة في سنة 27 ق.م.

ومع ذلك فإنها كانت تحت نفوذ أوكتاف، وذلك ما يشهد به ديون[137]، وربما تشهد حتى النقود الإفريقية التي نقش عليها «الإمبّراطور قيْصر Imperator Caesar» والتي يظهر أنها كانت متداولة في البلاد آنذاك. كيف كانت تستعمل هذه السلطة ؟ هل كان هناك واليان اختيرا من طائفة الفرسان، يقيم أحدهما بالمملكة السابقة لبوكوس، والآخر بمملكة بوگود ؟ هذا مجرد افتراض، ليس لدينا معلومات بشأنه.

أسس أوكتاف بموريطانيا اثنتي عشرة مستعمرة. ولم يذكرها في التقرير الرسمي لحكمه، لأنه دون شك لم يؤسسها في ولاية رومانية حقيقية. ونحن نعرف هذه المستعمرات عن طريق بعض النقوش، وعلى الخصوص عن طريق پْلين الشيخ الذي استمد معلوماته من وثيقة أو وثيقتين إداريتين.

ونعتقد أنها كلّها أُحْدِثت بين سنة 33 وسنة 25 ق.م، أي في عهد كانت فيه موريطانيا تابعة عمليا للدولة الرومانية. ومنذ سنة 25 عادت مملكة، أي بلدا أجنبيا إذن، فيصعب علينا قبول كون المستعمرات تؤسس به. وكان منها مستعمرات دعيت باسم اليوليوسية الأغسطوسية Julia Augusta، فلابد أن تاريخها يرجع لسنوات 27-25. أما الأخرى التي لا توصف إلا بأنها يوليوسية Julia فهي سابقة عليها، إلا أن يكون الوصف بالأغسطوسية Augusta قد أهمل ذكره في الوثائق التي بين أيدينا. ونعرف أن اثنتين من هذه المدن، هما : صَلْداس Saldas وتوبوسوبْتو Tubusubtu قد سُجّلتْ لقبيلة أرنانْسيس Arnensis اللاتانية، وإن أربعة أخرى وهي روسْگوني Rusguniae، وگونوگو Gunugu، وكَرْطِناس Cartennas، وزوكَبار Zucchabar، قد سُجلت لقبيلة كْويرينا Quirina اللاتانية أيضا.

تأسست في مملكة بوكوس ست مستعمرات بأمكنة بحرية، كانت توجد بها مدن. وهي : 1- أيگيلْگيلي Igilgili (جيجلي)، 2- صَلْداس (بجاية). وكان بها وبالتي تليها محاربون قدماء من فيلق يحمل الرقم السابع(137)، 3- روصازوس Rusazus (هي أزِفون Azeffoun بساحل أرض القبائل الكبرى). 4- روسْگوني Rusguniae (برأس ماتيفو في مدخل خليج مدينة الجزائر). 5- گونوگو gunugu (بالقرب من گورايا، غربي شرشال)، وهي مستعمرة كونتها فرقة من الحرس البريطوري. 6- كَرْطِناس Cartennas (تنيس) كان بها محاربون قدماء من فيلق يحمل الرَقم الثاني. كما كان هناك ثلاث مستعمرات أخرى بداخل البلاد، هي :

1– توبوسوبْتو Tubusubtu (وهي تيكلت بالجنوب الغربي لِبْجاية، في وادي سومام) في مكان يمكن منه مراقبة القبائل الكبرى والصغرى في آن معا[138].

2 – أكْواي Aquae، (هي حمّام ريغَة بجنوب الجنوب الشرقي لشرشال)، وكانت مياهها المعدنية مشهورة منذ العهود القديمة.

3– زوكَبار Zucchabar (هي مَلْيانة) في موقع يشرف على وادي شليف.

وفي مملكة بوگود كانت :

1– زوليل Zulil (إصلاحها : زيليس Zilis ؟) على ساحل المحيط بين تِنْجي (طنجة) وليكْسوس، في أزيلة، المكان الذي كانت توجد به مدينة فينيقية [139].

2– بابا Babba بداخل البلاد، ومكانها غير معروف بدقة، (ولكنها كانت في ناحية وزّان بالجنوب الشرقي من ليكْسوس التي كانت تتصل بها بابا على ما يظن)[140].

3– بَناسا Banasa في سيدي علي بوجْنون على نهر سُبو، وكانت في ناحية الشمال تتصل بتِنْجي وليكْسوس وزيلي، كما تتصل في الجنوب الغربي بِسَلا (على مصب نهر بورگْراگْ)، وفي الجنوب الشرقي تتصل بڤوليبِليس Volubilis المدينة المهمة القريبة من مكناس (وَليلي).

وفي أماكن أخرى، يحتمل أن يكون بعض المواطنين الرومانيين قد أتوا باختيار منهم ليقيموا بالمراكز الأهلية. ويمكن أن نفرض أنهم حيثما

كثر عددهم، كانوا يتجمعون ليكوّنوا جاليات Conventus، كما حدث في ولاية إفريقيا في العهد الجمهوري.

وقد بقيت هذه المستعمرات كجيوب في أراضي يوبا الثاني وابنه بطلمي Ptolémée. وذلك بعد أن أعيدت مملكة موريطانيا إلى الوجود سنة 25 ق.م. وتذكر وثيقة نقلها پْلين أن إحدى هذه المستعمرات، وهي زيلي، كانت قد نُحّيت عن سلطة الملكين، وربطت إدارياً بولاية بيتيكا La Bétique الإسبانية، ولعل الأمر كان كذلك بالنسبة للمستعمرات الأخرى. ونعرف أيضا عن طريق پْلين أن الإيكوزيطاني Icositani، وهم المواطنون الرومانيون الساكنون في إيكوزيوم Icosium (مدينة الجزائر) كانوا مرتبطين بمستعمرة إيليسي Ilici بإسبانيا القريبة. والراجح أن هذه الارتباطات يرجع عهدها بالنسبة للمستعمرات إلى نفس العهد الذي تأسست فيه بمنطقة لم تكن ولاية.

ولماذا قام أوغسطس في سنين قليلة بإنشاء هذه الجماعات الرومانية الكثيرة ؟ لقد كان يبحث في كل جهة عن أمكنة يستطيع أن يُسكن فيها محاربيه القدماء، ولابدّ أنه كان سعيدا بأن وجد رهن إشارته أرضاً يسهل عليه أن يستولي فيها على الأراضي الضرورية. وقد وقف المشيرون عليه في اختيار المواقع. فكل هذه المستعمرات كانت محاطة بالأراضي الخصبة، كما أن أكثرها أقيم قرب المدن الفينيقية أو البونيقية. وكانت هذه المدن العتيقة يعيش بها سكان متحضرون على العموم، فيمكنهم أن يتخذوا أخلاق القادمين الجدد من غير نفور كبير ولا عناء. وفي رأي الأمير لابد أن هذه المستعمرات تكون منارات تشع منها الثقافة الإغريقية اللاتانية، كما يكون الكثير منها مراكز مراقبة ومعاقل تراقب منها رومة الأهالي وتوقفهم عند حدهم. فمواقع توبوسوبْتو،

الثقافة الإغريقية اللاتانية
تراقب منها رومة الأهالي وتوقفهم عند حدهم. فمواقع توبوسوبْتو،

وزوكَبار وبَناسا[141] كان لها من القيمة الستراتيجية على الأقل ما يضاهي فوائدها الاقتصادية. ولاشك أن أوغسطس قرر العزم، بمجرد وفاة بوكوس، على تهيئ ضم موريطانيا نهائيا إلى الإمبراطورية الرومانية.

ولكن، عوض أن يحولها إلى ولاية، فإنه بعد ثمانية أعوام جعل منها مملكة من جديد لفائدة ابن يوبا، «الباربار» الذي حلم في كبريائه الخرقاء بطرد رومة من إفريقيا.

الكتـاب الثاني

أفريقيا عند قيام الإمبراطورية

نهاية الممالك الأهلية

الفصل الثاني

يوبا الثاني، ملك موريطانيا

1

إنها لشخصية محببة، شخصية يوبا الثاني الذي تولى الملك بموريطانيا قرابة نصف قرن. وقد كانت له مشابهة بمعاصره هيرود الكبير Hérode le Grand، ملك يَهودا La Judée إذ كان كلاهما تابعا طيّعاً لرومة، ومغرما بالحضارة الإغريقية وكلاهما أحب الترف المتشح بفتنة الفن. أحدهما جعل الكاتب الشهير نقِولا الدّمَشقي Nicolas de Damas صديقه ومستشاره والمحامي عنه، والآخر أحب أن يكون بنفسه عالما وأديبا. كان هيرود بالتأكيد سياسيا مرنا وأكثر مهارة. كما اجتمعت فيه الشجاعة الكبيرة بميزات القيادة، وذلك ما كان ينقص يوبا. لكن، بين الطاغية الأسيوي المتجلل بأشنع الجرائم، وبين الرجل الإفريقي الطيب العالم، فإن عاطفتنا تميل مع هذا الأخير.

هو ابن يوبا الأول، ولد على الأرجح حوالي سنة 50 ق.م. فكان لا يزال صغيرا جدا سنة 46. ونذكر أن الملك النوميدي يوبا الأول أثناء محاربته لقيْصر، كان قد ترك أسرته في عاصمته زاما، وأنه لم يستطع بعد اندحاره أن يسترجع الأسرة، فوقعت في يد الدكتاتور الذي جاء إلى زاما. ونحن نجهل مصير أبناء الملك الآخرين. أما الابن الذي كان يحمل اسما مثل اسم أبيه فإنه اقتيد إلى رومة حيث مر في موكب النصر الإفريقي لقيْصر.

فبقي في إيطالْيا، ورُبِّيَ بعناية أوكتاف، على غرار بعض الأمراء الآخرين الذين جيء بهم من المشرق ليكونوا رهائن وليتدربوا على دورهم كمَوالي لرومة. وأنعم أوكتاف على النوميدي بحق المواطنة الرومانية، فاتخذ اسم حاميه ولَقَبه : كَيوس يولْيوس Caius Julius وأطلقها من بعد على عتقائه وإن كان - هو - لم يحملهما بعد أن تلقّب بالملك Rex Juba. وفي عهد مُلكه لموريطانيا تقلد من إسبانيا لقب مثنى Duumvir، أسبغه عليه كل من الجماعة المشاركة بگادِس (قادس)، ومستعمرة «قرطاجة الجديدة» Carthago nova [142]. وهذا المنصب لم يكن يناله سوى المواطنين الرومانيين. وأعطى ابنُه بطُلمي Ptolémée لعتقائه إسم كَيوس يولْيوس Caius Julius الذي ورثه من أبيه، وكان هو أيضا مثنى بقرطاجنّة Carthagène.

ويذكر دِيون كاسْيوس من غير تفصيل أن يوبا حارب مع أوكتاف[143] فلعل ذلك حدث بالمشرق أثناء الحرب ضد أنطوان وكيلوبترا، إذ غادر اوكتاف رومة للمشرق في ربيع سنة 31، ولم يعد إليها إلا في شهر غشت من سنة 29 ق.م، وربما حدث في إسبانيا التي أقام بها الإمبراطور أوغسطس مدة سنتين (26-25)، وحاربت فيها

جيوشه الأشْتوريين والكَنْطَبْريين. ويخبرنا نفس المؤلف أن يوبا نال بعد هذه الحرب من أوغسطس مملكتي بوكوس وبوكود[144].

لقد أراد البعض أن يجد في دِيون گاسْيوس، وسترابون مسوغا للاعتقاد بأن يوبا، كان قبل توليه الملك بموريطانيا قد ملك أو كانت له سلطة لمدة بضع سنين بنوميديا، حيث سبق أن كان أبوه ملكا. لأن دِيون بعدما روى قصة موت أنطوان وكيليوبترا ملكة مصر (سنة 30 ق.م) تحدث عن مصير أبنائهما، وقال إن بنتهما كيلوبترا قد تزوجت بابن يوبا، يوبا الذي أعطاه أوغسطس ملك أبيه[145]. وفي نص آخر أوردناه من قبل غير كامل، ذكر دِيون[146] أن أوغسطس أعطى ليوبا بعد حرب أسبانيا قسما من أرض الجيتوليين Gétulie عوضا عن الأراضي التي كان أبو يوبا يملكها، وذلك لأن جل هذه الأراضي كانت قد ضُمّت إلى الإمبراطورية الرومانية، كما أعطاه مملكتي بوكوس وبوكود. ويؤكد سترابون من ناحيته أن أوغسطس أعطى ليوبا مملكتي بوكود وبوكوس، زيادة على مملكة أبيه.

ولكن هذه النصوص لا تسمح بالنتائج التي استُنتِجت منها. إذ المؤكد فعلا أن يوبا لم يكن ملكا قبل سنة 25 ق.م، وهي السنة التي حاز فيها موريطانيا، لأنه على ما سنرى كان يعدّ سنوات ملكه ابتداء من هذا التاريخ. فهل يكون أوغسطس بعثه إلى إفريقيا، لا كملك، وإنما كموظف؟ الأمر الذي كان بمستطاعه أن يناله نظرا لكونه مواطنا رومانيا : كأن يكون واليا على قسم من المنطقة التي سبق أن كانت مملكة لأبيه[147]. لكن يظهر أن هذا الافتراض غير مقبول، لا هو ولا افتراض الملك الحقيقي. إذ لم يكن بمستطاع الإمبراطور أن يجعل تحت سلطة يوبا منطقة حازها سِتّيوس ورفقاؤه، وكونت المنطقة الواسعة لمستعمرة

رومانية، هي سيرتا، ثم ضُمّت إلى الولاية المجاورة، وكان بين هذه المنطقة وولاية «إفريقيا القديمة»، ولاية «إفريقيا الجديدة» التي أحدثت سنة 46 ق.م، والتي كان لها في أول الأمر حكامها من أعضاء مجلس الشيوخ ثم ضمت إلى الولاية القديمة، ولم تُفصل عنها لفائدة يوبا، بدليل أنها، أثناء توزيع الولايات سنة 27 ق.م بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، أعطيت للمجلس كما أعطيت له الولاية القديمة التي اندمجت فيها الجديدة نهائيا. وقد تساءل البعض هل لم ينل يوبا الأراضي الواقعة غرب منطقة السِّتّيين أي منطقة سْطيف ومْجانة ؟ لكن يكفي لدحض هذا الافتراض أن نلاحظ أن هذه المناطق لم تكن على ملك يوبا الأول، وأنها كانت في عهد هذا الأمير جزءاً من مملكة مسِنيسّا، وأنها ألحقت بعد ذلك بمملكة بوكوس، وهي المملكة التي لم تؤل ليد يوبا الثاني إلا في سنة 25 ق.م.

إذن فنحن لا نعتقد أن أوغسطس قد بعث يوبا إلى إفريقيا قبل سنة 25 هذه. وكلام ديون وسترابون لا يؤكد عكس هذا مطلقا. فديون لم يقل: بمجرد موت كيلوبترا أو بعد موتها بقليل خاز يوبا من أوغسطس ملك أبيه، أي الرتبة الملكية التي كانت لأبيه. وهذا النص يمكن التوفيق بينه وبين النص الذي ذكر فيه ديون أن يوبا نال سنة 25 – لا قبلها – مملكتي بوكوس وبوكود، ونال معهما قسما من أرض الجيتوليين عوضا عن أراضي أبيه. وفعلا فإن أوغسطس لم يكن بمستطاعه أن يعطيه هذه الأراضي، أو أن يعطيه – على الأقل – ما كان منها قد تحول إلى ولاية. هذا حسب رأينا، هو معنى النص الثاني لديون أما سترابون فإذا قال إن أوغسطس أعطى ليوبا الثاني مملكتي بوكود وبوكوس زيادة على مملكة يوبا الأول، فإنه لم يقل بأن الأمر يتعلق بعطاءين اثنين وقعا في

وقتين مختلفين، وكيفية تعبيره توضح بنفسها أنه كان يعتقد أن الممالك ثلاثتها أعطيت في وقت واحد. ولقد أخطأ في هذا، لأن أفضل قسم من مملكة يوبا الأول السابقة، كان قبل 25 وبقي بعدها ولاية رومانية. ولكن سترابون لا يخطئ كثيرا إذا كان يوبا الثاني قد حاز من أوغسطس - كما سنبين من بعد - بعضا من الجيتوليين الذين كان يوبا الأول يزاول عليهم سلطته أو يدعي مزاولتها عليهم.

ففي خريف سنة 25 ق.م لاشك، نال يوبا لقب ملك ونال مملكةً بإفريقيا، وجاءته هذه الهبة من الإمبراطور بعد الحرب ضد الأشتوريين والكنطبريين. وعلاوة على ذلك فإن التاريخ الذي يذكره ديون يتأكد بحجج أخرى.

كثيرا ما تذكر نقود يوبا (وذلك ابتداء من السنة الثلاثين) سنة الملك التي ضربت فيها تلك النقود. وأعلى رقم يقابلنا هو رقم 48، والقطَع التي تحمله ليست قليلة وكذلك القطع التي تذكر السنوات المتِقدمة عليه. لذلك، يمكننا أن نقبل بأن رقم 49 والأرقام التي بعده غير موجودة. ويمكن القول أن فقدانها ليس راجعا لصدف الاكتشافات الأثرية، بل السبب هو أن يوبا لم يتملك أكثر من 48 سنة. وقد كان على قيد الحياة في بداية 23 ميلادية، إذ يذكره تاسيت Tacite أثناء عرض سريع عن الأحوال العسكرية للإمبراطورية في ذلك الحين(148). ونقرأ لنفس المؤرخ أن سفارة قدمت عند نهاية صيف سنة 24 م وكان مجلس الشيوخ هو الذي بعثها لتحمل إلى بطلمي ملك موريطانيا ميزات الملك والحليف والصديق. وكان هذا العمل اعترافا رسميا جاء عقب توليه الملك ببضعة شهور، شاهد بطلمي فيها ثورة بعض من رعاياه عليه، كما شارك خلال تلك الشهور في حرب كان الرومانيون يخوضونها. وعلى

هذا يكون بطلمي في نهاية 23 أو في بداية 24 قد خلف أباه أو - على الأصح - حاز وحده الملك بعد موت أبيه يوبا، لأنه كان شريك أبيه فيه منذ ثلاث أو أربع سنين. إذن، فسنة 48 من ملك يوبا تكون بدايتها في خريف سنة 23، وفقا لما يذكره دِيون، إذا انطلقنا من خريف سنة 25 ق.م.

وهناك نقود تذكرنا بالانتصارات، أو بما يزعم أنها انتصارات ليوبا، تؤدي بنا لنفس النتيجة. وهي مؤرخة بسنتي 31 و32 اللتين استمر فيهما ضرب النقود التي من طراز السنة السابقة، ومؤرخة كذلك بسنتي 43 و46. فإذا أخذنا بالمطابقة في السنين بين 6-7، 7-8، 18-19، 21-22 بعد الميلاد يمكننا أن نجعل الصلة بين هذه النقود وبين الحروب الإفريقية التي جرت في سنة 61، وجرت كذلك بين 17-22م. وكانت مشاركة يوبا في هذه الحروب مؤكدة او محتملة جدا.

ونحن نعلم أن مملكة بوكود كان تشمل شمال المغرب، وتصل بناحية الشمال الشرقي إلى مصبّ نهر مُلوشا (مَلْوِية)، وأنها إحدى المملكتين اللتين وهبهما أوغسطس ليوبا، واللتين كانتا من قبل قد تجمعتا بضعاً من السنين (من 38-33 م) في يد بوكوس. أما مملكة بوكوس فكانت تشتمل على ما بين مُلوشا وأمبْساگا الذي يصب في البحر بالشمال الغربي لقسنطينة. وعلى هذا فمصب نهر أمبساگا كان يمثل الحدّ الشرقي لأراضي يوبا. وبالفعل فإن خريطة أگْريپا Agrippa التي كتبت في عهد هذا الملك ذكرت الحد الشرقي لموريطانيا في هذا المكان. إلا أن سترابون يذكر أن ميناء صَلْدا، وهو بْجايَة اليوم، هو الحدّ بين المنطقة الخاضعة ليوبا والمنطقة التي بيد الرومانيين. وفي هذا خطأ. ذلك أن بين صَلْداس (صَلْدا = بْجايَة) وأمبْساگا كانت توجد إيگِلْگيلي (جيجْلي) التي هي مستعمرة أنشأها أوكتاف في موريطانيا

بعد موت بوكوس، وبقيت المستعمرة كجيب روماني في مملكة يوبا وبْطُلمي، لأنها كان يؤرخ فيها من بعد كما في بقية موريطانيا بتاريخ كانت بدايته هي ضمّ المملكة إلى الإمبراطورية الرومانية سنة 40 بعد الميلاد. وكذلك بالنسبة لسْطيف بالجنوب الشرقي لبْجاية والجنوب الغربي لِجيجْلي، ويخبرنا أَحد النقوش(149) أن يوبا كانَ لايزال يُعْبَد حتى القرن الثالث الميلادي بناحية مْجانة، غربي سْطيف. فيحسن الاعتقاد بأنه كان ملكا بهذه الناحية التي صار فيها إلاهاً.

أما بالساحل المحيطي فقد استولى على جزيرة «الصويرة» والجزر الصغيرة التي هناك. ولعل عدد 467 ميلاً الذي ذكرت خريطة أَكْريپا أنه سعة أرض موريطانيا - جيتوليا، قد أوصل المقياس إلى هذا المكان. ولكن من المشكوك فيه أن يكون كل الساحل الممتد من «سَلا» إلى «الصويرة» قد خضع ليوبا فعلاً.

أما بداخل البلاد، فيما وراء الأراضي الصالحة للزراعة، فإن يوبا الثاني كان يعدّ الجيتوليين من بين رعاياه(150) وهناك نصوص - وإن كانت في الواقع غامضة ولا يُطمأن إليها كثيرا - تذكر أنه، زيادة على مملكتَيْ بوكوس وبوگود، قد حاز من أوغسطس أراضي شاسعة في بقية إفريقيا(151) أو تذكر أنه حاز قسما من جيتوليا(152)، أو إنه حاز المناطق التي كانت على ملك أبيه(153). إذن، فيمكن أن نفرض أن الإمبراطور تخلى له عن السكان الذين كانوا يحيون حياة الرحّل بجنوب إفريقيا الرومانية، في شرق الجزائر وبجنوب تونس : ففي هذه الناحية كان يعيش الجيتوليون الذين ثاروا سنة 6 للميلاد ضد يوبا واضطرت رومة لمحاربتهم دفاعا عن منطقتها لاشك. وعلى غرار ما وقع عند إحداث ولاية إفريقيا سنة 146 ق.م، فإن دولة أهلية واسعة الأطراف كانت وكأنها منطقة حماية الأراضي الرومانية. أما منطقتَيْ سدرة الكبرى والصغرى

فإنها على ما يظهر قد ضُمّتا إلى سيرنيكا التي كانت تابعة لها خلال قسم من عهد أوغسطس.

فالإمبراطور إذن، كان ينهج في إفريقيا سياسة جديدة. فقد عدل عن الاستيلاء على موريطانيا، ذلك الاستيلاء الذي كان يظهر أنه وشيك الوقوع بإحداث المستعمرات الاثنتي عشرة في مملكتي بوكوس وبوكود. وفي حالة قبول الفرض الذي عرضناه يكون الإمبراطور قد أغلق من ناحية الجنوب المنطقة الرومانية بحدود مشتركة مع مملكة صديقة، حدود قد لا يقع تعديها ما دامت هذه المملكة موجودة.

وقد كان أوغسطس يريد أن ينقص من عدد جيوشه، كما كانت عليه واجبات عسكرية ضخمة تدعوه للقيام بها في أوربا وآسيا، فرآى من الأنسب أن يجد من مطامحه وجهوده بإفريقيا، فاحتفظ فيها بالولاية التي كان قَمْحها ضروريا لعاصمة العالم، والتي تتقدم في اتجاه صقلية، كأنها حيد(154) بين حوضي البحر الأبيض المتوسط، فتضمن للرومانيين إلى حد كبير السيادة عليه. ولكنه كان يخول لملك من الموالي دورا مهما في الدفاع عن هذه الولاية.

وتنبه أوغسطس من ناحية أخرى إلى أن موريطانيا تسكنها شعوب متأخرة، جموح وجافية على العموم، فهي تستلزم وجود جيوش كثيرة لاحتلالها، كما تستلزم من النفقات أكثر مما ستردده من ريع. فكان من الأفضل تسليمها لأمير أعطى البراهين على إخلاصه وربما له من مهارة تفوق ما للموظفين الرومانيين الذين يجهلون الأرض وأهلها، يستطيع أن يستعمل مع رعاياه وسائل الحكم القمينة بإبقائهم في نطاق السلم والزيادة في تمدنهم شيئا فشيئا. وحيث أن بعضا من المستعمرات قد أحدث في هذه الناحية من إفريقيا، فسيحتفظ بها ولكن مع استقلالها

عن الملك، بضمها إلى أسبانيا الرومانية. ويكون واجب العاهل الجديد هو حفظ سلامة هذه المستعمرات، وتنمية ازدهارها الاقتصادي. كان هذا هو نظام الحماية الذي طبقه أوغسطس على موريطانيا. وربما كان هذا لتهيئ الاستيلاء عليها إذ كان من المفهوم أن هذه المقاطعة يمكن لروما أن تسترجعها لأنها هبة منها. ولكن الاستيلاء سيقع في وقته المناسب من غير سرعة طائشة ولا نافعة. وكان هناك سؤال، وهو : هل يكون يوبا وخلفاؤه من بعده قادرين على تحمل العبء الذي أنيط بهم ؟

2

إن النقود التي عليها صورة يوبا لاتعرّفنا به تعريفا صادقا. ونظرا لما فيها من عدم الإتقان ولسقم صنعها في الغالب، فهي تقدمه لنا في مظاهر مختلفة. ولاشك أن الصانع لم يهتم بإظهار المشابهة. فالصورة التي تمثله في أواخر عهد ملكه، وقد كسي رأسه بجلد الأسد، تبدو عليها تقاسيم الشباب، مع أن الملك كان في الستين من عمره ويظهر فيها متسما بكثير من المثالية، كما يليق بامْرِئ صُوِّر بصورة هِرْكول.

غير أن بعض النقود – خصوصا من البرنز – تقدم لنا عنه صورة متقنة إلى حدٍّ ما، بحيث يمكن أن نعتقد أنها مطابقة وهي تساعدنا على أن نعرف يوبا في كثير من الرؤوس المرمرية المعصوبة بالعصاب الملكي. وقد اكتشفت في شرشال حيث كانت عاصمته. وهذه الرؤوس أجزاء من بعض التماثيل.

وتقدمه لنا هذه المنحوتات في أطوار مختلفة من حياته، كما تقدمه لنا أكثرها سلامة في الخامس والعشرين وفي الستين تقريبا من عمره. وكان شَعره القوي، وخصلاته القصيرة الكثة، غير المنسقة يحيط بوجه

حليق، لأن يوبا قد تخلى باتخاذه الطريقة الإغريقية الرومانية عن اللحية التي كان يحملها أبوه وأجداده وجل رعاياه. كما تخلى عن تشبيكات الشعر المعقدة وعن هذه الصفوف من الخرصان المتقابلة التي كان يهواها الموريون والنوميديون. وكان في شبابه ذا تقاسيم منسقة ولا تخلو من رشاقة. ولكن جثته ضخمت بعد ذلك، واستدار وجهه بعد أن كان بيضوي الشكل، ولاشك أن فقدان بعض الأسنان شوه الفك السفلي قليلا. ورغما عما قيل، فليس هذا فَقَماً Prognathisme ينبئ بوجود للدم الزنجي فيه. أما الجبين فعالٍ وواضح، والعيون واسعة، والشفتان قويتان قليلا، كما عند كثير من الأفارقة. وكذلك السحنة فإنها جادة ورزينة، هادئة وطيبة. ومع السنين زادت ليونةً حتى أن يوبا في الستين من عمره كان أشبه بعالم طيب منه بملك قوي.

ولم يَهِبْه أوغسطس الـمُلْك فحسب، بل وَهَبه زوجة كذلك، هي كيلوبترا سِليني Cleopâtre Séléné بنت كيلوبترا الشهيرة ومارك أنطوان المثلث le triumvir، وقد ولدت على الراجح سنة 40 ق.م مع أخيها توأمها إسكندر، الذي سُمي هيليوس Hélios (الشمس)، كما سميت هي سِليني (القمر) وقد اعترف بها أنطوان بنتاً له عند زواجه بالملكة سنة 36 ق.م وبعد ذلك بسنتين قرر أن تكون ملكة على سيرنيكا. وبعد موت أبويها وقعت في يد أوكتاف، وعمرها إحدى عشرة سنة ومرّت في الموكب الذي احتفل فيه القائد الغالب يوم 15 غشت سنة 29 ق.م، تخليدا لانتصاره على «مصر وكيليوبترا» فكفلتها أوكتاڤي Octavie أخت أوكتاف، الزوجة التي هجرها أنطوان ثم طلقها، وربّتها مع الأطفال الآخرين الذين أنجبهم أنطوان من زوجاته الأخريات، ويقال أن أوكتاڤي هي التي طلبت من أخيها أن يزوج بنت كيلوبترا المصرية لابن يوبا النوميدي لأن هذا

الأمير وهذه الأميرة قد يصبحان خديمين وفيّين للعظمة الرومانية، بعدما سبق لهما أن اتخذا أمام عربات موكبِ تمجيدِ قيْصر وأوكتاف، مكانَ أبٍ وأمّ غُلبا وماتا موتا فاجعا.

وهناك نص لديون كاسْيوس لم يفهم صحيحا[155] دفع بالبعض لأن يفرض أن سيليني تزوجت يوبا بعد موت أمها بقليل، وهي لم تبلغ بعد سن الزواج. والحق أنه لابد من القول بتاريخ متأخر عن ذلك، إذ توجد قطعة نقدية ضربت في السنة السادسة للملك (20-19 ق.م) وعلى أحد وجهيها صورة يوبا واسمه، وعلى الوجه الآخر صورة كيلوبترا واسمها. وهذه القطعة هي وحدها التي تحمل تاريخا قبل السنة الثلاثين للملك، فلابد أنها أعملت للاحتفال بحادث مهم جدا في حياة الشخصين المصورين عليها، وهو زواجهما.

وقد أراد البعض أن يردّ لهذا الزواج أبياتاً من الشعر وصلت إلينا باسم كْريناگوراس الملاطي Crinagoras de Mytilène الشاعر الذي كانت له حظوة عند أوغسطس وأسرته الإمبراطورية، غير أن هذا الشعر قصد به أميراً وأميرة كانا يحكمان مصر وليبيا حقيقة، ويخلفان لذريتهما هاتين المملكتين اللتين انضمت إحداهما للأخرى، لكن مصر في سنة 20 كانت قد انتزعت منذ عشر سنين من يد الأسرة البطلمية وتحولت إلى ولاية رومانية، ولم يكن هناك من يسمح لنفسه أن تتمنى انتهاء ذلك الوضع. إذن، فقد عزيت هذه القطعة الشعرية عن خطأ إلى كريناگوراس، لأنها أكثر قدما، وكان المقصود بها على الراجح هو بطلمي الثالث أقِرْجيتْ Evergète Ptolémée III ملك مصر وبِيرِنيس Bérénice ملكة سِيرنيكا (أواسط القرن الثالث ق.م).

إن المرأة التي أعطاها أوغسطس لمحمية لم تكن من ربات الحجال، بل كانت ملكة حقا، ولها حاشيتها. فقد كانت ملكة لأنها زودت بالسلطة الملكية، وليس فحسب لأنها صارت زوجة ملك. إذ تظهر فعلا وقد أشركت رسميا مع يوبا وحملت على رأسها الإكليل الذي هو شعار الملك. وغالبا ما وصفت بالملكة على النقود التي يظهر عليها اسمها في الأغلب مع صورتها. وهو شرف لا يسمح به عادة للملكات اللواتي لا يتمتعن بأي حق سياسي. وبعض هذه النقود يقدم لنا على الوجه رأس يوبا واسمه، وعلى الظهر رأس كيلوبترا واسمها أو اسمها فحسب يصحبه بعض الرسوم. وهذه أدلة على اشتراك الملكين. ونجد على بعض القطع النقدية الأخرى رأس كيلوبترا واسمها على الوجه وعلى الظهر رسوما مختلفة. أما الملك يوبا فلم يرسم ولم يذكر لا على وجه القطعة ولا على ظهرها. فالملكة في هذه الحالة استعملت حقها في سك النقود من غير أن تقاسم فيه شريكها، على أن يوبا قد فعل مثل ذلك. ونحن نجهل هل طالبت بالتدخل في شؤون الدولة كما يخولها ذلك صفتها الملكية أم أنها اكتفت باللقب وتركت لزوجها مزاولة السلطة. وعلى كل حال، فليس هناك من برهان وجيه يدفعنا لقبول فكرة للتقسيم الترابي بين الزوجين.

أما الصور المرسومة على النقود، فيبدو عليها التقصير في الصنع إلى حد أنها لا تعرفنا هل كيلوبترا هذه ورثت أم لا من جمال أمها. فهي ترينا وجها منتسقا ولكن من غير ملاحة، وتبدو عليه في بعض الأحيان قساوة، ربما كان مردها إلى قلة إتقان النقّاش. ووقع العثور في شرشال في خرائب أحد المباني، الذي بني في عهد يوبا لاشك على رأس جميل من المرمر يرجع تاريخه - بالنظر لأسلوب نحته - إلى العهد الميلادي تقريبا. وهو معصوب بالعصاب الملكي ويمثل امرأة ذات وجه قاس

وصارم، بأنف محدب، وشفتين متبجحتين وسحنة هي أقرب إلى الرجولية. أما الشعر فمنسق في ضفائر متقابلة، تتدلى منه مجموعة من الخصل الصغيرة المجعدة بأناقة فوق الجبين وحول الصدغين. فهل يجب أن نرى في هذا الرأس صورة لكيلوبترا سلِيني ؟ ليس الأمر مستحيلا ولو أن تسريحة الشعر، التي تبدو بها الملكة عادة على نقودها تكون أقل تعقيدا. ولنعترف – إذا صح هذا الفرض – أن يوبا تقبل من أوغسطس امرأة مجردة عن كل ملاحة، وشرسة الطبع على ما يظهر.

وقد ولد له منها ابن ببضعة أعوام قبل ميلاد المسيح، وسمي بْطولِمايوس Ptolémaeus تذكارا لجد أمه.

ومتى كانت وفاتها ؟ لقد عثر أخيرا بالمغرب على كنز أخفي في سنة 17-18 بعد الميلاد، به كثير من القطع النقدية التي تحمل اسم كيلوبترا، ويبدو عليها مظهر الحداثة، فلعلها سُكّت قبل إخفائها بقليل. ولربما لزم أن نستنتج من هذا أن ليس أنّ كيلوبترا سليني كانت لا تزال حية في ذلك العهد، بل لقد توبع بعد موتها سك النقود باسمها وصورتها باستخدام المضربات القديمة أو بواسطة أخرى جديدة. وذلك مثلما وقع إصدار نقود بصورة مسنيساّ بعد موته بزمن طويل. وكذلك فإن سلِيني لم تُصور ولم يذكر اسمها مطلقا على النقود التي صور عليها يوبا بشكل هركول، بين سنة 35 و43 (أي بين 10-11 و18-19 من التاريخ الميلادي). وباستثناء الفلْس denier المؤرخ بسنة 6 والمعاصر لزواجها على ما يحتمل، فإنها منعدمة الذكر مع جميع النقود التي تحمل تاريخ سكها بين سنة 30 و48 من سنوات الملك (أي 5-6 و23-24 م) وسنرى أن يوبا تزوج گْلَفيرا Glaphyra عند بداية التاريخ المسيحي. فإذا كان تعدد الزوجات ليس سيئة عند الموريين، فإنه كان محرما على المواطنين

الرومانيين، وبالتالي على كيوس يوليوس يوبا. ومن ناحية أخرى هل كانت كيلوبترا سِليني – وهي مساوية ليوبا في المنزلة – تسمح أن يحتذي زوجها حذو أبيها مارك أنطوان الذي تزوج بكيلوبترا المصرية قبل أن يطلق أوكتاڤي ؟

نحن نعتقد إذن أنها توفيت بعد مولد بطلمي بقليل. ولاشيء يسوغ لنا إنكار نسبة أبيات للشاعر كريناگوراس، ربما قيلت تمجيدا لملكة موريطانيا. وهي أبيات كتبت على قبر امرأة اسمها سليني، أطرى الشاعر فيها جمالها ولطفها. وتناسب موتها مع حدوث خسوف للقمر في بداية إحدى الأمسيات. وقد حدث هذا الخسوف، حسب السيد أنصي Ancey، يوم 22 مارس سنة 5 ق.م[156]. لست متخصصا، فأثبت أن المناسبة مؤكدة أو لا، ولكنها على كل حال لا تتعارض مع المعطيات الأخرى للمشكلة.

ويعرفنا المؤرخ اليهودي يوسف[157] بزوجة أخرى ليوبا هي گْلَفيرا Glaphira بنت أُرْكيلؤوس Archelaus ملك قبادوقيا Cappadoce. فقد سبق لها أن تزوجت حول سنة 17 ق.م بالأسكندر ابن هيرود الكبير، ورزقت منه بعض الأبناء. ولما قتل الإسكندر بأمر أبيه هيرود عادت هي إلى أبيها ثم تزوجت يوبا ملك موريطانيا، ثم عادت إلى أبيها بعد موت يوبا كما يقول يوسف. وبعد ذلك تزوجت بأركيلؤوس وهو ابن آخر لهيرود وقد حكم أركيلؤوس مملكة يهودا La Judée برتبة أَثْنارك Athnarque من سنة 4ق.م إلى سنة 6 ميلادية، وفيها غادر آسية إلى غير عودة. أما گْلَفيرا Glaphyra فقد توفيت بعد هذا الزواج الثالث بقليل، إذن قبل سنة 6 ميلادية، ولربما أن الوفاة حدثت قبلها بعدة سنين. وعلى هذا، فزواجهما الثاني يقع قبل بداية العهد الميلادي بقليل أو بعدها بقليل. وقد انتهى

هذا الزواج سريعا بالطلاق، لا بموت يوبا، لأن الملك – خلافا لما ذكره يوسف – توفي بعد گْلفيرا بسبعة عشر عاما على الأقل. وهذه الأميرة لم تذكر ولم تمثل على النقود الموريطانية، فلم تكن لها إذن الامتيازات التي كانت كيلوبترا تتمتع بها. ولم تخلف وراءها بإفريقيا أي ذكرى، ولربما أنها لم تزرها أبدا. وقد فرض بعضهم – مع بعض الاحتمال – أن يوبا ذهب إلى المشرق وأقام به، بالضبط في العهد الذي يحسن جعل زواجه فيه مع گْلفيرا. ذلك أن كيوس قيْصر، حفيد أوغسطس الذي تبنى يوبا، ذهب إلى آسية في السنة الأولى قبل الميلاد، ومكث بها طويلا، وتوفي بها في شهر فبراير سنة 4 للميلاد. ومن الأعمال العظيمة التي كلفه أوغسطس بإنجازها، الحملة التي كانت مقررة عند البلاد العربية، ولكنها لم تقع في الأخير. وقد تكفل العلامة يوبا أن يكتب للقيْصر الشاب كتابا يزوده بجميع المعلومات الضرورية عن هذه المنطقة. وهناك ما يغرينا بقبول فكرة م. مُلَّر K.Muller القائلة بأن يوبا – حبا منه في توثيق معلوماته – قد صاحب گَيوس أو رافقه، فوجد گْلَفيرا وهي آنذاك أرملة بقصر أرْكيلَؤوس بِقبادوقيا. فانجذب لهذه المرأة الغريبة، الباهرة الجمال وإن كانت في سن متقدمة وتزوجها على ما يظهر. ولكن سَوْرة الحُب سرعان ما خمدت وعاد يوبا وحده إلى مملكته.

وإذا صحت نظرية هذا التغيب، فكيف كانت تحكم موريطانيا أثناءه؟ لا نستطيع الإجابة على ذلك. ولقد تساءل بعضهم : هل لم تنل كيلوبترا سليني الوصاية ؟ (وبعبارة أدق، هل لم تزاول بمفردها السلطة الملكية التي كانت تقاسم فيها زوجها رسميا أثناء حضوره ؟) وهل النقود التي سكتها لا تؤرخ بهذا العهد ؟ إن هذا الرأي لا يمكننا القبول به، لأن كيلوبترا – حسب رأينا كانت قد ماتت.

3

كان في هبة أوغسطس هذه المملكة الشاسعة للنوميدي الشاب المنفي في إيطاليا برهان كبير على تلطفه به. كما أن يوبا عبر له بجميع الصور عن اعترافه بالجميل الذي يتطابق في الحقيقة مع مصلحته.

أطلق يوبا - تمجيدا لقيْصر - اسم قيْصَرية Caesarea على مدينة يول Jol التي هي عاصمته. وأحدث عبادة الإمبراطور، الإمبراطور الحيّ، ولما توفي أوغسطس سنة 14 للميلاد تحولت العبادة إلى شخص تيبيرtibére ولكن دون ترك للتمجيد الواجب نحو الأمير الميت. وتوجد نقود لِيوبا تمثل مذبحا يحيط به إكليل، وعلى جانبيه شجرتان. وهذه صورة مصغرة لغابة مكرسة لأوغسطس، كما تدل على ذلك كلمة Lucus Augusti المكتوبة على القطعة. وعلى قطع أخرى نشاهد بنايات للعبادة الإمبراطورية، من ذلك معبد بستة أعمدة، وصورة عقاب داخل المثلث الذي بأعلى البناء وكلمة : «لأوغسطس» Augusti ، ومعبد آخر بأربعة أعمدة ونفس الكتابة، ومصلّى لهِ باب عال يحيط به عمودان والجبهة المثلثة بأعلى البناء يحليها عقاب (أو تاج)، وعلى الجانبين صورتان تمثلان «النصر»، أما القمة فيعلوها هلال، وعلى الإفريز كلمة : «لأوغسطس» Augusti أو «أوغسطس» Augustus . ويظهر هذا المصلى الأخير على النقود التي تحمل التواريخ الآتية : سنة 31 من المُلْك (الموافقة لسنة 6-7 للميلاد)، سنة 32 من الملك (أي 7-8 للميلاد)، وفي هذا العهد كان أوغسطس على قيد الحياة. ثم سنة 41 من الملك (16-17م)، وسنة 43 من الملك (18-19م)، أي بعد أن تولى الإمراطورية تيبير Tibère الذي أصبح يُقصد بلقب أوغسطس، أما سلفه فقد صار الإله أوغسطس.

وهناك صورة ترد بكثرة على نقود يوبا، حتى بعد موت أوغسطس، وترد كذلك على نقود بطلمي ابن يوبا. وهي صورة الجَدْي أو التيس Capricorne [158] الذي تمسك يداه كرة، وعلى أحد جانبيه دفة سفينة، وعلى الجانب الآخر قرن الوفرة Corne d'abondance وكلها رموز للسلطة التي تعرف كيف تضمن الازدهار للعالم، غير أن أوغسطس وُلد في برج الجدي، ولهذا فهذه النقود التي هي تقليد لنقود الإمبراطور، كانت تمجيدا له من ملك موريطانيا. أما العقاب الذي يمسك برميلا كبيرا بين مخالبه أو يمسك أحيانا تاجا بمنقاره فيمكن أن يكون أيضا تعبيرا عن نفس العواطف.

وقد أعطتنا تربة شَرْشال أدلة أخرى على اعتراف يوبا نحو المحسن إليه. من ذلك على الخصوص تمثال كبير من المرمر اكتشف أمام المسرح العتيق، وهو مبنى يظهر أن واجهته الطويلة كانت هي أقصى "الفوروم" Forum ويحتمل أن هذا التمثال كان قد نُصب في معبد يُطل على الفناء العمومي، إنه يمثل شخصاً متدرّعاً، يمدّ يده اليمنى في حركة الإمبراطور الذي يخطب على جيوشه، بينما تمسك يده اليسرى برمح لاشك. أما الرأس الذي نحت على حدة، فلم يعثر عليه، ولكن الصور التي تزين الدِّرع تشهد، حسبما أرى، أن هذا الإمبراطور هو أوغسطس. إذ نشاهد في الأعلى صورة نصفية لمارس أولْطور Mars Ultor الإله الذي انتقم لقتل يوليوس قيْصر أب الوطن وأب أوغسطس. ونرى أسفل ذلك على أحد الجانبين قيْصر مُؤلّهاً (الربّ يوليوس)، و«النصر» يُتوّجه، وعلى الجانب الآخر في مقابلة قيْصر، صورة لجدّة اليولْيوسيّين، ڤينوس جينتْريكْس Venus Genetrix، وڤيكتْريس Victrix أيضاً، وهي تمسك حُسَاماً وتُرساً، يصحبها «الحب» وقد تنكب قوساً. وهذا الأثر الجميل يذكّرنا أسلوبه وهيئته العامة، كما يذكّرنا انتظام الصور على الدرع

بالتمثال الشهير لأوغسطس الذي وقع اكتشافه في برلمان پورْتا Prima Porta والذي يُحتفظ به اليوم بالفتيكان. وهو خليق في آن معاً بكل من أوغسطس ويوبا.

وهناك تمثال آخر، أصابه تشويه كثير، يمثل رجلا جالسا، ونصف جسده عار. وقد أخذ من مبنى يحتمل أن تاريخه يرجع لعهد هذا الملك. ولحسن الحظ، احتفظ التمثال برأسه، ورغما عن كون الشبه فيه غير واضح، فإنه يحسن على ما اعتقد أن نرى فيه أوغسطس وهو في نحو الأربعين من عمره، أي حول أول عهد يوبا بالملك. ولنُشِر لرأس ضخم لعله أيضا كان يمثل أوغسطس، لقد كان هذا الرأس في أول الأمر عاطلا ثم حُلي بتاج من المعدن بعد موت الإمبراطور وتكريسه على ما يحتمل[159]. ونظرا لحجمه الكبير، فهو من تمثال لابد أنه كان منصوبا بمعبد كبير.

وأخيرا فقد عثر أثناء التنقيبات بشرشال على صورة جميلة لِـ لِيڤي Livie زوجة أوغسطس وأم تيبير.

وعدا هذا فإن عدة قطع نقدية ليوبا تحمل على ظهرها كلمة قيْصرية Caesarea التي يمكن أن تدل على عاصمته، ولكن لها لاشك معنى آخر حينما تكون محاطة أو مصحوبة بتاج، فهي تعني الألعاب التي تقام على شرف الإمبراطور. وحيث أن بعض هذه القِطع تشير إلى السنوات 30 و31، وتشير إلى 40 و41 من سني المُلك، (أي 6-7، و15-16، و16-17 للميلاد)، فقد افترض بعضهم أنها احتفالات كانت تقام كل عشر سنين أحدثت سنة 30، وأعيدت سنة 40، وكانت تطول مدة سنتين. وهذا الافتراض منقود جدا، إذ توجد أيضا قِطع نقدية أخرى مكتوب عليها كلمة قيْصرية داخل تاج، وعليها تاريخ سنة 32 و43.

4

لم يكن تبجيل قيْصر كافيا، بل كان لابد من أداء خدمات حقيقية له. فقد كانت مهمة يوبا هي أن يحدّ رعاياه المشاغبين، حتى يمكن للولاية الرومانية وللمستعمرات المبعثرة في مملكته، أن تنكب في أمن على أعمال السلام ولكن لم يحالفه النجاح في ذلك دائما، لأنه لقي مصاعب كبيرة من الجيتوليين، أولئك الرحّل النهابين، الذين حازهم في ملكه زيادة على الموريين، من غير أن يتمنى حكمهم على ما يحتمل.

في سنة 6 للميلاد أصبحت الحالة خطيرة. فقد كتب ديون كاسيوس «إن الجيتوليين اهتاجوا ضد يوبا، ورفضوا طاعة الرومانيين، وثاروا على الملك، وعاشوا في الأراضي المجاورة، وقتلوا عددا كبيرا من الرومانيين الذين حاربوهم وقد بلغوا من القوة إلى حد أن قهرهم أوجب لِكُرْنيلْيوس كُوسُس Coornelius Cossus حلي التمجيد وحمل لقب مشتق من أسمهم[160]. وكان كوسُس هذا بروقنصل إفريقيا آنذاك، ما لم يكن أوغسطس أسند إليه قيادة فوق العادة أوجبتها خطورة الظروف. ويخبرنا فلوروس Florus [161] أنه حارب الموسولام Musulames والجيتوليين (جيران خليجَيْ سدرة). ونحن نعلم بطريق روايات أخرى أن العشيرة الكبيرة للموسولاميين كانت تحتل المنطقة الواقعة في آن واحد بتونس وبالجزائر جنوبي نهر مجردة. أما الجيتوليون «جيران خليجي سدرة» فالراجح أنهم كانوا يجوبون البراري بجنوب تونس. وليس مؤكدا أن لقب الجيتولي Gaetulicus قد أطلق على كوسس بعد انتصاره، كما ذكر ذلك كل من ديون، وفلوروس. وعلى كل فلا يظهر أنه حمل هذا اللقب. أما ابنه كنايوس كُرْنيليوس لنتولوس CN. Cornelius lentulus فإنه تلقب به. ولربما كان قد شارك في الحملة بصفته مساعدا للقائد.

أما تحليات التمجيد التي نالها كوسُس، فقد نالها أيضا يوبا الذي لم يعرف كيف يمنع الجيتوليين من أن يثوروا، ولكنه لاشك ساعد بكل قواه الجيوش الرومانية. وهناك نقود ضربها يوبا في سنة 31 و32 من سنوات ملكه (6-7، 7-8 م) تمثل هذه المكافآت التي خولها مجلس الشيوخ للملك. وهي عبارة عن كرسي وصولجان من العاج وتاج من الذهب. وعلى نقود أخرى من نفس السنتين نشاهد «النصر» وهو يحمل سعف النخل وتاجا، وتحت قدميه رأس فيل.

ولكن أوغسطس فهم أخيرا أن سلطة يوبا الضعيفة كانت غير كافية لتفرض على هؤلاء «الباربار» احترام المنطقة الرومانية. فقبل نهاية عهده، كان المعسكر الذائم للفيلق المكلف بالدفاع عن إفريقيا، يوجد في أمابيدَرا Ammaedara (حيْدرا بالشمال الشرقي لتبسّة)، أي في قلب أرض الموسولام كما أن طريقا منحرفة اخترقت تونس الجنوبية وربطت أرضهم بقابس. وصدر الأمر للقيام بعملية واسعة لمسح الأرض، فكان الخطان الأساسيان في هذه العملية يلتقيان على مسافة قريبة من معسكر الفيلق وينتهي أحدهما قرب قابس. إذن، فالجيتوليون الذين كانوا يسكنون هذه المنطقة لم يكونوا من رعايا يوبا، بل كانوا تابعين للولاية، التي كانت في آن واحد تمتد نحو الجنوب، وتشمل على ما يحتمل بالجنوب الشرقي منطقة السدرتين التي فصلت عن سيرنيكا. وهذا معناه التخلي جزئيا عن نظام الدفاع الذي أحدثه أوغسطس – على ما نعتقد – سنة 25 ق.م في إفريقيا الشمالية.

وفي عهد تيبير اندلعت في هذه المنطقة ثورة كبرى، كان النوميدي تاكْفاريناس Tacfarinas هو رئيسها وقد دامت ثمانية أعوام، من 17 م إلى 24 م، عرفت أثناءها بعض أوقات الهدوء. وسنروي قصتها من بعد،

معتمدين على تاسيت Tacite ولكن يحسن أن نذكر هنا أن بعضا من رعايا يوبا شاركوا في هذه الثروة، وأن الملك الشيخ وجد فيها مناسبة للاحتفال بانتصارات مزعومة.

وفي سنة 17 م، ثار بعض الموريين بقيادة شخص يدعى مازيبا Mazippa وأصغوا إلى الموسولام الذين كان تاكفارناس قد ثار بهم. وانتشرت جموعهم للقيام بالمهاجمات مع خفة الحركة التي يقدر الأفارقة عليها. وانضم آخرون إلى تاكفارناس، فانتصر عليهم البروقنصل فورْيوس كَميلوس Furius Camillus في معركة منظمة[162]، ونال تحليات التمجيد. وقد أهمل تاسيتْ Tacite أن يذكر لنا النصيب الذي ساهمت به جيوش يوبا في هذه الحملة وفي الحملات التي عقبتها على عهد البروقنصل أبْرونْيوس Apronius (18-21 م) عادت للظهور على نقود الملك صورة النصر وهو يحمل سعف النخل وتاجا. وفي سنة 46 من الملك (21-22 م) ضرب يوبا نقودا جديدة مماثلة ومغايرة حيث يشاهد فيل يحمل تاجا بخرطومه. والملك في بعض من صوره التي يظهر أن إحداها على الأقل ترجع لهذا العهد، يرى معصوب الرأس بإكليل من الغار. ومع ذلك فإنه لما مات، لم تكن رومة ولا هو قد توصلا لقهر تاكْفارِناس وحلفائه بعد.

لقد كان يوبا في السِّلم أسعد حظا منه في إبّان الحرب، بحيث يظهر أنه نجح في توفير بعض الازدهار لقسم من رعاياه.

لقد كان تأسيس مدينة يول Iol، واسمها اليوم شرشال، من عمل الفينيقيين أو القرطاجيين، وقد ورد اسمها في أواسط القرن الرابع ق.م، وأقام بها بوكوس. أما يوبا فقد ذكرنا من قبل أنه سماها قيْصرية Caesarea. إنه انكبّ على توسيع وتزيين هذه المدينة التي كان يحبها،

ويعتز بها، والتي ابتدأت شهرتها تعلو في عهده. وقد أصاب في اختياره لمدينة يول. فبين قسمَيِ التل الجزائري، القسمِ الشرقيّ وهو جبلي وذو أشجار، والقسمِ الغربي ذي السهول الفسيحة المجاورة للبحر الأبيض المتوسط، عيّنت الطبيعة موقعاً للعاصمة، هي «قيْصرية» يوبا والرومانيين، ثم مدينة «الجزائر» أيام الأتراك والفرنسيين. وينفتح من هناك في اتجاه الداخل طريق يؤدى إلى المدينة وما ورائها. على أن موقع شرشال نفسه به من المزايا ما قدّره يوبا، من مناخ لطيف وصحي، يطريه في الصيف النسيم الذي يهبّ من البحر من غير أن يعترضه عائق، ونَجْد خصب يصل للساحل وتشرف عليه تلال متناسقة الخطوط تصلح منحدراتها لغرس الزيتون والكرم، والكَلْكير بنفس المكان يعطي المواد الصالحة للبناء، وعلى بعد قليل توجد مقاطع المرمر والگرانيت، وأخشاب الغابات التي كانت تتوج الجبال.

وبالقرب من الساحل جزيرة صغيرة يمكن أن تحمي الميناء من الأمواج، وهناك كان ملجأ البحارة الفينيقيين، وكان الميناء الحربي الروماني من بَعد. وفي مقدمة هذا الميناء العتيق، كان يوجد الحوض الذي تحده الأرصفة ويستخدم في القرون الميلادية الأولى ميناء تجاريا. ولربما أن يوبا هو الذي أنشأه. وعلى كل، فالمؤكد هو أن الملك انكب على توسيع التجارة البحرية لمدينة «قيْصرية»، فالدلافين والمداري ذات الأسنان الثلاث الممثلة على نقوده تشهد بأنه كان يتطلع لمكان مشرّف في التجارة البحرية.

ولاشك أن أكثر معاملات قيْصرية كانت مع إسبانيا وإيطاليا، ومع بلاد الغال كذلك. فبالنسبة للهضبة الإيبيرية، كانت البضائع القادمة من موريطانيا أو المحمولة إليها، تمر على الخصوص بقادس Gadès ومالقة

Malaca، وقرطاجنة Carthagène وطَرَكُونة Tarragone، بحيث إذا كانت قادس وقرطاجنة قد رَجَتا يوبا أن يقبل لسنة واحدة أرفع المناصب في نظامهما البلدي وإذا كانت قرطاجنة قد انتخبت أيضا الشاب بطلمي ليكون مثنى duumvir في حياة أبيه، فالمعتقد أن هذه التشريفات لم تكن مجردة عن أي منفعة ثم أن نقود قادس وقرطاجنة والباليار، وهي غير قليلة الوجود بالجزائر، ربما يكون قسم كبير منها قد جيئ به في أواخر عهد مملكة موريطانيا، على غرار النقود الإفريقية التي كثيرا ما نعثر عليها بأسبانيا. وليس لدينا براهين أكثر دقة عن هذه العلاقات التجارية، باستثناء بعض سمكات السَّلَمون المصنوعة من الرصاص، والتي عثر عليها بميناء شرشال، وهي من صنع أسباني ويرجع تاريخها لبداية الميلاد.

أما التجارة مع إيطاليا وبلاد الغال، فتشهد لها الشقوف الخزفية الكثيرة التي أزيح عنها التراب في شرشال. وهي في الغالب شقوف للأواني الحمر المعروفة باسم الأوعية الأريتية Arretium وهي مكسوة بطلاء لامع جدا، كما أنها ملساء أو مزينة بصور عملت بالتفريغ البارز، وعليها علامات مصانعها. وهذه الصناعة التي كان مركزها مدينة أرتيوم Arretium (هي اليوم أريزو بمقاطعة طُسْكانيا في إيطالْيا) عاشت تقريبا من سنة 40 ق.م إلى سنة 60 للميلاد. ويظهران مصانع أخرى كانت في عهد أوغسطس في كَمْبانيا Campanie قد صدّرت هي أيضا بعض إنتاجها إلى قيْصرية. وصُنع في بلاد الغال خزف شبيه بهذا، في أرض الروطينين Ruténes (في رُويرْك Rouergue) وعلى الخصوص في لاڭروفصَنك La Graufesenque ما بين عهد تيبير ونهاية القرن الميلادي الأول. وأقدم هذه الأوعية الغالية، التي توجد بقاياها بكثرة في شرشال، قد أمكن جلبها إلى موريطانيا في السنين الأخيرة من حياة يوبا وفي

عهد ابنه بطلمي. وقد عثر على بعض الدوانق Deniers ليوبا الثاني في بلاد الغال[163]، كما اكتشف بالجزائر عدد من النقود البرنزية التي سكتها مستعمرة نِموْسوس Nemausus (هي نيم Nimes اليوم) التي أنشأها أوغسطس.

ويجب مع ذلك أن نعترف أن النقود الفضية ليوبا وعلى الخصوص منها نقود بطلمي، لم تكن أدوات تَعامل سليمة فهي دوانق، ولكن بينما الدانق الروماني في هذا العهد يزن 3,90 گرام، كانت دوانق يوبا مختلفة الوزن جدا. ففي كنز مكون من عدة آلاف من القطع، أخفي سنة 17-18 نجد الوزن يتراوح من 3,55 كرام إلى 2,50، بل نقصَ ذلك في نقود من نهاية عهد الملك. أما نقود بطلمي فأقل من ذلك، إذ تتراوح من 2,50 گرام إلى 1,50 گرام. أما الصنعة ففيها إهمال على العموم، في عهد بطلمي أكثر من عهد أبيه.

نقرأ في پْلين الشيخ[164] أن يوبا أحدث مصبغات في الجزر الفرفورية Purpurariae insule وهي جزر بالمحيط (في مقابلة الأطلوليين Autololes). وخلافا لما ظنه البعض، فليس المقصود هنا جزيرة مديرا Madère البعيدة وجارتها بورْتو سانْتو Porto-Santo لأن الإطلوليين هم العشيرة الجيتولية الكبيرة التي كانت تعيش شمالي الأطلس الأعلى. وفي هذه الناحية نجد إذن أمام الصويرة جزيرة مع جزر صغيرة يصح تعريفها بأنها هي الجزر الفرفورية. ولربما كان في الصويرة مستعمرة أحدثها حنّون[165]، كما أن الفينيقيين ربما هم الذين أطلقوا على الجزيرة اسما مأخوذا من اسم ربّتهم الكبرى، التي هي هيرا Hera (يونو Juno عند الإغريقيين واللاتانيين). غير أن هذه المستعمرة كانت قد انحطت أو تهدمت عند نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وكانت السواحل الجيتولية

على المحيط غنية بالرخويات التي تعطي الأرجوان القيم، حتى قبل عهد يوبا. ولهذا، فالمصانع التي أحدثها الملك بالصويرة، أعادت لهذا الميناء بعض النشاط وأنتجت نسيجا كانت له شهرة كبيرة. إذ أصبح الأرجوان الجيتولي شهيرا برومة كما تشهد بذلك الأبيات الشعرية التي نظمها في عهد أوغسطس الشاعران هوراس Horace وأوڤيد Ovide، وبعض النصوص الأخرى التي كتبت بعد ذلك.

بالرغم عن هذه المبادلات التجارية مع إيطاليا وولايات أوربا الغربية، ورغما عن المستعمرات الرومانية المنضدة على سواحل المملكة، فإن موريطانيا قد مكثت بلدا لا يعرفه اللاتانيون معرفة جيدة، وكذلك الإغريقيون بالطبع. ويظهر أن خطأ قد وقع في خريطة أگريبا Agrippa. في قياس الساحل بين نهر أمبساكا والمحيط، إذ أن هذه الخريطة ذكرت على ما يظهر 1038 ميلا أي (أكثر من 1500 كيلومتر)، وهو عدد يفوق الحقيقة بنحو 170 ميلا، وفي نفس العهد كان سترابون يستقى تقريبا كل معلوماته حول هذه المنطقة من مؤلفات أرتِميدور Artémidore وبوزدونيوس Posidonius التي كان قد مر عليها قرن من الزمان. وبعد وفاة يوبا بعشرين سنة كتب بومْبونيوس مِيلاَ يصف سواحل موريطانيا، فاكتفى بأن نقل بقدر ما استطاع عن كتاب لاشك أنه كتب قبل اعتلاء يوبا الملك ببضع سنين، وزاد من علمه هو أن يوبا أطلق اسم قيْصرية على مدينة يول، وصيّرها ذات شهرة.

ولا يمكن للتجارة أن تنمو، إذ كانت الزراعة راكدة، لكن ليس لدينا عن هذا الموضوع من البراهين سوى سنبلة منقوشة بالقرب من رأس لأفريقيا على دوانق ليوبا، وسنابل أخرى على دوانق لبطلمي، ويمكن إذا

أردنا أن نضيف لهذا قرون الوفرة Cornes d'abondance الممثلة على بعض النقود لهذين الملكين.

وختاما، لا يظهر أن الحالة الاقتصادية لموريطانيا قد كانت سيئة في عهد يوبا وعهد خلفه. وسنرى أن ضم المملكة للإمبراطورية الرومانية بعد اغتيال بطلمي قد لاقى مقاومة شديدة، لأن كثيرا من الأهالي كانوا يتحسرون على سادتهم السالفين. وقد قيل أن لكيوس ألبينوس Lucceius Albinus ناظِر الولايتين الموريطانيتين، أثناء الفتن التي عقبت موت نيرون Néron، لَم يجد لترضية محكوميه أحسن من أن يتخذ شعار الملكية، وأن يحمل اسم يوبا وفي القرن الثالث للميلاد، كان الناس لا يزالون يعبدون يوبا كإله في إحدى القرى النائية بناحية سْطيف.

5

كان يوبا ينحدر من مسنِيسّا العظيم، وكان زوجا لملكة من الأسرة البطلمية، كما كان عاهلا لجميع الموريين وللكثير من الجيتوليين، فكان حريصا على أن يظهر بمظهر الملك العظيم، ويحب الأبهة والعظمة.

فهناك بعض الكتابات تشير لحرسه الشخصي وكتابات أخرى كانت شواهد على قبور بعض خدمه، الذين لابد أنهم كانوا كثيرين كخدم ابنه بطلمي. وحبا في الفرجات استخدم بعض الممثلين والممثلات مع المكلفات بملابسهم، كما استخدم شخصا هو ليونْتيوس الأرْكوسي Leonteus d'Argos لتمثيل التراجيديا[166] وكان طبيبه هو أفُرْبوس Euphorbos أخو العتيق أنْطونْيوس موسا Antonius Musa الذي أنقذ أوغسطس من مرض خطير جدا. وقد اكتسب هذان الإغريقيان الشهرة بإدخالهما عادة صب الماء البارد على البدن بعد الاستحمام بالماء الساخن.

وبالتأكيد، فإن بلاط يوبا كان متنوع المظاهر وقد كان - هو نفسه - وريثا أو متلقيا لحضارات مختلفة جدا. هي الحضارة النوميدية بحكم مولده، والبونيقية بحكم قوة الجاذبية التي أثرت بها قرطاجة على قومه عدة قرون والرومانية بفعل سنوات طفولته وشبابه التي قضاها في عاصمة العالم، وبفعل روابط المصلحة والاعتراف التي تربطه بأوغسطس والإغريقية بحكم تربيته وذوقه الفني والأدبي، والمصرية المطبوعة بالطابع الإغريقي بحكم زواجه.

لكن يوبا لم يتنكر لا لأجداده ولا لوطنه الأصلي فمستعمرة قرطاجنة، التي انتخبت لمنصب المثنى هذا المواطن الروماني، فكرت أن تسترضيه بذكر أسلافه حتى مسِنيسًا، وذلك في كتابة أمرت بنقشها على شرفه(167). ولم يكن يخشى أن يَذكر على المنشآت الرسمية بأنه ابن يوبا، العدو اللدود لأب الإمبراطور الحالي. وهناك رأس من المرمر، عبارة عن قطعة من تمثال اكتشف بشرشال، يظهر أنه صورة ليوبا الأول بعصابته الملكية، وتشبيكة شعره المعقدة ولحيته النوميدية الطويلة والصورة نُحتت بعد مرور زمن طويل على موت الشخص الذي تمثله. ولهذا السبب لا تظهر عليها سماته الشخصية بوضوح. ولكنها على ما يحتمل كانت برهانا على البرور البنوي(168). كما أن هناك كتابة بونيقية اكتشفت في شرشال أيضا، وهي على ما يظهر ليست متقدمة على النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، نظرا لشكل حروفها. هذه الكتابة تذكر مسِبْسا Micipsa ملك المسيليين Massyles ابن مسنيسًا. فمن المحتمل أن مراسيم التأليه قد أقيمت له في عاصمة قريبه يوبا(169).

وفوق هذا، فإن يوبا لم يقف بسلسلة أجداده عند مسِنيسًا. بل صعد إلى هركول. ذلك ما تشهد به نقوده إذ كثيرا ما نرى عليها دبوسا،

هو دبوس هركول، بالقرب من رأس الملك. وكثيرا ما نرى على ظهرها كذلك نفس الدبوس يحيط به إكليل، أو يحمل إهاب أسد نيمي Némée وبجانبه كنانة وقوس. أما السيفوس Scyphos أي الإناء الذ كان يشرب فيه البطل هركول، فمرسوم على دانقين، وبين سنة 35 و43 من سنوات الملك (من 10-11 إلى 18-19 للميلاد) صار إهاب الأسد غطاء لرأس يوبا الذي يشعر هكذا أنه هو هركول، ولهذا السبب مُثل شابا وقويا.

وكان لهِرْكول خواصّ هيرَكْليس الإغريقي. ويظهر أن يوبا الأول أعلن من قبل أن هيركليس جده الأعلى. وكذلك يوبا الثاني ادعى نفس الانتماء. وليس هناك ما يؤكد أن هيركليس كان في هذه القضية الاسم الذي كان الإغريقيون يطلقونه على الإله الفينيقي مِلْقارت، كما لم يكن اسما مستعارا لأحد المعبودات الأهلية، ومع ذلك، فإن الملك يوبا الثاني محب الهيلينيين لم ينس أنه من سلالة إفريقية، لذلك اعتمد سلسلة نسب لا تجعله ينحدر من إحدى الإغريقيات كبِنْت تيسْبيوس Thespios الجدة المزعومة ليوبا الأول، بل ينحدر من إحدى الليبيات، وهي تنِجي Tingéأرملة أنْطي Antée التي شرفها البطل هيركليس بوصاله بعد موت زوجها[(170)].

وضرب هو وابنه نقودا عليها صور إفريقيا، أو رسم لبعض الحيوانات التي ترمز لهذه المقاطعة كالفيل والأسد. كما أن يوبا كتب كتابا كبيرا عن ليبيا. وسنتحدث في الفصل المقبل عن هذا النوع من التمجيد لوطنه.

ولا شك أنه تعلم اللغة البونيقية. إذ كان الناس لا يزالون يتحدثون بها ويكتبونها في المستعمرات القديمة، الفينيقية أو القرطاجية المبعثرة على طول سواحل مملكته، ولربما حتى في بعض المدن الأهلية الداخلية.

ولكنه في نقوده تخلى عن استعمال هذه اللغة التي كانت، في عهد أبيه يوبا الأول وعهد سلفه بوكوس، قد بقيت مستعملة على الصعيد الرسمي. ولا نعرف سوى حالة واحدة مستثناة في هذا الموضوع، هي قطع البرنز المضروبة في إحدى دور الضرب الملكية في شِمِشْ Shemesh (ليكسوس) على الساحل الغربي للمغرب الأقصى. فعلى ظهرها نقرأ كتابة بونيقية تذكراسم المدينة، بينما نقرأ على وجهها بالكتابة اللاتانية كلمة "الملك يوبا" Rex Juba وهذه الكتابة هي نفسها التي نجدها على جميع النقود الأخرى التي سكها يوبا، باستثناء قطعتين ورد عليها اسم الملك ووصفه مكتوبين بالإغريقية. أما البيانات الأخرى التي يحملها العديد من نقوده فهي باللاتانية أيضا، باستثناء بعض التواريخ (كسنوات الملك) التي استعملت فيها الإغريقية. وكان النظام النقدي لروما هو المعتمد من الناحية المبدئية على الأقل، إذ سبق أن رأينا أن الدوانق كان وزنها سيئاً على الأغلب.

كان يوبا الثاني بوجهه الحليق وشعره القصير يتناقض بصفة واضحة مع المظهر الجافي Barbare لأبيه، وكان العصاب الملكي وحده هو الذي يمنعنا من أن نرى في صورة يوبا الثاني وجه أحد الرومانيين.

وحيث أن العبيد الذين حررهم يوبا وبطلمي نالوا حريتهم هذه على يد مواطنين رومانيين، فإنهم أصبحوا مثلهما من اليوليوسيين Julii، وأصبحوا صالحين لأن ينجبوا بدورهم مواطنين رومانيين، فهناك تقدمة للمعتقين، كما هناك شواهد لقبور العديد منهم، وكلها كتب باللاتانية. ومن الظريف أن أحد هذه الشواهد قد كتب شعرا. وقد دفن بعض هؤلاء اليوليوسيين في قيْصرية على الطريقة التي كان يدفن بها معاصروهم

بإيطاليا : أي في سراديب صفت في جدرانها كوات، بها صناديق صغيرة من الرخام وضع فيها رماد الموتى.

كان يوجد بالمملكة الموريطانية رومانيون وصلوها قبل هذا العهد، كالمعمرين الذين أُسكِنوا فيها بأمر أوكتاف أوغسطس قبل أن يتولى يوبا الملك. كما أن أشخاصا آخرين كانت التجارة أو غيرها من الأعمال قدمت بهم إليها، بل ودفعت بهم ليسكنوا بصفة نهائية في بعض المراكز المهمة، وخصوصا في العاصمة، فكان لابد أن يظهر لهم يوبا وابنه حسن الاقتبال. فالتقدمات اللاتانية التي كتبت على شرف هذين الملكين، والتي عثر عليها في بْجاية، حيث أحدثت مستعمرة صَلْداس Saldas والأخرى التي اكتشفت بمدينة الجزائر (وهي كتابة ربما جيء بها من مستعمرة روسكنياي Rusguniae) وكذلك التي اكتشفت بشرشال، كلها تعبير عن الاحترام والاعتراف بالجميل من لدن بعض المهاجرين الرومانيين على ما يحتمل.

ومع ذلك، فلا يظهر أن المثل الذي ضربه المعمرون والإرادة الحسنة للملكين قد كان لهما أثر في نشر اللغة والعادات اللاتانية بين الأهالي. ومن المشكوك فيه أن تكون مدينة قيْصرية قد ضربت في عهد يوبا وبطلمي نقوداً بلدية عليها كتابات لاتانية. أما نقود ليكسوس التي ورد فيها اسم المدينة باللاتانية على وجه، وبالبونيقية الحديثة على الوجه الآخر، فيمكن التأريخ لها بهذا العهد وأما نقود تِنْجي المكتوبة باللغتين، فلاشك أنها ضربت في عهد أوغسطس، كما تشهد لذلك صورة الإمبراطور والكتابة التي تصاحبها، مع العلم أن تنجي كانت، منذ سنة 38 ق.م، جماعة للمواطنين الرومانيين.

ولم يكن يظهر أن موريطانيا مهيأة لتحمل التأثيرات المصرية. فهذه لم تكن معمولا بها خارج البلاط الملكي. ولكن مع أن كيلوبترا أبعدت إلى الأبد عن وطنها الأصلي منذ العاشرة من عمرها، فإنها لم ترضخ لنسيانه، وعرفت كيف تجعل يوبا يشاطرها عواطفها. وحصلت منه على الموافقة بتسمية ابنهما باسم بطلمي، شعورا منها لاشك أن دم أجدادها كان أكثر نبلاً من دم مسِنيسّا النوميدي. وكان هذا هو رأي الأثينيين الذين أقاموا بعد ذلك تمثالا (للملك بطلمي) ابن يوبا وسليل الملك بطلمي، أي سليل أول ملوك الأسرة، وهو بْطُلِمي الأول سوتير Ptolémée I° Sôter أو بطلمي الثاني فيلَديلف Ptolemée II Philadelphe مؤسس المستراض Gymnase الذي أقيم فيه التمثال.

وكذلك، فإن نقود كيلوبترا سيليني والنقود المشتركة بينها وبين زوجها تكثر بها الرسوم التي تذكر بوطنها وتشهد بوفائها للعبادات المصرية، كرمز إيزيس Isis، تعلوه ورقة اللوتُس مع سُنْبلتين، وعلى جانبيه قرنا بقرة، ويحيط به هلال، وكآلة السيسْتر، والجرجارة المستعملة في الحفلات لتكريم هذه الآلهة، وكالبقرة المقدسة الحاملة على ظهرها شعارات الآلهة، وكالتمساح وفرس النهر، وإيبيس الذي يصارع الثعبان المجنح. وكذلك فإن صورا مثل هذه، أولها نفس الأصل تُرى على نقود يوبا، ولا تظهر عليها صورة الملكة ولا اسمها بحيث يظهر رمز إيزيس، والسيستر، والتمساح، والثور الذي يحمل على ظهره أو على رأسه رمز إيزيس. وأخيرا ظهر في السنتين الأخيرتين من الملك صورة الأوريوسUraeus الثعبان المقدس وهو منتصب على مذبح، وفوق رأسه هلال. كما أن نقشا على الصخر قد اكتشف بشرشال يمثل صورة أوريوس كبير في نفس الوضع السابق.

وعثر بنفس المكان على آثار تدل على انتشار عبادة إيزيس بقيْصرية في عهد السيطرة الرومانية وقبلها أيضا، وهي عبارة عن تمثال صغير للربة يرجع تاريخه للقرن الثاني، ورأس لتمثال آخر ربما كان أحدث عهدا، وسيستر من البرنز لم يحدد تاريخه، وقاعدة رسمت عليها صورة كاهنة تحمل الدلو والسيستر المستعملين في الطقوس الدينية. ويمكن أن يؤرخ لذلك بالعهد الملكي. وكانت هذة العبادة قد سُنّت في قيْصرية على عهد يوبا. ويشير پْلين الشيخ[171] لوجود أيسيوم Iseum، أي الهيكل الذي جعله الملك مأوى تكريم للتمساح الذي جيء به من جنوب موريطانيا، وهذا في نظره برهان قاطع على أن النيل ينبع في مملكته.

ولربما أن بهذا الهيكل نُصب تمثال صغير جيء به من مصر. وهو تمثال بيتوباسْت Pétoubast، آخر فرد في أسرة سبق لها أن احتلت أرفع المناصب الدينية طوال عهد الأسرة البطلمية. وقد ولد سنة 46، وفي التاسعة من عمره أصبح كاهنا أكبر لـ پْتاح Ptah في مَنْفيس، ثم عُيّن في مناصب دينية أخرى، وتوفي في الثلاثين من عمره، في نفس اليوم الذي قضى فيه أوكتاف بالأسكندرية على مملكة مصر. فيمكن الاعتقاد أن كيلوبترا سبق لها أن عرفته في سنواتها الأولى وأنها أرادت أن تبين أنها لم تنس هذا الطفل الذي كان مصيره المحزن مشاركا لمصيرها. واكتُشف بشرشال أثر مصري آخر، هو تمثال تْحوتْموسيس الأول Thoutmosis I° الذي كان ملكا على مصر في القرن السادس عشر. فهل كان هذا أيضا تذكاراً للوطن الضائع استجلبته كيلوبترا إلى منفاها ؟

لقد ورث البطالمة الفراعنة، ولكنهم مع ذلك كانوا بمصر ملوك إغريقيين. فبينما كان يوبا يستعمل اللاتانية على نقوده ولا يستثنى من ذلك سوى بعض المرات القليلة، كان اسم كيلوبترا وصِفَتها يكتبان

دائما بالإغريقية، وذلك حتى عندما يصاحبان الكتابة اللاتانية : «الملك يوبا Rex Juba».

وزيادة على ذلك، إذا كان الملك لم يتخذ الإغريقية لغة رسمية كما اتخذتها الملكة، فإنها دون شك كانت لغته المفضلة، فقد تعلمها برومة، حيث تلقّى تربية مزدوجة هيلينية ورومانية كما كانت العادة آنذاك. والغالب أن الحديث في بلاطه كان يجري بالإغريقية على الخصوص. كما أن الأسماء الإغريقية هي التي كان يحملها أكثر العبيد الملكيين القدماء الذين وصلتنا شواهد قبورهم. ومن بعد قرطاجة، كانت شرشال هي المكان الذي زودنا في إفريقيا بأكثر الكتابات الإغريقية وجل هذه الكتابات من العهد الروماني، وهناك غيرها الذي لا يمكن التأريخ له. غير أن اثنتين منها على الأقل قد نقشتا قبل ضم موريطانيا إلى الإمبراطورية، إحداهما قطعة تذكر أحد الملوك، والثانية تخص عبدا أو عتيقا حرره بطلمي. وعلى هذا إذا كانت للغة الإغريقية حظوة في قيْصرية على عهد الأباطرة فلأنها على ما يظهر كانت لها مثل تلك الحظوة في عهد الملوك. فيوبا كان يعمل ليحيط نفسه بأشخاص من أصل هيليني. وقد سبق أن ذكرنا الطبيب أوفُرْب Euphorbe والممثل ليونْتيوس Leonteus. ولابد أن نضيف إليهما الكتّاب الذين كانوا يساعدونه في تحضير كتاباته، والمهندسين والنحاتين وكذلك غيرهم من الفنانين الذين دُعوا للعمل في البنايات التي كان يزين بها عاصمته.

وفعلا فإن هذه العمارات كانت مباني من الهندسة الكلاسيكية، لا من هذا الطراز البونيقي الإغريقي البالي، الذي استمر العمل به في إفريقيا بعد خراب قرطاجة. هكذا يظهر لنا على نقود يوبا وبطلمي

مصلّى تزينه الركائز، وتظهر معابد بواجهتها أربعة أو ستّة من الأعمدة، وبأعلى الواجهة جبهة أثبتت فيها قواعد للتماثيل.

ومن بين الخرائب التي لاتزال موجودة بشرشال والتي أجريت بها تنقيبات جزئية على الأقل، يوجد واحد أو أكثر من الأبنية التي يمكن إرجاعها ليوبا، وهي الواقعة بجنوب الساحة الحالية وبجنوبها الشرقي. فقد جرت بهذه الناحية، مرات عديدة، اكتشافات حديثة صدفة أو بتنقيبات محدودة سيرت دون مناهج. وقد هُدم آلان كل ذلك أو غُطّي بالتراب. إذ كان هناك أبنية مهمة أقيمت بالحجر المقدود الذي أحسن توضيعه وحلي بزينة فاخرة من الرخام الأبيض. واستخرجت من هذه الناحية أعمدة كورَنْثية من ثلاثة أحجام مختلفة، كما استخرجت طُنوف وروابط للأعمدة وركائز محلاة بزخارف نباتية وسيقان حليت بالزهور. والكل من طراز بالغ الرشاقة مثل ما تقدمه لنا آثار عهد أوغسطس في إيطاليا وجنوب بلاد الغال. ومن بين المنحوتات التي أزيح عنها التراب بهذا المكان نذكر تمثالاً مبتورا لأوغسطس ورأسا لملكة يظن أنها كيلوبترا سلِيني. ونحن نجهل كيف كان تصميم هذه المباني ولكن يصح أن نفرض – ومن غير أن نؤكد – أنها كانت تشتمل على معبد، وربما على قصر أيضا. وإذا أردنا أن نزيد افتراضا على افتراض، فالمعبد يظهر أنه كان مكرسا لِنبْتون Neptune، إذ نستطيع التعرف على المعبودات البحرية نيري Nérée والنيريِّيد Néréides، في النقب الضخمة التي كانت ستلصق على طول الطنْف لتملأ فراغه وبين كل نقاب وآخر حيز فارغ وذلك في القسم الأعلى لمبنى واسع.

ومن المؤكد أن قيْصرية كان بها مسرح على عهد يوبا الذي كان يحب الفرجات – كما سبق أن رأينا – والذي كتب بحثا مسهبا عن

الفن الدرامي. ولاشك أن هذا المسرح هو الذي لم تندثر خرائبه حتى آلان، برغم أنها كثيرا ما استعملت كمحجرة. وكانت الزخارف الفاخرة على جدار مجال المسرح Scène من الرخام الأبيض، وهو عبارة عن دثار Placage وعن ثلاث مجموعات متراكبة من الأعمدة الكورنثية التي تحمل عمرة Entablement غنية، إلخ... ثم إن هذه البقايا من طراز يجعلها مثينة القرابة بالقطع المعمارية التي عثر عليها بالساحة. فالعهد واحد إذن.

عثر كذلك في خرائب الساحة على تاج عمود لو يتم صنعه. وحيث إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا التاج قد جيء به على هذه الحالة من مصنع أو محجرة من وراء البحار، فلابد من القول بأن العمل في زخرفته كان يجري بنفس المكان، وكشفت نفس التنقيبات عن تيجان وطنوف، وعن قاعدة عمود، تحمل جميعها علامات الورش أو المعمل. وكل هذه العلامات حروف وأرقام لاتانية. ويوجد بالمسرح تاج عمود يحمل توقيعا لاتانيا باسم ب، أنْتيوس أمْفيو P. Antius Amphio. فإذا كانت هذه المباني راجعة لعهد يوبا – كما هو اعتقادنا – فالملك يكون قد استدعى فنانين مزخرفين من إيطاليا. ويمكن أن يكون هؤلاء من أصل إغريقي من بلاد الإغريق الكبرى، أو صقلية، أو أحد بلدان الشرق، ويمكن أن يكونوا، قبل قدومهم إلى قيْصرية، قد اشتغلوا مدة طويلة في رومة التي وجدها أوغسطس من الآجر فكساها بالمرمر، واشتغلوا في غيرها من المدن بالهضبة الإيطالية. واعتبارا للأسماء التي يحملها هذا الشخص: ب، أنْتيوس أمْفيو، فإنه كان إغريقيا أعتقه أحد الرومانيين.

وكانت آثار النحاتين تبعث الحياة في المباني التي يقيمها المهندسون. وفي أي مكان من إفريقيا، لم يُكتشف من التماثيل العتيقة بمقدار ما اكتشف منها بشرشال، ولا أجمل منها. فقسم منها يرجع

تاريخه لعهد السيطرة الرومانية، لأن قيْصرية مكثت آنذاك مدينة مهمة، تحتل فيها الفنون مكانة رفيعة، على غرار كل المدن في الإمبراطورية تقريبا. غير أن كثرة هذه المنحوتات التي أزيح عنها التراب بهذا المكان وقيمتها الفائقة، لا يمكن أن تفسرا إلا بتدخل يوبا الأمير المزهوّ ذي الذوق اللطيف والمعرفة الواسعة. وبغض النظر عن التماثيل المعاصرة لمن تمثلهم من الأشخاص، فإن البعض الآخر منها، لو جرى اكتشافه بغير هذا المكان – كرومة مثلا – لكان بأسلوبه راجعا لعهد أوغسطس تقريبا. وأكثرها – وهو من أجمل ما عثر عليه – وقع العثور عليه في خرائب الساحة، أي في المباني التي تدل جميع الظواهر على أنها بنيت في عهد يوبا.

وهناك تماثيل أخرى استُعملت زينة، إما في الحمّامات التي بنيت حوالي نهاية القرن الثاني أو بداية الثالث، وإما أنها استعملت في مساكن الأغنياء، وكانت أحدث عهدا من الأولى. وكل هذه التماثيل بقايا انتزعت من مباني قديمة في وقت كان الناس فيه مستعجلين جدا، وكانوا في احتياج شديد للفنانين البارعين كما كانوا يريدون الإنفاق باقتصاد ليتأتى لهم طلب آثار فنية جديدة، وفي وقت انتصرت فيه المسيحية فطردت فيه المعبودات المتهاوية من هياكلها، وبعثرتها وأحالتها إلى دُمى للزينة. ومن الطبيعي أنه يستحيل القول أين كانت هذه التماثيل منصوبة في أول الأمر. وقد تساءل بعضهم : ألم يكن لِيوبَا متحف حقيقي مُثلت فيه جميع مدارس الفن الأغريقي وصُنّفت بطريقة منهجية ؟ ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب. أما نحن فنفضل الاعتقاد أن الملك – وهو بانٍ عظيم – قد احتاج إلى الكثير من المنحوتات لمعابده وقصوره، ولغيرها من المباني التي أقامها، وأنه انتقى منها بالتخير المعمول به آنذاك. وقد كانت هذه التماثيل تقليدا للآثار الشهيرة، من عهد كبار الفنانين القدماء

فهناك جذع إنسان شاب صنع بدراية وإحكام، وإن كانت تنقصه بعض الملاحة والأناقة، وهو تقليد لأصل من البرنز صنع في مدرسة كانت لها برومة شهرة واسعة عند نهاية العهد الجمهوري وبداية العهد الإمبراطوري، وسبق لها أن ازدهرت على ما يحتمل بأرْگوس Argos ما بين 470 و460 ق.م. وهناك عمود أنسي Caryatide، ونحت بارز يمثل أبا الهول صنعا برشاقة فائقة، وإن كانت تظهر عليهما مسحة من الأسلوب العتيق التي خفف منها النحاتون المقلدون. ويظهر أن الأصل لهذين الأثرين قد خرج حوالي سنة 470 ق.م من مصانع أيونية Ioniens أو أتيكية Attiques. وهناك تمثال لهركول – جد الملك – أدّيت هيأته القوية بدقة لا تخلو من خشونة، ولربما كان تقليدا لتمثال من البرنز من صنع ميرون Myron. وهناك رأس يظهر عليه الوقار الذي يقارب القسوة رغما عن تشبيكة الشعر اللطيفة، وهو تقليد لتمثال أپولون المعروف باسم أپولون أومْفالوسْ Omphalos الذي صنعه حوالي 460 ق.م فنانٌ من أثينا سابق لِفيدْياس. وهناك التمثال الضخم المشهور باسم أپولون شرشال، الذي قيل عنه إنه من صنع فيدْياس في شبابه، أي قبل أن يتحرر نهائيا من التقاليد الفنية العتيقة، والتمثال يعجبك بقوة أجزائه وخفّتها، وبنبل المظهر وجلاله، وبالوقار المحبّب الذي يشعّ من وجهه. وهناك امرأتان مكسوتان بالرداء الدوري Dorien الواسع، وبخمار يستر الرأس، وقد صنع النحّات المقلِّد منهما تمثالين رمزيين، وبغض النظر عن الرموز الخاصة التي تحملانها، فلاشك أنهما تمثيل للربّة ديمتير Déméter نُحتت في مصنع فيدْياس، إذ نجد بهما هذا الخليط من الفخامة والوقار، ومن الرصانة واللطافة التي امتاز بها فن هذا المعلم. وهناك تمثال لأثينا يظهر أن أصله كان من صنع أحد تلامذة فيدْياس، وتمثالان كبيران أحدهما لِبوسيدون Poséidon واقفاً، والثاني لأيسْكولاب Aesculape

جالساً، من صنع نحات أثيني من أهل القرن الرابع ق.م، ربما كان هو بْرِياكْسيس Bryaxis. وهناك جذع لِديونِيسوس Dionysos بخطوط متماوجة، وتقاطيع لطيفة وثرية. ولابد أن يكون من مدرسة بْرَكْسيتيل Praxitèle، وجذع لأفْروديت Aphrodite تطفو عليه الواقعية الشهوانية، وهو تقليد لأصل من القرن الثالث أو الثاني ق.م، كما أن تمثال ڤينوس Vénus الذي بالكاپِتول هو تقليد آخر لهذا الأصل. و«ساتير» Satyre يلاعب نمِراً. وقد نحتت هذه المجموعة المليئة بالحيوية والرشاقة، لأول مرة في نفس العهد بالأسكندرية أو بغيرها من الأمكنة. وأخيرا، هناك أربعة رؤوس ضخمة ربما كانت تزين الأقسام العليا بأحد المعابد، ونظرا لقوة أسلوبها وسعته، ولما بها من مسحة الأسى وحب التأثير المسرحي، فإنها ذات قرابة بمنحوتات المذبح الكبير في پِرْگام Pergame.

إن المرء حينما يطوف في متحف شرشال الجميل يجد نفسه تميل حبا ليوبا، هذا الملك الذي عرف كيف يحيط نفسه بكل هذه الآثار الفنية القيمة، وذلك لمتعته هو ولمتعتنا نحن أيضا.

الكتـاب الثاني

أفريقيا عند قيام الإمبراطورية

نهاية الممالك الأهلية

الفصل الثالث

يوبا الثاني العالم والكاتب

1

قال پْلين الشيخ : [172] «كانت شهرة يوبا بخدماته العلمية تفوق شهرته بملكه». وفعلاً، فإن أدبه وعلمه جعلاه على الخصوص أهلا لمدح أهل عصره والأجيال التي جاءت بعده. ولما قرر أهل أثينا، وهم قوم لا يشق غبارهم في المجاملات، أن يكرموا هذا العاهل الذي يسود منطقة واسعة أقاموا تمثاله بالقرب من إحدى خزانات الكتب[173]، ويرى فيه بلوتارك : «أفضل المؤرخين الذين وُجدوا من الملوك»[174] ولكن يلاحظ بْواسْيي Boissier[175] إن كلمة بلوتارك هذه ليس فيها مدح كبير ليوبا. ثم يضيف بلوتارك قائلا [176] : «وهو يعدّ من أعلم المؤرخين الأغريقيين» وهذا مديح لا يشوبه خبث. ويثني الغير على علمه المتنوع[177] وحياته التي كرست بأجمعها لدراسة الآداب[178].

وقد أخذ حب الاجتهاد أثناء إقامته الطويلة في إيطاليا حيث كان في شبابه أميرا منفيا، ولم يجد ما يقضي فيه وقته أفضل من الانكباب على الدرس. ثم لم يقلع عن ذلك بعد ما وضع الإكليل على رأسه.

كان يوبا معجبا بذكائه، ونعرف إحدى نكته التي لم تكن لطيفة. فقد كان ذات يوم يتجول على فرسه، فلطخ الفرس ثياب أحد المارة، وأبى هذا الأخير إلا أن يشكو إلى الفارس ما لحقه، فأجابه يوبا : «وما تريد ؟ هل تظن أني سَنْطور Centaure ؟ [178مكرر]». وربما كان ينظم الشعر في بعض المناسبات، فقد وصلتنا بعض الأبيات الشعرية التي كان قد بعث بها إلى الممثل ليونْتيوس، الذي لم يحسن تمثيل دوره في مأساة هِپْسيپيل Hypsipyle لأنه أخطأ بتناوله عشاء مفرطا قبل التمثيل. فسخر منه يوبا بغلاظة على شرهه[179].

وكان هذا من قبيل التسلية البسيطة التي يسري بها الملك عن نفسه عقب دراساته الجادة، إذ كان على الخصوص عالما حشد ذاكرته وملفّاته بمعلومات واسعة جدا، من تاريخ، وجغرافيا، وتاريخ طبيعي، وتاريخ للفنون، وشعر بجميع أشكاله، ونحو. بحيث يظهر أن فضوله الفكري النهم لم يفته شيء.

وله غرام شديد بالدراسات اللغوية (فقه اللغة Philologie)، وكان مقتنعا أن اللاتانية كانت من قبل هي الإغريقية، ولكن اعتراها شيئا فشيئا التحريف بسبب اختلاطها باللغة الإيطالية فكان هو يجتهد في الكشف عن الأصول الإغريقية للعديد من الألفاظ اللاتانية، الأمر الذي دفع به ليقول حَماقات ربما كانت أكثر مما قالها غيره ممن يتمسكون بهذا الرأي الواهي. وكان يحب جمع الألفاظ الآتية أو التي قيل إنها أتت من اللغات الأجنبية، مثل لهجات الهند، وبلاد العرب وآسيا الصغرى،

وأثيوبيا. ويحتمل أن يكون پْلين نقل عنه الألفاظ المستعملة عند سكان شمال إفريقيا.

وكان لابد له، لإجراء بحوثه وكتاباته، من خزانة حسنة ومن عدد كبير من الناسخين والملخصين، وربما حتى من المساعدين الذين لهم منزلة أعلى. وكانت ثروته الملكية تجد في هذه المصاريف مساغا كريما. واشتهر عنه أنه كان يؤدي الثمن بسخاء فكان المحتالون يستفيدون منه دون حياء. وقد باع له ذات يوم بعض المحتالين مخطوطا عولج بلباقة أكسبته مظهرا محترما، وقالوا عنه إنه لفيتاغوراس Pythagore . ولاشك أن المؤلفات الإغريقية التي لابد أنها تكوِّنَ القسم الأكبر من خزانته، قد كانت مصحوبة بعدد كبير من المخطوطات اللاتانية. وكان يملك كذلك مخطوطات بونيقية. فهل قرأ في نسخة من النص الأصلي، قصة الرحلة التي قام بها حنّون مُشاطئاً السواحل الإفريقية، والتي كانت معروضة في أحد معابد قرطاجة ؟ إن هذا الافتراض مشكوك فيه جدا. ولاشك أن يوبا اكتفى بالترجمة الإغريقية لهذه الوثيقة[180] أما عن منابع النيل فإنه رجع إلى كتب بونيقية. ويمكن الاعتقاد أن الكتب البونيقية التي كانت على ملك جده هيمْبسال، قد كانت في مكان لائق بخزانته وربما يكون قد نجح في الحصول على تلك الخزانات القرطاجية التي كان مجلس الشيوخ الروماني من قبل قد تخلى عنها للأمراء من أسرته.

وزيادة على ما كان يستقيه من الكتب، فإنه فيما يتعلق ببعض المسائل، كان يتمنى أن يكتسب معلومات مباشرة. لذلك نظّم بعثات مكلفة بالبحث عن أصل النيل وعن جزائر كَناريا[181].

فقبل يوبا بزمن طويل وقع التأكيد بأن منبع النيل، أو على الأقل أحد منابع النهر العظيم يوجد في جبال الجنوب المغربي، وكان هذا هو

رأي بْروماتوس الساموسي Promathos de Samos الذي نقل عنه أرسطو، كما كان رأى غيره من الأغريق الذين وصلنا صدى أقوالهم بواسطة سْترابون وَ ڤِتْروڤ Vitruve اللذين عاصرا يوبا، وبواسطة بومْبونْيوس مِيلاَ، وهو أحدث منهما عهدا، وأخيرا كان رأي واحد أو أكثر من القرطاجيين الذين اطلع ملك موريطانيا على كتاباتهم وحبدها. وكان القول بهذا الرأي يستند إلى تشابه بعض الحيوانات - وعلى الخصوص منها التماسيح وعلى تشابه بعض النباتات الموجودة في نهر النيل في مصر، وفي الأنهار المنبعثة من الأطلس والمتجهة نحو الصحراء. ولا أهمية لكون هذه الأنهار تغوص في الرمال، إذ كان مقبولا أنها كانت تجري تارة على السطح وتارة تحت الأرض. وهو رأي مناسب جدا للربط بين مجاري الماء التي قد يعتبرها الرجل العادي مستقلة بعضها عن بعض.

وقد اعتبر يوبا أن هذا معقول جدا، فبعث من لدنه رجالا لبحث أقوال الكتب البونيقية وتدقيقها. وكانت النتائج سارة جدا، فأذاعها في كتبه التي نقل پْلين عنها[182]. (وحسب البحث الذي أجراه يوبا، فإن النيل ينبع من أحد جبال موريطانيا السفلى : "المغرب الأقصى")، غير بعيد عن المحيط. وسرعان ما يكون بحيرة اسمها نيليد Nilides والأسماك التي توجد بها هي اللفش Alabètes ولاقاروس Coracins والسلور Silures وقد أتي منها بتمساح ليقدم كدليل، ثم كرسه يوبا في معبد إيزيس بقيْصرية. ولا يزال الناس يرونه بها حتى اليوم. وقد لوحظ زيادة على ذلك أن فيضان النيل يتناسب مع تكاثر الثلوج والأمطار في موريطانيا وحين يخرج النهر من هذه البحيرة، يغضب لجريانه في منطقة رملية وحارة، فيختفي مدى سيره بضعة أيام. ثم يرتمي في بحيرة أخرى أكبر من الأولى تقع في أرض الجماعات الإنسانية، وإن وجود

نفس الحيوانات لدليل على أنه هو نفس النهر. وتبتلعه الرمال مرة أخرى، فيختفي ثانية في صحراء مداها مسيرة عشرين يوما، حتى الأثيوبيين جيران هذه المنطقة. وهناك يشعر من جديد بوجود الإنسان، فينبعث – وهذا أمر محتمل – من منبع يسمى نِگريس Nigris، ويفصل بعد ذلك إفريقيا عن إثيوبيا. وعلى شواطئه يسكن الناس أو الوحوش الضارية الضخمة، وتنشأ الغابات عن رطوبته. ثم يخترق أرض الأثيوبيين من وسطها حاملا اسم أسْطَبوس Astapus إلخ...).

وكذلك فإن پْلين هو الذي أبلغنا نتائج البحث عن جزائر كناريا. ولم يكن لمبعوثي يوبا أن يكتشفوا هذا الأرخبيل الذي كان يشارك مَديرَا Madère، وبورْطوسانْتو Porto- Santo في التسمي باسم «الجزائر السعيدة»، إذ لاشك أن الفينيقيين سبق لهم أن زاروها، ثم هناك إيضاحات قصيرة جاء بها پومْپونيوس مِيلاَ من حيث لا ندري لكنها ليست من عند ملك موريطانيا[183]، ولقد أَفادنا عن هذا الأرخبيل أحد الجغرافيين، واسْمُه ستاتْيوس سِبوسوس Statius Sebosus، حيث أتى بمعلومات مستقاة من بحارة قادِس Gadès[184]، وكان ستاتيوس هذا يكتب مثل يوبا في عهد أوغسطس، أو قبله بقليل أو بعده بقليل.

إن الحملة التي جهزها الملك، قد ذهبت من الجزائر الفُرْفورية، أي من الصويرة، وسلكت طريقا لم تعتمد إلا بعد كثير من التردد مما يدل على أن لسالكيها معرفة مؤكدة بالتيارات ونظام الرياح في هذا القسم من المحيط. وقد كتب پْلين عن يوبا قائلا : «إن الجزائر السعيدة تقع في الجنوب، بقليل نحو غرب الجزائر الفرفورية، على مسافة 625 من الأميال، بحيث يكون السير بحرا مسافة 250 ميلا نحو الغرب، ثم نحو الشرق مسافة 375 ميلا». وقد بيّن فيدال دُلابْلاش Vidal de la Blache [185]

صواب هذا الاتجاه الذي يبدو غريبا. ذلك أن الذهاب في خط مستقيم من الصويرة إلى كناريا، يوقع في تيار بحري يدفع من عرض البحر إلى الشرق، أي إلى الساحل. ولذلك يحسن الابتعاد عن هذا التيار، وهذا هو ما كان يحدث بالاتجاه نحو الغرب مسافة 250 ميلا. «وبعد عبور هذه المسافة، كانت السفن تقع في نطاق التيارات القوية السائرة من الشمال إلى الجنوب، والمتولدة عن الرياح الصوبية Vents alizés. فكان باستطاعة السفن آنذاك أن تعتمد على هذه التيارات وتميل نحو الشرق مع التأكد من سيرها نحو الجنوب لتبلغ جزائر كناريا» [185]. إن عدد ألـ 375 مَيْلاً، المذكور لهذا القسم الثاني من المرحلة عدد مرتفع جدا، وربما كان من الضروري إصلاحه بعدد 275.

ويتابع پْلين نقله عن يوبا، مع المحافظة على الاسم الأغريقي الذي ذكره الملك للجزيرة الأولى. غير أن پْلين ترجم إلى اللاتانية أسماء الجزر الأخرى. «فالجزيرة الأولى اسمها أومْبريوس Ombrios – أي جَزيرة الأمطار – وليس فيها أثر للبناء، وفي جبالها بركة للماء، وبها أشجار سوداء يستخرج منها ماء مرّ، كما يستخرج ماء عذب من الأشجار التي ليس لونها غامقا. والجزيرة الأخرى تسمى يونونْيا Iunonia – أي جزيرة يونون – وليس بها سوى بيت واحد مبني بالحجر. وبالقرب منها جزيرة أصغر منها تحمل نفس الاسم. ثم كَپْرارْيا Capraria – أي جزيرة العناز – وهي مليئة بالحرازين الكبار. وقبالة هذه الجزر توجد نينْگْوارْيا Ninguaria، وهي تحمل هذا الاسم بسبب ثلوجها الدائمة، كما أنها مغطاة بالضباب. وأقرب جزيرة لهذه هي كناريا، وقد سميت بهذا الاسم بسبب العدد الكبير الموجود بها من الكلاب ذوات الأجسام الكبيرة. وقد جيء ليوبا بكلبَيْن منها، ويظهر بها آثار لبعض المباني. وكل هذه الجزر مليئة بالثمار والطيور من أنواع مختلفة. وفي الأخيرة منها – كناريا –

يوجد بكثرة نخيل الثمر وجوز الصنوبر. كما أن العسل هناك بكثرة، وفي الأنهار يوجد نبات البردي وسمك السِّلور. أما الهواء فَعَفِنَ بِنَتْن الحيوانات التي يقذف بها البحر باستمرار على الساحل».

أما أومْبريوس Ombrios – التي سميت في مكان آخر باسم بْلوڤْيالْيا Pluvialia فهي الجزيرة التي تدعى اليوم باسم لانْزَروتي Lanzarote، وأما جزيرتا يونونْيا فلربما كانتا هما إيسْليطاس Isletas وكَبراريا هي فْويرتي بِنْتورا Fuerteventura ونينْگُوارْيا تتطابق مع تينيريفي Ténérife الواقعة على نحو 200 كيلومتر من فْويرتي بِنْتورا، وبينهما كناريا الكبرى التي ذُكرت باسم كناريا فحسب. أما الجزر الغربية من الأرخبيل وهي بالْما Palma، وگوميرا Gomera، وهْييرو Hierro فلم يَزُرها مبعوثو يوبا، ويظهر أنها بقيت مجهولة في العهود القديمة.

وكما نرى فإن المعلومات التي جمعتها البعثة كانت ذات قيمة رديئة، وناقصة، وغير صحيحة في بعض أقسامها، وتافهة. مع أن ملك موريطانيا كانت بيده الوسائل التي تمكّنه من أن يسدي للعلم خدمات أفضل من هذه.

وكان قميناً به، خاصة، أن يعطي الحل النهائي لهذه المشكلة التي وقف أمامها القدماء محتارين، وهي : هل كان من الممكن الطواف بحرا حول إفريقيا ؟

كان كُرْنيلْيوس نيبوس Cornelius Népos قبل ذلك بقليل قد أخطأ لما اعتمد على مكتوب صحيح أو زائف منسوب لأودُكْس السِّيزيقي Eudoxe de Cyzique واعتقد أن هذا الأخير كان قد قام حوالي نهاية القرن الثاني ق.م بالطواف حول القارة الإفريقية، إذ ذهب من البحر

الأحمر ووصل إلى قادس. وهكذا، فإن نيبوس روّج بالاعتماد على قصة هذا الطواف أقوالا مخالفة جدا للصواب، تشوبها اقتباسات محرّفة إلى حدّ ما، من رحلة حنّون[186] وصدّق يوبا كذلك أن الطواف البحري حول إفريقيا أمر ممكن، ولكنه لم ير ضرورة استعمال سفنه للبرهنة على ذلك. وقد أكد له بعضهم حين كان يكتب رسالته عن بلاد العرب أن حطام بعض السفن الإسبانية قد عثر عليه بالبحر الأحمر، فكان هذا القول حجة قاطعة لديه، كما دفعت أودُكْس من قبله إلى التصديق. ثم، ألم يقل حنّون إنه قد تقدم حتى وصل إلى قرن الجنوب ؟ (كما يسمى في الترجمة الإغريقية للرحلة). وكان القائد القرطاجي يطلق هذه التسمية على الخليج الذي ينفتح عند سواحل گابون Gabon على ما يحتمل. ولكن هذا الإسم أطلقه بعض من الإغريقيين على رأس العسير Cap Guardafui الذي يبتدئ منه الساحل الشرقي الإفريقي بالاتجاه نحو الجنوب. ولاشك أن يوبا لم يميز بين الخليج والرأس، واقتنع بأن حنّون سار حتى بلغ لمواجهة البلاد العربية، أي حتى الرأس الذي أورده الملك باسم المرتفع الموسيلي Mossylique ، وذكر أنه نهاية المحيط الأطلسي. أما وراء هذا الرأس فَنواحٍ يعرفها البحارة المصريون. فالمشكلة كانت إذن محلولة في نظر يوبا، ولا داعي للبحث في أمر محقق.

أما على طول سواحل القارة، فيظهر أن سفن يوبا لم تتجاوز أبدا الصويرة، لأن هذه السفن مخرت في عرض البحر لكي تصل إلى جزائر كناريا. وكانت المستعمرات التي أحدثها حنّون بالجنوب قد دُمرت. ولكن كان بعض الصيادين من قادس وأحيانا بعض التجار المغامرين ربما تقدموا حتى يصلوا من جديد إلى مصب نهر دَرْعَة، بل ولأبعد منه، إلى ما يقابل جزائر كناريا. فكانت معلومات الناس عن هذا القسم من

الساحل معلومات غامضة. أما ما وراء ذلك، فمجهول، والأخذ بالأسماء المقتبسة من رحلة حنّون، يستر ستراً سيئاً الجهل العميق بالحقيقة.

إن الخريطة التي أمر أكْريبا Agrippa برسمها في عهد يوبا، والتي ربما كان بمستطاع هذا الأخير أن يساعد فيها ببعض المعلومات لم تذكر أي ميناء بعد ميناء ريسَدير Portus Rhysaddir الذي ربما كان هو الصويرة. ولكنها ذكرت بعد ذلك في اتجاه الجنوب أسماء عدة أنهار (من بينها دَراتْ Darat أي نهر دَرْعة)، واسماً لأحد المرتفعات، وأسماء عدة عشائر. وكل هذه الأسماء وُضعت تقريبا من غير تبصر، ثم ينتهي الأمر بذكر اسمين مقتبسين من رحلة حنّون كما جرت العادة. وحتى القرن الثاني للميلاد كانت المعلومات الدقيقة التي أوردها بطلمي، تقف بناحية الصويرة. وارتكب في حديثه عمّا وراءها أشنع الأخطاء. وكان ذلك عن جهل منه، أو لأنه كرر أسماء تقع على أمكنة بعيدة جدا في الشمال، أو لحبه أن يضع في مكان ما الأسماء التي خلفتها الرحلة القرطاجية للأجيال التالية.

ومثلما جرى بساحل المحيط، حدث بداخل القارة، إذ لم ينتزع يوبا من إفريقيا أسرارها. ولقد سبق لملوك الفرس وللأسكندر وخلفائه أن عملوا لتقدم المعلومات الجغرافية أكثر مما عمله هذا العالم المتوج الذي كان لخزانته العلمية نوافد قليلة تنفتح على الخارج.

2

لم يكتف يوبا بأن يقرأ كثيرا، للمتعة الأنانية التي في التعلم، بل أراد أن يدل على علمه، وكان يطمح إلى الشهرة الأدبية. وقد كان

للإغريقيين واللاتانيين في هذا العهد كتّاب لهم قدرة كبيرة على العمل وخصوبة فكرية مدهشة، فكان منهم من خصصوا أفضل قسم من حياتهم لبعض المؤلفات الضخمة مثل المؤرخ تيت ليف Tite-Live، والجمّاعة دِيودور الصقلّي Diodore de Sicile، كما أن منهم آخرين كتبوا مجموعة من المؤلفات في الموضوعات المتنوعة جدا، مثل الإسكندر الميلتيي Alexandre de Milet المعروف بلقب بوليهِسْتور Polyhistor (أي الذي يعرف كثيرا)، وديديم الإسكندري Didyme d'Alexandire الملقب بلقب خَلْكِنْطيروس Chalkentéros (أي الرجل ذي المعدة النحاسية) الذي ألف أكثَر من 3500 رسالة[187] والروماني ڤارون Varron الذي عرف كيف يضيف لعلمه الواسع بعض الأفكار. لقد أصرّ يوبا على أن ينال الشرف بأن يكون من أقرانهم.

إننا نعرف تسعة عناوين من مؤلفاته. ولاشك أنه نشر كثيرا غيرها. وكانت كلها باللغة الإغريقية[188] ولم يصلنا أي واحد منها. ولكن بقيت لنا منها مقتطفات كثيرة بفضل الاستشهادات المروية عنه بنصها إلى حد ما، والمبعثرة في كتب مختلف المؤلفين، مثل پْلين، وبلوتارك، وأثيني وغيرهم[189]. والحق أن جل هذه المقتطفات قصير جدا، كما تعسر معرفة الكتاب الذي أُخذت الفقرة منه، عندما ينعدم ذكر المرجع، من ذلك مثلا وصفُ لطيور دْيوميد Oiseux de Diomède أو الكاتَراكْت Cataractes التي تزور إحدى الجزر بساحل أبولْيا Apulie[190]، وإطراء طويل وتافه للمطبخ، كان يوبا قد نقله عن ملهاة لأحد الأثينيّين، هي «السامُثْراسيّون» Les Samothraces. ويمكن أن نضيف لهذه المجموعة من البقايا نصوصا لم يذكر فيها الاقتباس عن يوبا باسمه، ولكن لها قرابة متينة بنصوص أخرى ذكر فيها اسمه.

ولكن الكتاب الذي نأسف كثيرا على ضياعه، هو الذي أطلق عليه الملك اسم «الليبيات» Libyca ، إذ يحلو لنا أن نعتقد أنه فيما يخص وطنه، قد استطاع أن يقول أشياء مهمة وجديدة. نحن نجهل متى كتبه، إذ لستُ متأكداً من أنه أشار فيه، كما ظن ذلك كثير من الناس، إلى الألعاب التي أقامها جيرْمانِكوس Germanicus في رومة سنة 6 للميلاد.

كان «الليبيات» يتألف من ثلاثة كتب على الأقل، تشمل على ما يحتمل مواد مختلفة جدا، من الجغرافيا، إلى التاريخ، إلى التاريخ الطبيعي، إلى الميثولوجيا وغير ذلك. وكان يوبا في مؤلفه هذا يقتبس من رحلة حنّون، فنستنتج نحن أنه قد وصف سواحل القارة، ويمكن أن نفرض من خلال نصٍّ لپْلين(191) إنه وصف جبال الأطلس كذلك. ولاشك أنه في هذا الكتاب قد ذكر نتائج بحثه عن النيل وعن جزائر كناريا، كما ذكر المصْبغات التي أنشئت بأمر منه في الجزائر الفرفورية.

ونستطيع كذلك أن نرد لـ «الليبيات» الفقرات العديدة المتعلقة بالفِيَلة التي كانت آنذاك كثيرة بموريطانيا. ومن جملتها أن الملك فسر لماذا كانت أنيابها قرونا لها وليست أسناناً، وتحدث عن أصواتها، وذكر أمثلة لطول أعمارها، وبيّن كيف يجري العمل لاقتناصها في إفريقيا، ولكشف الأنياب المتداعية التي تعمل هي لإخفائها. وأطرى بتطويل – مع ذكر للحجج – مزاياها وفضائلها كذكائها الفائق الذي يمكّنها من استعمال الدواء المناسب عندما تصاب بجرح، وإخراجها لرفقائها من الحفر التي قد تقع فيها، وكشعورها القوي بالشرف والعدالة إلى حد أنها ترفض القيام بالأوامر الجائرة، وإظهار عواطف المحبة نحو بعض النساء، والحياء اللطيف، وكتقوى الآلهة إذ تؤدي لها عبادة حقيقية(192).

وبعد الفيلة تأتي الأسود. فيذكر عنها يوبا قصصا تؤكد أنها لا تنسى أبدا السوء الذي تعامل به، وأنها تنتقم ولو بعد زمن طويل إذا ما أتيحت لها الفرصة، ولكنها ترقّ لتوسلات النساء اللواتي لا يؤذين. ومن المحتمل أنه في «الليبيات» أيضا تحدث عن بعض الحيوانات الأخرى التي توجد بمملكته كالنمور والحُمُر الوحشية، وظباء الغنْوة Antilopes gnous وغيرها[193] لأن الحكايات العجيبة التي ذكرها عنها كل من إيليان Elien وأثيني Athénée تحمل طابع يوبا.

أما البحوث النباتية، هي من الدراسات المفضلة عند يوبا، فلابد أنها أخذت مكانا واسعا في كتاب «الليبيات». ونحن نعلم بواسطة أثيني أن بالكتاب حديثا عن الليمون Citron[194] وكان هيركَلْيس، الجدّ الأكبر للملك، هو الذي عرّف الإغريقيين بهذه الفاكهة، لأن التفاحات الذهبية المشهورة، التي جيء بها من حدائق هيسْپِريد Hespérides، إنما كانت ثمرة شجرة الليمون.

ولم يَرْوِ يوبا قصة عودة البطل هيركَلْيس محمّلاً بقطوفه الثمينة فحسب، بل إنه ذكر – ربما في «الليبيات» – قدومه مع جيش إغريقي مكث من بعد في موريطانيا. وذكر بالخصوص – وذلك لأسباب عائلية كيف أن هِرْكول أنعم بوصاله على أرملة أَنْطي Antée ملك طنجة[195] كما أن فقرة مستقاة لاشك من «الليبيات» تتحدث عن دْيوميد Diomède فقد رماه إعصار بحري إلى ليبيا عند عودته من طَرْواء Troie [196]، ووقع في قبضة أحد ملوكها الذي كان اسمه ليكوس Lycos فهم به هذا الملك أن يضحي به قربانا لأبيه أريس Arès ولكن كاليرْهُوي Callirhoé ابنة ليكوس، وكانت قد أُغْرِمَت بِدْيوميد، نجحت في تخليصه من الموت.

فتجاهلها وذهب غير عابئ بإحسانها فشنقت نفسها حسرة عليه. فنحن نرى أن هذه الأميرة التعسة، كانت إفريقية ولكنها ذات عواطف إغريقية، وتحمل إسماً إغريقياً كما يحمله الملك أبوها وإلاه جدّها إذن، وبالنظر لما ذكر، يمكن أن نتأسى عن ضياع كتاب «الليبيات».

ويعرّفنا أحد علماء اللغة، وهو إتْيان البيزَنْطي Etienne de Byzance بمؤلَّف آخر ليوبا، ذكره باسمين مختلفين هما «تاريخ رومة» Histoire romaine ، و«الماضَويات الرومانية» Archéolsgie romaine، وقد استقى إتْيان نُقوله البالغة القصَر عن الكتابين الأول والثاني اللذين ورد في أحدهما ذكر السكان الأصليين لإيطاليا، وذكر الملك لَتينوس Latinus، ولَڤينْيوم Lavinium ، وإيني Enée وأوسْتي Ostie، وفي الآخر - وربما كان هو الأخير- ورد ذكر مدينة نومَنْصا Numanca، ولا شك أن ذكرها جرى بمناسبة الحديث عن الحروب التي وقعت بأسبانيا في القرن الثاني ق.م. فإذا كان هذا التاريخ عبارة عن قصة متسلسلة للأحداث، فلابد أنه كان تاريخا مختصرا. ولكن لنا أن نتساءل : ألم يكن هذا مجموعة من البحوث، جرت حول مسائل خاصة، ولم يجر عليها الترتيب الزمني ؟ وهناك نقول أخرى لم يذكر مصدرها بالضبط وعُزِيت إلى نفس الكتاب مع أن الأمر ليس مؤكدا. وفيها ورد الحديث عن اختطاف النساء السابينيات Sabines اللواتي كان عددهن 683، لا أقل ولا أكثر، وحكم رومُلوس على طَرْبِيوس Tarpéius، والحديث على مَرسِلوس Marcellus الذي قال عنه يوبا أنه دحر حنّيبَعْل عدة مرات بإيطاليا، مع العلم أن غيره أنكر ذلك، والحديث عن أحد فصول حملة سولا Sylla في بلاد الإغريق سنة 86 ق.م[197].

أما المؤلَّف الذي يحمل اسم «الأشباه» Similitudes فهو مسهب جدا، لأنه كان يشتمل على خمسة عشر كتاباً على الأقل، وليس لدينا منه سوى نقلين اثنين ذكر فيهما المصدر صراحة. أولّها زوّدنا باسم أحد الأردية (أو المعاطف)، والنقل الثاني يلاحظ أن اللفظ الإغريقي طْرَبِزوكُموس Trapézokomos هو نظير لفظ سْتْروكْطور Structor اللاتاني (معناهما معاً الشخص المكلف بنصب المائدة). وبمناسبة لفظ آخر يكاد يكون مرادفاً للسابق، وهو طْرِبيزوپوس Trapézopoios استشهد بثلاثة أبيات شعرية من مسرحية «المأدبة» Festin لكاتب يدعى إسكندر. فمن هذا الفصل وعنوان الكتاب يظهر لنا أن يوبا كان يقارن الأشياء الإغريقية بشبيهاتها الرومانية. ومن قبله احتذى ڤارون Varron حذو كَليماك Callimaque، ونشر بعنوان إيتْيا Aetia بحوثاً درس فيها أسباب عدد من الأنظمة والعادات. وفعل بلوتارك مثل ذلك في «المسائل الإغريقية»، و«المسائل الرومانية» معتمدا كثيرا على يوبا، خصوصا في «المسائل الرومانية»، حيث بحث العادات الرومانية في الحياة العامة والحياة الخاصة، وغالبا ما كان يظهر فيه الأصول الإغريقية للمسائل المدروسة ونحن نعرف بأي سهولة كان يعثر في اللاتانية على الألفاظ الإغريقية. فمن كتاب «الأشباه»، لا شك، جاءت النقول المتعلقة بكلمة طَلَسْيو Talassio (الصيْحة التي كانت تطلق بمناسبة الزواج)، وكلمة لايْنا Laena (رداء الملك)، وكَمِيلوس Camillus (شابّ يعمل ساعة ذبح القرابين)، وأنْسيلْيا Ancilia (ترس الكهنة الساليّين)، وفِبْرواريس Februaris (شهر فبراير). فهذه كلها كلمات إغريقية، كما أكد يوبا ذلك. ويمكن أن يرد لنفس الكتاب الأسئلة التي من هذا القبيل : لماذا يُهدى لِـ دِيانا Diane، في معبدها بجبل الأَڤَنْتين Aventin قرون الثيران، بينما

تُهدى لها قرون الأيايل في معابدها الأخرى ؟ لماذا قُسّمت الشهور إلى ثلاثة أقسام تبتدئ بالكَلَنْدات Calendes ، والنونات Nones، والإيدات Ides؟[198]. لماذا كان لهركول ولربّات الفن والشعر Muses مذبح واحد مشترك؟ ولماذا كانت الأعياد الكِيرنالية Quirinalia تُدعى أعياد الأغبياء (Stultorum feriae) [199] ؟

وخلف كتاباً عن الآشوريين مختصراً عن كتاب بابِلونْياكا Babyloniaca الذي كان بيروز Bérose قد نشره في بداية القرن الثالث. وكان مختصر يوبا في كتابين. ومن الراجح أن هذا الكتاب هو الذي عرّفنا بما انجرت إليه الملكة سِميراميس Sémiramis بحبها الشديد لحصان. ولكن في الكتاب موضوعات جادّة، منها مثلا ذِكْرُ حملات نبوخَذْنَصَّر Nabuchodonosor على الفينيقيين واليهود[200].

أما «العربيات» Arabica فقد أهداه لگايوس قَيْصر الذي تبناه أوغسطس. وقد سبق أن قلنا إن هذا الشاب كان مكلفا بتسوية مسائل الشرق. وكان لابد له من معرفة الأراضي التي ستكون مسارح لأعماله الجليلة. فصدر الأمر لأحد الجغرافيين وهو إيزدور الخَرَكْسي Jsidore de Charax بكتابه «وصفُ لأرض الفَرْثِيِّين» Parthie. ولعل هذه كانت هي المناسبة التي كتب فيها أوركيلَؤُسْ ملك قَبادوقْيا، والذي سيصبح صهرا ليوبا، كتابا عن المناطق التي فتحها الإسكندر. أما يوبا فأخذ موضوع البلاد العربية التي خصص لها كتابا ضخما. وزاد من ضخامة الكتاب أن المؤلف أبى إلا أن يعرض للبلاد التي لها جوار قريب أو بعيد مع البلاد العربية. وهكذا وصف السواحل الممتدة من الهند إلى نهاية الخليج الفارسي، وسواحل البحر الأحمر غرباً، بل

إنه تقدم حتى الهند وحتى أثيوبيا جنوب مصر وسار مع النيل من مِرْوي Méroé إلى سِيِّين Syène [201].

كان كتاب «العربيات» في الجغرافيا على الخصوص، ولكنه كان كما في «الليبيات»، يضم عدة أشياء أخرى كالإثْنوغْرافيا مع ملاحظات وأحاديث عن أصول وأخلاق وعادات مختلف الشعوب والدراسات الحيوانية عن حيات أثيوبيا، ونمال الهند، والقواقع التي تعطي اللؤلؤ والصدَف، والميديات الضخمة، وغير ذلك بما فيها الحيوانات الخرافية مثل المَنتيكور Mantichore الذي يقلد منطق الإنسان. والدراسات النباتية عن شجرة القطن وشجرة القطلب، ونخل التمر، والأشجار التي يقطف منها المر واللبان والنبات القادر على إحياء الموتى، وبعض النباتات البحرية والدراسات المعدنية عن المغرة، الزنجفر والسندروس، والحجر الشفاف شبيه الزجاج، والزبرجد والزمرّد وغيرهما من الأحجار الثمينة. يحلي كل ذلك تفاصيل عجيبة ومعلومات تاريخية وألفاظ لغوية مستقاة من اللغات الأجنبية[202].

كان أوفورب Euphorbe طبيب الملك يتبقل في جبال الأطلس، فعثر على نبات له خواص عجيبة. إذ كان الدماع Suc الذي يشتمل عليه هذا النبات يقوي النظر ويعطل مفعول سم الحيّات والسموم الأخرى... إلخ. فسرّ الملك بهذا الاكتشاف، وأطلق على النبات اسم أوفورْب، الذي صار يعرف به، ثم كتب عنه رسالة صغيرة، وصف فيها النبات ودماعه وبيّن كيف أن الدماع يُؤخذ عن بعد، وأن في شدة الاقتراب منه خطر لشدة قوته، ثم شهر بالترييقات التي يأتم الجيتوليون بإدخالها عليه حين يمزجونه بلبن العنز، ثم عدد المنافع التي يمكن أن تنتظر منه[203].

ولا نكاد نعرف شيئا عن مؤلف، من ثمانية كتب على الأقل، عن «فنّ الرسم» أو عن «الرسّامين». وكما لابد أن يكون، فإن الفنانين الشهيرين بوليگْنوتْ Polygnote ، وپِرَهاسْيوسْ Parrhasius قد ذكرا به في المكان اللائق. ومن بين عدة نقول مأخوذة عن «تاريخ المسرح» توجد فقرة مستقاة من الكتاب السابع عشر. فهذا المؤلف إذن كان فيه إسهاب كبير. والفقرات الباقية تتعلق بآلات موسيقية وقع اختراعها في بلدان مختلفة، وبرقصات إغريقية وأجنبية، وبالطريقة التي يحسن أن توزّع بها الأدوار على الممثلين[204].

وأخيرا، مؤلَّف عن «التحريف في اللغة» Corruption du langage وكان من كتابين على الأقل. وليس لدينا منه سوى نقل واحد مؤكد، هو الذي يتعلق بلفظ إغريقي يدل على لعبة بذيئة. وربما ساغ أن نضم لهذا النقل فقرة أخرى تبيّن لماذا كانت كيلوبترا (أو زوجته) تطلق اسم "خزف الذهب والفضة" على الأواني الثمينة. ذلك أنه مع ازدياد الترف حلّت هذه الأواني الثمينة محل الأواني الطينية، ولم تأخذ اسماً آخر لها. فيظهر إذن أن يوبا بحث في هذا المؤلف التحريفات التي تعتري معاني الكلمات.

لقد وصلنا إذن إلى نهاية هذه القائمة، التي إن كانت طويلة، فإنها غير كاملة، وهي قائمة تصيب ببعض الحيرة بسبب تنوعها. والآن، لابد أن نتساءل : ما الرأي في علم هذا الملك الذي لم يترك شاذة ولا فاذة ؟

نعترف صراحة أن هذا العلم لم يكن من نوع رفيع وأن هذه المؤلفات العالمة كانت على ما يظهر نقولا مستعجلة، وأن مجهود الناسخين فيها، قد هيأ بصفة واسعة عمل المؤلف. والحقيقة أننا

باقتصارنا على فقرات هزيلة مما كتبه يوبا، وكذلك بعدم معرفتنا للمؤلفات التي رجع إليها عند كتاباته، فإننا في الغالب لا نستطيع تقدير ما استقاه من سابقيه وما أضافه هو إلى مصادره. ولكننا مع ذلك نستطيع أن نؤكد أنه استقى جميع علمه فيما يخص تاريخ الآشوريين من بيروز Bérose، إذ أكد ذلك هو بنفسه. واعتمد في «العربيات» على عدد من رفقاء الإسكندر ومؤرخيه، خصوصا منهم الربّان أونسِكْريتْ Onésicrite، والقائد البحري نِيارْك Néarque . وفيما يخص أصول رومة، فإن الكثير من فقراته تتطابق تماما مع فصول من دونيس الهَلِيكَرْناسي Denys d'Halicarnasse الذي نشر كتابه عن الماضَويات الرومانية Archéologie romaine في سنة 7 ق.م. فهو إذن قد نقل عن هذا الكتاب، ما لم يكونا معا قد نقلا عن كاتب ثالث. أما النقول المتعلقة بالأنظمة الرومانية، والتي لابد أنها جاءت من كتاب «الأشباه»، فإنها تشهد باعتماد يوبا على ڤارون Varron مع إضافات أو تعديلات أخذت من مصادر مختلفة، كدونيس الهَلِيكَرْناسي أو غيره. وقد قيل إن يوبا اعتمد كثيرا على تيت ليف في تاريخ رومة، وعلى أسينْيوس بولْيون في نهاية الجمهورية، وكل هذه مجرد فروض واهية. لكن المؤكد هو أنه رجع إلى مؤرخ لاتاني آخر من أهل عصره، هو سولْبيسْيوس گالْبا S. Galba ، فقد ذكر اسمه بمناسبة الحديث عن رومُلوس.

وبالتأكيد، فإن يوبا كان واسع المعرفة، فلقد أعطى على ذلك حججاً كثيرة. لكن المؤسف هو أن علمه كان يفوق بكثير قدرته على التمييز، بحيث يظهر وكأنه غير قادر على التمييز بين الأشياء المهمة وبين التوافه والترّهات. وكانت هذه الأخيرة هي التي يتأنق في جمعها. وكان يرتكب

أشنع الأخطاء، إذ ذكر أن طول النيل 400 ميل بين سِيِّين والدِّلْتا، وهو عدد يقل عن الصواب ب 230 ميلا. وكان يعتقد أن الفيلة استعملت بإفريقيا في الحرب أربعمائة مرة قبله، بينما لم يتعد استعمال هذه الحيوانات بها القرن الثالث ق.م. وكان حبه للإغريق يجعله يجدهم في كل شيء : في اللغة اللاتانية، وفي أصول رومة، وأصول ليبيا، وحتى في أصول عائلته هو.

وكان تصديقه لكل شيء أمرا عجبا، حتى أن المرء لا يدري أيأسى أو يضحك عندما يقرأ السفاسف التي نثرها في كتاباته، وتلقفها عنه الآخرون بحدب ليبلغوها لنا. فقد أكد أن الفيلة ترفع صلواتها للآلهة عن غير تدريب سابق على ذلك، وهي تتظهر في مياه البحر أو الأنهار، وتعبد الشمس الطالعة والقمر المهلّ، فترفع خراطيمها إلى أعلى وقد أمسكت فيها بغصن. وأن واحدا من هذه الحيوانات زاحم أرِسْطُفان البيزَنْطي Aristophane de Byzance على بائعة للزهور أو العطور بالإسكندرية، وأنه تفوّق بكثير في مغازلته لها على العالم اللغوي. أما الأسود فتفهم لغة الأهالي فهما جيدا. كما أن حيّات من أثيوبيا يبلغ طولها عشرين ذراعاً، تكوّن جماعات من أربع أو خمس منها وتتشابك كأنها الحصير، ثم تخوض البحر الأحمر ورؤوسها مرفوعة إلى أعلى، ذاهبة إلى البلاد العربية، حيث تبحث عن طعام جيد. ووصل لهذه المنطقة في أحد الأيام حوت طوله 600 قدم وعرضه 360 من الأقدام كذلك، ومن غير أن يشعر زجّ بنفسه في مصب أحد الأنهار. أما الطيور المسماة بالكاتَراكْت Cataractes والتي لها أسنان وعيون لونها كالنار وريش أبيض، فإنها تحرس مدفن ديوميد، وكل صباح تملأ حناجرها بالماء، وبعدما تبلّ ريشها تذهب لتغسل وتكنس مرقد البطل. وتطارد بصيحاتها الأجانب الذين يدنون من القبر ولا تقابل باحتفاء

أشنع الأخطاء، إذ ذكر أن طول النيل 400 ميل بين سِيّين والدِّلْتا، وهو عدد يقل عن الصواب ب 230 ميلا. وكان يعتقد أن الفيلة استعملت بإفريقيا في الحرب أربعمائة مرة قبله، بينما لم يتعد استعمال هذه الحيوانات بها القرن الثالث ق.م. وكان حبه للإغريق يجعله يجدهم في كل شيء : في اللغة اللاتانية، وفي أصول رومة، وأصول ليبيا، وحتى في أصول عائلته هو.

وكان تصديقه لكل شيء أمرا عجبا، حتى أن المرء لا يدري أيأسى أو يضحك عندما يقرأ السفاسف التي نثرها في كتاباته، وتلقفها عنه الآخرون بحدب ليبلغوها لنا. فقد أكد أن الفيلة ترفع صلواتها للآلهة عن غير تدريب سابق على ذلك، وهي تتظهر في مياه البحر أو الأنهار، وتعبد الشمس الطالعة والقمر المهلّ، فترفع خراطيمها إلى أعلى وقد أمسكت فيها بغصن. وأن واحدا من هذه الحيوانات زاحم أرِسْطُفان البيزَنْطي Aristophane de Byzance على بائعة للزهور أو العطور بالإسكندرية، وأنه تفوّق بكثير في مغازلته لها على العالم اللغوي. أما الأسود فتفهم لغة الأهالي فهما جيدا. كما أن حيّات من أثيوبيا يبلغ طولها عشرين ذراعاً، تكوّن جماعات من أربع أو خمس منها وتتشابك كأنها الحصير، ثم تخوض البحر الأحمر ورؤوسها مرفوعة إلى أعلى، ذاهبة إلى البلاد العربية، حيث تبحث عن طعام جيد. ووصل لهذه المنطقة في أحد الأيام حوت طوله 600 قدم وعرضه 360 من الأقدام كذلك، ومن غير أن يشعر زجّ بنفسه في مصب أحد الأنهار. أما الطيور المسماة بالكاتَراكْت Cataractes والتي لها أسنان وعيون لونها كالنار وريش أبيض، فإنها تحرس مدفن ديوميد، وكل صباح تملأ حناجرها بالماء، وبعدما تبلّ ريشها تذهب لتغسل وتكنس مرقد البطل. وتطارد بصيحاتها الأجانب الذين يدنون من القبر ولا تقابل باحتفاء

الإغريقيين. ونكتفي بهذا القدر عطفا على يوبا، حتى لا نبدو أشد قسوة من القدماء على هذا الإفريقي الظريف.

لقد تمتع كثير منهم بقراءته والاستفادة منه. ووجدوا في آثاره معرفة متساوية باللاتانيين والإغريقيين، ومجموعة غنية من المعلومات عن مناطق بعيدة، سواء كانت إفريقيا أو الشرق، كما وجدوا بها العديد من التفاصيل التي من شأنها أن تثير فضولا لم يكن يتشدد في طلب ما هو أقرب للصواب.

ويجب أن نقول أن معرفتنا بالخدمات التي قد يكون يوبا أسداها للعلماء الذين أتوا من بعده هي معرفة ناقصة وذلك راجع لعادتين سيئتين كانتا منتشرتين جدا في العهود القديمة، أولاهما أن الكاتب عندما ينقل عن أحد المتقدمين لا يرى من الضروري أن يذكر اسمه. وحيث أن هذا المتقدم سبق له - هو أيضا - أن فعل نفس الشيء، فإن اليد كانت تمتد إلى مِلْك يجهل أصله والثانية أن الكاتب كان - خلافا لذلك - غالبا ما يحاول الظهور بمظهر العالم الباحث، فيورد اسم مؤلف لم يقرأه، وإنما عثر له في كتاب ما على فقرة أو مقتطف، أو كان يعلم أن من ينقل عنه هو قد سبق له أن نقل عن المؤلف الذي لم يقرأه.

هذه الطريقة استعملها پْلين Pline. فقد ورد اسم يوبا كثيرا في قائمات الكتب المذكورة في أول كتاب التاريخ الطبيعي، فنجد اسمه من بين مصادر الكتابين 5 و6 (عن جغرافيا إفريقيا وآسيا)، والكتابين 8 و10 (في الحيوانات) و12 و13 (نباتات البلاد العجيبة) و14 و15 (الأشجار المثمرة) و25 (النباتات الطبية) و26، و28، و31 و32 (في أدوية مختلفة) و33 (في المعادن) و36 (في الأحجار) و37 (في الأحجار

الكريمة). كما أن پْلين ذكر اسم يوبا في صلب كتابه ثماناً وثلاثين مرة. ومن المؤكد أنه رجع مباشرة إلى كتاب «العربيات». فقد صرح هو بذلك، بل إنه تساءل، فيما يتعلق بأحد فصول هذا الكتاب، هل النسخة التي هي تحت نظره منه صحيحة ؟ وهناك أسباب قوية للقول بأنه اعتمد كذلك على كتاب «الليبيات». وأخيرا يظهر جيدا أنه قرأ الرسالة عن نبات الأوفورْب. وسواء ذكر اسم يوبا، أو نقل عنه من غير أن يسميه، أو نقل عن الكتّاب الذين نقلوا عنه بدورهم، فلاشك أنه استقى منه كثيرا في الأقسام الجغرافية، والحيوانية والنباتية من كتابه وهي التي تتعلق بإفريقيا وآسيا.

كما أن بلوتارك يذكر في كتابه «التراجم» حياة رومُلوس Romulus ونوما Numa، وسولا Sylla، وسِرْطورْيوس Sertorius، وفي المقارنة بين بِيلوبِيداسْ ومَرْسِلوس Pélopidas, Marcellus. ويذكره كذلك في كتابه «المسائلَ الرومانية» وفي كتابه عن «ذكاء الحيوانات»، ولابد أنه في كتاب «المسائل الرومانية» قد اعتمد على كتاب «الأشباه» ليوبا، ليس فحسب في الأمكنة التي أورد فيها اسمه، بل الغالب أنه اعتمد عليه أيضا في العديد من العروض التي لم يذكر فيها مصدره. ولربما تكون هذه الرسالة هي التي استقى منها استشهاداته عن حياة الملكين الأولين لرومة وهي استشهادات تكاد تكون جميعها متعلقا بالأنظمة، لا بالأحداث السياسية. ونظرا لكوننا نجهل بالتقريب كل شيء عن «تاريخ رومة» أو «الماضويات الرومانية» فمن قبيل التفاخر أن ندّعي بأننا نعرف إلى أي حد استعمله بلوتارك في تراجمه. بل ليس لدينا حجة على أنه عرف هذا التاريخ. إذن فلنترك جانبا الافتراضات الضعيفة التي قيلت عن يوبا مؤرخ الرومانيين بأنه مثّل دور الوسيط بين تيت ليف وآسينْيوس بولْيون من جهة، وبين بلوتارك وأپْيان من جهة أخرى. أما الفصول من «ذكاء

الحيوانات» التي يذكر بلوتارك فيها يوبا وكذلك الفصول الأخرى التي لم يذكره فيها، مع أنه ساق كلامه - كما تشهد بذلك الفصول المماثلة عند كتّاب آخرين ذكروا اسم يوبا - فليس أكيداً أن بلوتارك بحث عنها في يوبا نفسه، ولربما يكون عثر عليها عند كاتب آخر.

في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني وقعت الرسالة عن الأوفورب بين يدي الطبيب گالْيان Galien (جالينوس)، ولسنا ندري هل الاستشهادات التي أوردها في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث علماء لغويون هم بولوكْس Pollux وهِرْبوكْراتْيون Harpocration وأثِني Athénée يمكن أن تعتبر حجة على معرفتهم المباشرة لبعض آثار الملك.

في عهد سِبْتيم سيڤير Septime Sévère ذكر إيلْيان Elien في رسالته عن الحيوانات اسم يوبا عدة مرات. ويحق لنا أن نؤكد أو أن نفرض بأنه استقى منه كثيرا في الفصول المتعلقة بالفيلة وغيرها من حيوانات شمال إفريقيا. فهل رجع إليه مباشرة ؟ الأمر مشكوك فيه. وقد ذكرت عدة أسباب وجيهة لعدم كونه عرفه بواسطة الإسكندر المِنْدوسي Alexandre de Myndos الذي كان يكتب قبل أواسط القرن الميلادي الأول. فإذا كان هذا العالم الحيواني، أو محب الدراسات الحيوانية على الأصح، قد نقل عن يوبا حقيقة، فإنه يكون قد قرأ آثاره وسلخها - وربما «الليبيات» منها فحسب - بعد نشرها على الناس بقليل. ومن الممكن أن الإسكندر المندوسي هذا، كان مصدرا وسيطا اعتمد عليه بلوتارك في كتابه «ذكاء الحيوانات» ومصدرا وسيطا كذلك لأحد معاصري إيليان هو فيلوسْتْرات Philostrate في نصوصه عن حياة صانع المعجزات أبولْيونيوس التِّياني Apollonius de Tyane، إذ في هذه النصوص ورد اسم يوبا عند الحديث عن الفِيَلة.

واعتمد على الرسالة عن الآشوريين كاتبان مسيحيان هما تاتْيان Tatien من أهل الثلث الأخير من القرن الثاني وبعده بقليل كليمَنْت الإسكندري Clément d'Alexandrie . ولسنا ندري هل كان تِرْتولْيان Tertullien يعرف من هذا الكتاب شيئًا غير اسمه.

وليس من المحتمل إطلاقا أن يوبا قرأه صولان Solin في القرن الثالث، وأمْيان مَرْسُلان Ammien Marcellin في القرن الرابع، ولا أصحاب الشروح Scoliastes وفقهاء اللغة وغيرهم من مؤلفي العهد الأدنى الذين ذكروا اسمه. غير أن أتيان البيزنطي استطاع حوالي القرن الخامس أن يطلع على تاريخ رومة وأعطى منه مقتطفات في معجمه الجغرافي.

فلا شك أن آثار يوبا الخطية كانت قد أصبحت نادرة ولم يهتم الناس باستنساخها من جديد. فبهت المجد الأدبي للملك الموري، ثم امّحى. وهكذا لم يعش أي واحد من آثاره بعد العصور العتيقة.

الكتــاب الثاني

أفريقيا عند قيام الإمبراطورية

نهاية الممالك الأهلية

الفصل الرابع

نهاية مملكة موريطانيا

1

كان بْطُلمي إبن يوبا الثاني وكيلوبترا سليني وربما كان ابنَهما الوحيد. وكان لايزال شاباً حين توفي أبوه في نهاية سنة 23 للميلاد، أو في بداية السنة التي تلتها. وهناك نقود ليوبا مؤرخة بسنة 31 من الملك (6-7 للميلاد)، تظهر لنا بطلمي وهو طفل، ونقود أخرى بسنة 36 (11-12م) تظهره يافعا بلحية ناشئة. فتكون أمه قد ولدته حوالي سنة 5-6 م ثم توفيت بعد مولده بقليل.

وقد حمَل وهو صغير جدا شارة المُلك ولقب الملك ويُرى وعلى رأسه الإكليل في تمثال نصفي يمثله في نحو السادسة عشرة من عمره، وكذلك على النقود التي ذكرناها من قبل، وعلى غيرها أيضا مما أمر به يوبا أن يضرب في المدة المتراوحة بين سنة 31 وسنة 36. وعلى هذه

الأخيرة كتابة تصف بطلمي بأنه ملك Rex . وأياً ما كان تاريخها المدقق، فإنها ليست متأخرة عن سنة 42 أي (17-18م) وهي السنة التي أخفى فيها الكنز الذي يضم بعضا من هذه النقود. وهناك نقود قرطاجنّة Carthagène التي ذكر عليها اسم بطلمي موصوفا بأنه ملك Rex، وتقدم صورة أوغسطس مع كتابة «أوغسطس ابن السماء». فهي إذن نقود متقدمة على موت هذا الإمبراطور (حدثت في غشت سنة 14م)، أو هي متقدمة على الأقل، على الاحتفال العظيم الذي أعلن فيه أنه "الإله أوغسطس". وقد جرى بعد موته بأسابيع قليلة. وسنرى أن بطلمي نال لقب ملك مع الإكليل وهو لا يزال وليا للعهد.

وبعد موت يوبا بشهور قليلة، أبلغه مبعوث عن مجلس الشيوخ الاعتراف الرسمي بملكه. فنستطيع إذن أن نستنتج من هذا أن اتصافه بالملك كان حديث العهد. وذلك ما يظهر أن سْترابون يؤكده[205]، إذ يقدمه لنا وهو يخلف أباه من غير أن يذكر أنه كان شريكا له من قبل - مع أنه كان شريك أبيه كما تشهد النقود بذلك.

وتوفي سنة 40 للميلاد، حوالي نهاية السنة على الراجح، بحيث مرت سبع عشرة سنة بين موت أبيه وموته هو. لكن توجد نقود تذكر السنوات 18 و19 و20 من ملكه. فالنتيجة إذن، هي أنه صار حقيقة ملكا في سنة 20-21 على أكثر تقدير، وفي حياة أبيه يوبا. لكنه لم يتلقب بالملك قبل ذلك بكثير، لأنه لو كان ضرب نقودا أخرى يفوق تاريخها سنة 20 لوقع العثور عليها. ومن ناحية أخرى فإن الكنز المهم الذي أخفي سنة 17-18 لا يضم دوانق لبطلمي وحده، مع أنه سكّ دوانقه منذ السنة الأولى من ملكه، وعند نهاية صيف سنة 24، بعث له مجلس الشيوخ لقب ملك حليف وصديق، ومعه حلى التمجيد التي كثيرا ما ظهرت على نقوده منذ

السنة الخامسة من ملكه، لا فيما قبلها مطلقا ولاشك أنه لم يبطئ في أن يُظهر على نقوده هذه الرموز التي كان يفتخر بها جدا. فيكون قد نالها إذن، أما في بحر السنة الخامسة، أو قبلها بقليل. وإذا كان بطلمي قد شارك أباه سنة 20-21، فإن السنة الخامسة المذكورة توافق بالفعل سنة 24-25 للميلاد. وبهذا، فإن يوبا – وهو في نحو السبعين من عمره – أراد بهذا العمل أن يؤمن مستقبل مملكته وأسرته قبل موته الذي كان يشعر باقترابه ويريد أن يعود بطلمي، الذي كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره – على مزاولة السلطة العليا.

على أن بعض النقود المشتركة بين الأب والإبن قد رُوّجت بعد ذلك أيضا. ولكن منذ ذاك، أصبح لبطلمي نقوده الخاصة، مع بيان سنواته في الملك. ولم يسكّ الدوانق فحسب، بل إنه ضرب حتى العملة الذهبية. وقد اكتشفت إحداها بشرشال وكتابتها تشير للسنة الأولى من الملك. ولعلها رُوّجت كذكرى لتولي العاهل الشاب الملك. وحسب القاعدة العامة، كان الأباطرة يخصّون أنفسهم بسكّ العملة الذهبية، ويمنعون الملوك الأتباع من القيام بذلك. وإنا لنعجب من أقدام بطلمي على ذلك خصوصا في عهد لم تكن فيه الحكومة الرومانية قد قررت أن تعترف بملكيته. وقد سبق القول بأنها لم تعترف به إلا في سنة 24 بعد موت يوبا. فمن الممكن أن يكون أوغسطس أو تيبير قد سمح بصفة خاصة – وليس عن حق خول صراحة – وأذن ليوبا بإصدار عملة ذهبية. ولكن لم تصلنا منها أية قطعة، الأمر الذي يبعث على الظن بأن الملك استعمل هذا الامتياز استعمالا قليلا. ولعل بطلمي – وهو شريك أبيه في الملك – رأى أن بمستطاعه هو أيضا أن يضرب نقودا من ذهب، وذلك بالموافقة الضمنية لرومة، وطبعا، فإنه لم يتخلّ عن ذلك بعد أن اعترفت به رومة رسميا، لأن

قطعة أخرى من العملة الذهبية قد اكتُشفت بناحية شرشال، وهي تحمل تاريخ السنة التاسعة عشرة من ملكه. ويحسن أن نلاحظ أن هذه القطع لا تدخل ضمن النظام الروماني، فهي مقصورة على مملكة موريطانيا. وما كان الإمبراطور ليرضى أن يزاحمه أمير إفريقي بمكان آخر.

نال بطلمي الملك بعد موت يوبا. ولم يَرِث مزايا أبيه وذوقه. كان كسولا لا يهتم بشيء، ولا يفكر إلا في حياة الترف. فيبدد ثرواته بكثرة، ويملأ قصره بالعديد من الخدم، ويحب الظهور في الملابس الفاخرة، ويحيط نفسه بالأثاث الرفيع، حتى إنه كان يفتخر باقتنائه لأكبر مائدة من خشب العرعار توجد بالدنيا.

ولدينا صور لهذا الأمير. لكن إذا كانت دوانقه الفضية قد صيغت بإهمال أشد مما في دوانق يوبا، ولا تدل على إرادة لرسم صورة مماثلة له، فإن عملته من الذهب والبرنز قد صيغت بعناية. فبفضلها نستطيع التعرف على عدد من الرؤوس المرمرية المكللة، المكتشفة بشرسال أو بإيطاليا. فهناك تمثال نصفي صغير، اجتمعت فيه الدراسة الصادقة للأنموذج الحي بليونة الإنجاز ورقته، يقدم لنا بطلمي يافعا. كما أن تماثيل أخرى تقدمه لنا في نحو الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمره. فهو ذو تقاسيم دقيقة جدا، خصوصا في التمثال النصفي لأنها صارت مع مرور الزمان غليظة. أما الجبهة النازلة المنحنية، والعينان الخوصاوان، والفم الشهواني كل ذلك يدل على ذكاء محدود، وعلى مزاج فيه مداراة وتفسخ، وقد ظن البعض أنه وجد في هذا الوجه النموذج القبائلي. أما من جهتي فأرى فيه مشرقياً رافها ومنحلا، أي أرى فيه الأخير من ذرية السلالة البطلمية الفسيخة.

2

برغم الاحتياط الذي كان يوبا قد اتخذه، باشراك ابنه معه فإن تغير النظام لم يَجْر دون حدوث الرجة. ذلك أن الملك الشاب الذي كان يودّ أن ينغمس في ملذاته، قد ترك الحكومة لعتقائه فأغضب هذا العمل بعض رعاياه كما يقول تاسيت Tacite [206] فانضموا إلى تاكْفَرِناس الذي كان لايزال يخوض المعارك ضد القوات الرومانية، ويبعث للسلب العصابات الآتية من كل مكان. لكن استطاع كُرْنيلْيوس ضولبيلاّ Cornelius Dolabella بروقنصل إفريقيا أن ينهي الحرب بقتل الثائر سنة 24 م. وكان ضولبيلاّ يطلب المساعدة من بطلمي، فتنبه هذا من غفلته وشارك في هذه الحملة بجيوش قدم بها. كما ساعد بعض الموريين الآخرين بتنظيمهم لبعض الغزرات التي يبرعون فيها.

ولما بلغ إلى رومة خبر حمية ابن يوبا، كافأوه بأن أحيوا لفائدته عملا قديما. إذ حمل إليه أحد أعضاء مجلس الشيوخ لقب ملك وحليف وصديق (وصَوْلجاناً من العاج مع رداء مطرز، وهي الهدية التي كان مجلس الشيوخ يهديها قديما) كما قال تاسيت. وتشهد نقود بطلمي أنه حاز آنذاك – مثلما حاز أبوه من قبل – الحلى التمجيدية التي رفض تيبير Tibère إعطاءها لضولبيلاّ المنتصر الحقيقي في المعركة. فنرى على هذه النقود الكرسي والصولجان العاجي، والتاج الذهبي، وكذلك نرى مرة واحدة الرداء المطرز.

ولا نكاد نعرف شيئا عن عهد بطلمي في الملك إلى ليلة مماته، غير أن المتأكّد هو أنه استمر على إعطاء البراهين على تعلقه برومة. فنقوده من غير استثناء تحمل كتابات لاتانية. وحلى التمجيد التي كثيرا ما كان يظهرها على هذه النقود تشهد باعترافه بالجميل لمجلس الشيوخ، وكذلك

صورة الجَدْي التي تظهر على النقود بكثرة فإنها - كما ظهرت على نقود أبيه - اعتراف بجميل الإمبراطور الذي أصبح هو أوغسطس المؤلّه. والمعبد بأعمدته الستة وبالعقاب على جبهته يشبه المعبد الذي تظهره لنا دوانق يوبا مصحوبا بكلمة Augusti، لكننا نقرأ على نقود بطلمي كلمة Ti. Augus إذن فالأمر يتعلق بتيبير Tibère الذي كان كَسَلفه تقام له العبادة في قيْصرية أثناء حياته.

ورغما عن الضآلة الشخصية لبطلمي، فقد كان له بعض الذكر في العالم. وذلك بفضل سعة مملكته، وخصوصا بسبب ذكرى أبيه وأجداده. فقد أقيم له تمثال في أثينا بمُسْتَراض جده بطلمي فيلَديلْف، قرب تمثال يوبا لاشك. كما أن المجلس الاتحادي في لوقيا Lycie أقام له تمثالا أيضا. ولا ندري لماذا. ونال التكريم في رومة، إذ وقع العثور بها على رؤوس لبعض تماثيل هذا الملك الموري.

كان گايوس قيْصر، المعروف بلقب كَليگولا Caligula والذي صار إمبراطورا سنة 37 م، ينحدر من مارك انطوان المثلث مثل بطلمي ابن كيلوبترا سليني. وكانت لذاك مع هذا في أول الأمر علاقات ودية، حتى أنه تنازل وأَشركه في مزاحه كما يفعل الأصدقاء. فقد حدث أن فارسا عكر صفاء إحدى الفرجات بأعماله الصاخبة، فبعث إليه كليگولا جنديا يأمره أن يذهب في الحال إلى أوستي Ostie ويركب البحر ويبلغ لبطلمي رسالة مختومة. فلما وصلت قرأ فيها الملك هذه الكلمات : (لا تفعل شراً ولا خيراً بمن أبعثه إليك).

وكان الخصام مع هذا الأحمق المتجبر بقوته سهلا بقدر ما كان وخيم العاقبة. وقد جرب بطلمي ذلك. ذلك أن ابن عمه دعاه إلى جانبه، وقوبل بحفاوة كبيرة. غير أن كليگولا أقام في أحد الأيام حفلا، فلما

وصله الملك الموري جذب إليه الأنظار بجمال ردائه الأرجواني. فتحرق گايوس حسدا لذلك، خصوصا وأن الأَرْجُوان كان هو ثوب الحفلات المخصص للإمبراطور، فكان الموت عاقبة هذه الجريمة. ولسنا ندري كيف مات بطلمي غير أن جملة غامضة لِسِنيكا Sénéque تسوغ الفرض بأن گايوس بعدما اعتقله، بعث به إلى المنفى، ثم أعطى الأمر بقتله.

وكان هذا قد جرى سنة 40 للميلاد، في عهد القنصلية الثالثة لكليگولا، حسبما ذكره دِيونْ كاسْيوس[207] وذلك صحيح لأن التاريخ الخاص لولاية موريطانيا القَيْصرية، كان في العهد الروماني يبدأ بسنة 40. ويظهر أن دِيونْ كان يعتقد أن دعوة بطلمي واغتياله حدثا في بداية السنة. غير أن گايوس كان غادر رومة في شهر شتمبر سنة 39، ولم يعد إليها إلا يوم 31 غشت سنة 40 بعد الحملة على جرمانيا وبلاد الغال. فلا يعقل إذن أن يكون استدعي بطلمي لما وراء جبال الألب، ولا أن يكون قد أقام بغير رومة الحفلة العمومية الكبرى التي قضت على الملك[208]. فنحن إذن أميل إلى أن نؤرخ لموت بطلمي والاستيلاء على موريطانيا بشهر شتمبر على أقرب تقدير. ولكي تتوافق - والحالة هذه - سنة الولاية مع السنة اليوليوسية Année Julienne فإن بدايتها أرجعت لفاتح يناير[209].

ولا نعلم لبطلمي ابناً ولا أخاً، كما أن كليگولا لم يكن ينوي أن يجعل له خلفا. فاستولى على ثروته التي كانت أهلاً لأن يطمع فيها، كما استولى على عبيده الذين آلوا من بعده إلى الإمبراطور كْلود Claude. ومهما كان قول پْلِين الشيخ Pline l'Ancien [210] فإن تقسيم موريطانيا لم يقع إلا في عهد كْلود سنة 42 حيث جزئت إلى ولايتين مطابقتين لمملكتي بوكوس وبوگود[211] إذ كان لابد، قبل ذلك من إخماد الثورات التي اندلعت عقب اغتيال بطلمي، وأثناء حياة كليگولا نفسه، الذي اغتيل يوم 24 يناير سنة 41.

ومن الممكن جدا أن گايوس – كما قال سْويطون Suétone، ودِيونْ كاسْيوس Dion Cassius – قد قَتل ابن عمه حسداً وطمعاً. لكن، ربما كانت تأملاته في بعض ساعات صفائه الفكري، أو على الأصح أن بعض النصائح التي قُدمت له في السر، قد أقنعته بأن الوقت قد حان ليحل الاستيلاء المباشر محل الحماية التي امتدت خمسا وستين سنة.

وكما أن كْلود Claude بعد ذلك ببضع سنين، قد شرع في الاستيلاء على الجزر البريطانية لحماية بلاد الغال، فكذلك كان الاستيلاء على موريطانيا ضمانا لسلامة الجنوب الغربي من أوربا. فأمام أسبانيا الغنية، كانت السواحل الإفريقية تقدم ملاجئ أمينة يلتجئ إليها القراصنة، وكان لايزال عالقا بالأذهان أن بوگود عبر البحر أربع مرات ذاهبا إلى أسبانيا ليحارب فيها. وموريطانيا نفسها كانت بها مستعمرات، لاشك أنها كانت تتمنى أن تصبح جزءاً من إحدى الولايات. وقد لاحظ الناس في عهد أوغسطس وعهد تيبير أن يوبا وبطلمي لم يستطيعا منع المغيرين الذين كانوا رعايا لهما، من تعكير صفو السلام حتى داخل المقاطعة الرومانية. لذلك كان يحسن أن تقوم حكومة أكثر قوة بفرض احترامها على «الباربار» الفتانين.

ومع ذلك فإن عهد يوبا – ولربما حتى عهد بطلمي – لم يكونا على وجه الإجمال، لغير صالح موريطانيا، التي زادت قيمتها الاقتصادية ولهذا فإن الاستيلاء عليها لم يكن يظهر كعملية خاسرة كما كان الأمر عقب موت بوكوس.

وهكذا، وبعد قرابة قرنين من إحداث الولاية الصغيرة بإفريقيا على أنقاض قرطاجة الخالية، نشرت رومة في الأخير سلطانها حتى سواحل المحيط، خلف أعمدة هرقل.

شروح وإحالات

1) الحرب الأهلية، الكتاب 2، الفصل 32.

2) في التاريخ الذي يذكر أن الخطاب كان قد القي فيه، يكون قيصر قد انتصر قرب لارِدَة على قائدين بعد معركة دامت أربعين يوما. ولكن في هذا التاريخ لم تكن الولايتان الإسبانيتان قد دخلتا في قبضته، بحيث أنه لم يستول على ولاية أسبانيا البعيدة Ultérieure إلا بعدة أسابيع من بعد. انظر الحرب الأهلية، الكتاب الثاني، الفصل 32 الفقرة 5.

3) يؤكد ذلك المشابهات في الأسلوب بين أپْيان، وبلوتارك.

4) أپْيان في الكتاب الثاني، الفصل 44، ويخطئ إذ يذكر أن كورْيون نزل بالقرب من أوتيكا.

5) يذكر لوكانيوس Lucain في الكتاب الرابع 6-585 أن كورْيون نزل بين كْلوبْيا (قليبية) وقرطاجة، وبهذا فلا يمكن وضع أنْكيلاريا بجنوب كْلوبيا. وفوق هذا فإننا لن نجد بهذه الناحية جَوْنا بين مرتفعين. وإذا كان ل. قيْصر قد فرّ من ناحية كْلوبْيا نحو الجنوب إلى هَدْروميت، فإنما فعل ذلك لينجو من عدوّ يأتي من الشمال على ما يظهر. أما تيسو Tissot في جغرافيته ج 1 ص 5-174 فإنه يجعل أنكيلاريا بالهضبة على بعد 5 كيلومترات بالجنوب الغربي للرأس الطيّب. كما أن هولْميس Holmes يقبل ما قاله من قبل كل من گيران Guerin وشْتوفّل Stoffel من أن أنْكيلاريا يمكن أيضا جعلها بجهة خليج تونس بجنوب طُنارة Tonnara

على بعد اثني عشر كيلومترا إلى الجنوب الغربي من الرأس نفسه وعلى بعد 4 كيلومترات جنوب الرأس الأحمر. والهورية تبعد عن كلوبيا بنحو 26 كيلومترا بطريق البر، وكذلك طنارة، وبطريق البحر يكون البعد 36 و 46 كيلومترا تقريبا، غير أن 22 ميلا تتجاوز 33 كيلومترا، وعلى هذا البعد من كلوبيا لا نجد على خليج تونس مكانا صالحا لإنزال الجيوش. فهل يجب أن نغيّر عدد 22 ميلا بعدد 17 ؟

6) أپْيان، الكتاب 2، الفصل 44 أخطأ إذ ظن أن كورْيون أخذ معه كل جيشه.

7) هذا المكان اليوم تحيط به الرسوبات التي جرفها نهر مجَرْدة الذي غيّر مجراه منذ عهد كورْيون. والنهر اليوم يجري بين مكان المعسكرات الكرنالية ومكان أوتيكا.

8) المعنى الأصلي في اللاتانية لكلمة إمبراطور Imperator هو القائد المزود بالسلطة Imperium العسكرية. ويمنح اللقب للقادة بعد انتصار عسكري. وسواء منحه اللقب مجلس الشيوخ بروما أو الجنود بالميدان، فإنه يتخلى عنه بعد رجوعه لروما ومروره على رأس موكب التمجيد.

9) قال أپْيان أن الملك صففهم عند سور المدينة بِطوله، ثم قتلهم طعنا بالرماح.

10) في الكتاب 112، الفقرة 37 يذكر تيت ليف أن هجوما جماعيا لكسيوس وبوگود قد كاد ينجح.

11) كان تريبونيوس سنة 48 قاضي الحضر Preteur Urbain، وبمجرد مغادرته للمنصب لزم أن يلتحق بأسبانيا منذ بداية سنة 47 ق.م.

12) يذكر ديون كَسْيوس المؤرخ في الكتاب 42، الباب 17، الفصل 2 أن كسيوس أزيح عن منصبه.

13) في «حرب إفريقيا» المنسوب لقيْصر، الكتاب 19، الفصل 4 : أن لابْيِينوس جاء بنفسه للالتحاق بكاتون Caton في ديركيوم مباشرة بعد معركة فَرْصال.

14) نال أفرانْيوس منصب القنصلية سنة 60 ق.م.

15) أما الشاعر لوكانوس Lucain فيذكر في ملحمته عن فرصال في النشيد 9، البيتين 8-297 أن كاتون دخل المدينة بحد السيف.

16) إذن فيكون الوقت تقريبا نهاية نوفمبر بالتقويم الرسمي، أي تقريبا نهاية سبتمبر بتقويم جوليان.

17) فرصال Pharsale للشاعر لوكانوس، الفصل التاسع الأبيات 371-949.

18) المسافة هي 850 كيلومتر، فالمعدل المقبول للسير اليومي هو 28 كلم. أما بلوتارك فيذكر في النص الموجود بين أيدينا سبعة أيام فحسب، وذلك غير معقول، بينما يذكر لوكانوس (9-1-940) أن المسير دام شهرين قمريين اثنين (Deux Lunaisons) وهذا يناسب طول المسيرة كلها من بيرنيس إلى أوتيكا مع تقسيمها إلى قسمين متعادلين تقريبا بالتوقف والإقامة في مدينة لبتيس.

19) ورد في «حرب إفريقيا»، الكتاب 57، فصل 5-6، أن يوبا طلب من سيپيون أن لا يفعل فعله هو في ارتدائه للرداء الأرجواني، فاستجاب القائد الروماني لطلبه وارتدى الرداء الأبيض.

20) توجد قطع فضية كتب عليها .M. Cato. Pro. Pr مع صور للحرية والنصر. وقد ظن مومْسِن Mommsen أن هذه النقود ضربت في صقلية سنة 49، لا في إفريقيا حيث يجب ذكر اسم سيپْيون، لأن كاتون لم يكن القائد الأعلى بها. ولكن يجاب على هذا أولاً : أن كاتون لم يمكث بصقلية إلا قليلا، ولم يكن له متسع من الوقت لسك النقود فيها. ثانياً أن كاتون برغم تبعيته في إفريقيا لسيبون فإنه لم يكن نائبا عنه. ولذلك فالأرجح رد هذه النقود إلى حقبة إقامة كاتون في أوتيكا.

21) بذكر الحرف الأول من كل كلمة من الكلمات الثلاث على هذا النحو : G.T.A تكون : Genius Terrae Africae أي ربّة الأراضي الإفريقية.

22) كان العدد الاعتيادي للفيلق هو 6200 دنكي، أما في الحرب الأهلية فإن الفيالق القيْصرية والبومبية أصبحت أقل عددا. ولعل أقصى ما بلغته هو 4000 جندي

23) زيادة على الفرسان الغاليين والجرمانيين الذين كانوا مع لابينوس، فإن فرسانا رماة – كما ذكر مؤلف «حرب إفريقيا» في الكتاب 19 الفصل 6 – من أصل شرقي قد كانوا ضمن جيش بومبي.

24) أخطأ أپْيان حين ذكر في الكتاب 2 الفصل 95 أن القيادة العليا لجيش سيبيون كانت في هَدْروميت (سوسة) عند نزول قيْصر بالأرض الإفريقية.

25) بوتْبوت Putput هو المكان المعروف اليوم باسم سوق الأبيض على ساحل البحر، غير بعيد من الحمّامات.

26) أعلن حسب رواية أپْيان في الكتاب 2 الفصل 96 : «أن يوبا قدم ليحارب قيْصر بجيش يتكون من 30.000 من المشاة و20.000 من الفرسان وكثير من الرجال المسلحين بالرماح». فهل هذا العدد مبالغ فيه ؟ يمكن.

27) الكتاب 24، الفصل 1.

28) «حرب إفريقيا»، الكتاب 23، الفصل 3-1.

29) في سنة 64 كانت هذه العملية جارية منذ عدة سنين. وكان سيتيوس قد ورد على أسبانيا البعيدة (ومنها إلى موريطانيا لاشك) بقصد إجراء هذه العملية. انظر رسالة سيسرون Pro Sulla 20، 56.

30) «كاتيلينا» لسالوسْت الكتاب 21، الفصل 3.

31) يذكر اصْطِفان اگصيل أنه سيذكر أقسام الفصول تبعا لطبعة شْنيدَرْ التي صدرت في برلين سنة 1905 لكتاب «حرب إفريقيا». وأن بالنص بعض الفجوات والتحريفات. ولا معنى لقبول الفكرة القائلة بأن عدة تعاليق وحواش هامشية أدخلت في صلب النص.

32) أما أوبيوس Oppius فكان حقيقة من رجال القلم، خلّف للآداب اللاتانية عدة مؤلفات، من بينها كتاب عن حياة قيْصر.

33) بلوتارك في ترجمته لقيْصر 52-53. وفي ترجمته لكاتون اعتمد على مصدر أو مصادر خاصة.

34) أپْيان في كتابه «الحرب الأهلية»، الكتاب الثاني، فصل 95-97.

35) تيت ليف، الكتابان 113 و114 في خلاصتهما.

36) في جغرافيا الولاية الرومانية بإفريقيا. ج 2، ص 721-762.

37) فـي تـاريخ يوليـوس قيْصر، «الحـرب الأهليـة»، 2، ص 106-154 و279-298.

38) ڤايْت في ميادين المعارك القديـمة Schachtfelder لكرومايير ج 3 ص 717-907، والخرائط 17-21.

39) يذكر مؤلف «حرب إفريقيا»، الكتاب الثاني، الفصل الخامس، أن قيْصر وصل في اليوم الرابع أمام السواحل الإفريقية (أي الرأس الطيب) بعد إبحار سريع. (فاليوم الرابع يوافق 28 ديسمبر مع اعتبار اليوم الأول واليوم الأخير). وينتج عن هذا أنه قضى ثلاثة أيام وثلاث ليال ليعبر على جناح السرعة مسافة 160 كيلومترا. ومن ناحية أخرى فإنه لاشك نزل أمام هَدْروميت يوم 28 ديسمبر لأنه بعد يومين أي في فاتح يناير (كان ديسمبر آنذاك من 29 يوما). وصل إلى لبتيس بعد ليلتين قضى إحداهما أمام هَدْروميت، والأخرى في روسبينا Ruspina. ولكن لا يمكن أن يكون في يوم واحد هو 28 ديسمبر (الموافق ليوم 12 أكتوبر بالتقويم المعدل) استطاع أن يسير مع الساحل من نواحي الرأس الطيب إلى هَدْروميت مسافة 150 كيلومتر تقريبا، وأن ينزل جنوده ويقيم معسكره ويطوف حول المدينة. ومثله في ذلك بيزون الذي كان يتبعه برا بفرسانه من كلوبيا ووصل إلى هَدْروميت يوم 28 أو 29 صباحا، ما كان ليقطع هذه المسافة في مثل هذا الوقت القصير.

40) يذكر دِيون كَسْيوس، الكتاب 42، الفصل 58، الفقرة 2 : أن قيْصر عبر البحر في غفلة من أعدائه وعلى غير ما كانوا ينتظرون، لأنهم لم يكونوا ينتظرون أن يأتي لمهاجمتهم في فصل الشتاء. لكن يصعب

علينا نحن أن نقبل كون اليومْپيين لم تبلغهم أخبار عن الاستعدادات الجارية في مدينة ليليبي، ولا عن قدوم الدكتاتور وقدوم جيوش وسفن عديدة إلى هذا المكان. ومع ذلك فإن المتأكد هو أنهم كانوا يجهلون أين كان قيْصر ينوي النزول، خصوصا وأن القيْصريين أنفسهم كانوا يجهلون ذلك.

41) الغالب على الظن أن هذه الجبال هي اليوم مرتفعات مسجد عيسى جنوب شرق سهلين.

42) أپْيان، كتاب 2، فصل 95، وديون كسيوس كتاب 43، فصل 2 فقرة 2 يعزوان لِبيتْريوس حديثا مفاده أن قيْصر حلت به الهزيمة، بينما يروي سترابون في الكتاب 17، فصل 3، فقرة 12، ويجعل النصر بجانب قيْصر، والهزيمة تحل بالآخرين.

43) حيث يوجد اليوم ميناء المنَسْتير، حسب رأي ڤايْت Veith ص 773.

44) المقصود بالكباش الآلات الحربية القديمة التي هي عبارة عن جذوع متينة تنتهي برأس كبش من عود أو حديد. وتستعمل في الهجوم لنقب الأسوار أو تحطيمها.

45) بالمكان المسمى هَنْشير مكَرْكبة، كما يرى ذلك تيسو Tissot وستوفيل Stofel وڤايت Veith.

46) الذي يجري من الجنوب إلى الشمال، ويصب اليوم في سبخة سهلين. ولابد أنه في القديم كان يصب في البحر.

47) يروي أپْيان في الكتاب 2 الفصلين 95 و96 : أن سيپْيون ترك جيشه وذهب ليأتي بيوبا. ولاشك أن في الأمر خطأ، ولعل زيارة سيپيون ليوبا حدثت في عهد سابق لهذا.

48) لم يذكر ذلك مؤلف كتاب «حرب أفريقيا».

49) في الرواية اضطراب، بحيث لا يدري هل كان سقوط المدينة نتيجة لما بذله هذا أو ذاك، أو لما بذلاه معا. ولكننا نعلم أن قيْصر وهب مدينة سِرْتا بعد الحرب لسيتْيوس. وهذا يؤيد أن سيتيوس هو الذي احتلها. لكن أپْيان : ك 2، ف 96 يعزو احتلال المدينة لبوكوس ولا يذكر اسم سيتيوس، كما أن ديون كاسْيوس ك 43، فصل 3، فقرة 2-4 يذكر أن سيتيوس كان في المعركة بجانب بوكوس، وأنه أراد مساعدة قيْصر في هذه الحرب، فانتهز غياب يوبا وارتمى على نوميديا ثم على أرض الجيتوليين، كما أن مؤلف «حرب إفريقيا» ذكر في ثنايا قصته عدة من الوقائع التي شارك فيها سيتيوس، ولم يذكر بوكوس: ك 36 4، ك 48 ,1، ك 93 ,3، ك 95 ، 1-2.

50) إنما علم ببداية هجوم بوكوس وسيتيوس، لا بجميع الأحداث التي يذكرها هنا صاحب «حرب إفريقيا». فَيوبا لم يغادر مملكته لحرب قيْصر إلا في الأيام الأولى لشهر يناير، وعلى الأكثر يكون غادرها في وقت لم يكن يخشى فيه أي شيء من الناحية الغربية. ومن ناحية أخرى، فإن يوبا قد عاد أدراجه لما علم الأخبار السيئة الواردة عليه من نوميديا، وكان رجوعه ببضعة أيام قبل يوم 25 يناير. وهو اليوم الذي غادر فيه قيْصر نَجْد روسْبينا. وخلال هذه المدة لم يكن باستطاعة بوكوس وسيتيوس - مهما كانت عجلتهما - أن يحتلا كثيرا من المواقع.

51) بلوتارك في ترجمته لقيْصر. الفصل 52.

52) Trous de Loup ترجمتها اللفظية حفر الذئاب، ولكنني فضلت أن أترجمها بثقوب التعويق، وهي في الهندسة العسكرية الرومانية عبارة عن مجموعة من الحفر التي لها شكل مخروطي مقلوب، فتحته العليا مستديرة قطرها متران، وعمقها إلى الأسفل 1,20 والقعر دائرة قطرها 0.80، ويغرس في القعر وتد صلب، عالٍ ينتهي برأس حاد. وتدخل هذه الثقوب ضمن الجهاز الدفاعي عن المدن والمعسكرات وغيرها، لأنها تعوق الأعداء وتعرقل تقدمهم. وإذا زلت أقدام بعضهم فإنهم يقعون بداخل الحفر على الأوتاد التي تجرحهم أو تثقب أجسامهم.

53) ذكرت هذه المدينة بصيغ مختلفة، منها: أشيلا Achylla، أشلا Achilla، أسيلا ...Acylla «حرب أفريقيا» ك 33 , 1 , 2 , 3 , 4، ك 1 , 43 ك 67 , 1.

54) يرى اصطفان اگْصيل ج 2، ص 130 أن أشولا هي الشّبّة La Chebba على نحو 60 كيلومترا جنوب روسْبينا. أما ڤايْت، ص 723-824 فيرى أن أسيلا لا شك قرب روسبينا – أوزيتا – لبتيس، وأنها ربما كانت هي خرائب المدينة القريبة من قصر هلال على 4 كيلومترات إلى الجنوب الشرقي من لبتيس.

55) ذكرت كذلك باسم ثيسْدرا Thysdra وتوسْدروس Tusdros ، «حرب إفريقيا» : ك 36 , 2. ك 76 , 1. ك 86 , 2. ك 93 , 1 ؛ في بطليموس ك 4 , 3 , 39. وفي دليل أنطوان ص 59. وهي اليوم مدينة الجمّ El-Djem بنحو 50 كيلومترا جنوب روسبينا.

56) البواصو Boisseau مِكْيال قديم للمواد الجافة يسع نحوا من 13 كيلو.

57) يرى كل من ڤايْت وهولْمس أن هذا المكان هو كُدْيَة الرصاص، ولكن اكْصيل يناقش هذا الرأي ويلح لعدة أسباب لا داعي لذكرها، في القول بكدية القبلة لا غيرها.

58) دِيون كاسْيوس : ك 43 , 4 , 6.

59) كان هؤلاء الجيتوليون يعملون بالرابع والسادس من فيالق سيپْيون. انظر «حرب أفريقيا» ك 52 , 5.

60) انظر ذلك في كتاب «حرب أفريقيا» ك 60.

61) هي الرابعة عشية تقريبا.

62) Trirème أي سفينة تسيرها ثلاثة صفوف من المجاديف وأصطلحُ أنا على ترجمتها المختصرة بثُلاثية الصفوف، وكذلك في رباعية الصفوف Quadrirème وخماسية الصفوف Quinqérème.

63) «حرب أفريقيا». ك 47، 1.

64) هي المعروفة باسم جَدْوَل بوتينْـگير Table de Peutinger، باسم العالم الألماني كونْراد بوتينْـگير (1465-1547). هذا الجدول عبارة عن خريطة للطرق والمسالك في الإمبراطورية الرومانية كتب في القرن الثالث الميلادي، وعثر على نسخة منها كتبت في 1264 م. وكان الذي عثر عليها هو كونْراد صيلْتِس Conrad Celtes، وأعطاها لبوتينْـگير. وفي 1714م اكتُشف النص الأصلي لها، وهو اليوم محفوظ بخزانة فيينا بالنمسا. والقسم المتعلق منها بموريطانيا الطنجية لم يصلنا.

65) ك 68، 1.

66) «حرب أفريقيا»، ك 69. كانت هناك أقوات في زيطا التي خلف بها قيْصر حامية. فهل يحسن القول بأنه لم يعط بالمدينة لجنوده وقتا يتناولون فيه الطعام ؟

67) خارج الولاية الرومانية كانت هناك مدينة أخرى تحمل اسم فاگا Vaga، هي المعروفة اليوم باسم باجة. وإذا قلنا أن زيطا في سيدي نْجا، فيمكن اقتراح كون فاگا الواردة هنا في النص هي الممثلة في الخرائب الرومانية ببَني حْسَن، على ستة كيلومترات غربي سيدي نْجا، وبهذا تكون المدينة التي خربها يوبا قد عادت للوجود.

68) Lustration (Lustratio) هي الرقْية أو عملية التطهير أو عملية التعويذ، وهي عند الرومانيين من الطقوس الدينية التي كان يقصد بها طرد الشرور والمؤثرات السيئة عن جماعات الناس أو الأشياء، سواء كانت جيشا أو سكان مدينة أو أسلحة أو حقولا زراعية أو غير ذلك. وصورتها أن تُرتّل الدعوات، ويخط خط سحري وهمي، بداخله جميع من تجري عليهم العملية، ويطاف حولهم بالقرابين الثلاثة : خنزير وشاة وثور Suovetaurilia، ثم تنحر هذه الحيوانات لتعمهم بركتها، وتكون في مارس وأكتوبر للأسلحة، وهذه تسمى trium Armilus، وتكون في ماي للحقول وتسمى Ambarvalia، وفي فبراير تكون للمدن، وتسمى Amburbium، كما تكون كل خمس سنين بعد الإحصاء العام Cens، إذ يجتمع الشعب في ميدان مارس، ويطوف عليه موكب المرتلين بالحيوانات ثلاث مرات. وهذه تسمى Lustrum.

69) هي خريطة بوتنگير. انظر التعليق رقم 64.

70) المجالدون (Gladiateurs (Gladiatores كانت لهم مدارس خاصة يتعلمون فيها أعمال المجالدة العنيفة. وقد ظهروا في رومة لأول مرة سنة 264 ق.م ثم ألغيت ألعابهم في القرن الميلادي الخامس. وكانوا يؤخذون من بين المجرمين المحكوم عليهم، ومن أسرى الحرب ومن الصقالبة وربما حتى من المتطوعين. وكانوا عدة أصناف، منها السَّمْناتيون Samnites، والتراقيون Thraces والرِّتْياريون Rétiaires. ولكل صنف نوع من السلاح. والرتياريون على الخصوص هم الذين كانوا يحملون الشبكة والمذرى ذات الأسنان الثلاث. وكان الأقوياء منهم إذا تعددت انتصاراتهم في ميادين اللعب ينالون المكافأة وربما استرجعوا حريتهم.

71) نَفْهم كونهم أحسنوا مقابلة كنْسيدْيوس، من كون قيْصر فرض بعد نهاية الحرب غرامة مالية على سكان ثيسْدروس. انظر «حرب أفريقيا» : ك 97، 4.

72) تبلغ المسافة من هذه العيون إلى معسكر أگار 26 من الكيلومترات تقريبا.

73) لابد أن مَرْكيوس كْريسبْوس هو الآن برتبة مساعد مفوّض Legat لقيْصر. وقد عين بعد ذلك بثلاث سنوات في منصب بروقنصل بإحدى ولايات الشرق.

74) قال سترابون، ك 17 ,3 , 12 إن قيْصر استولى عليها دون حرب.

75) على الجانب الأيمن أو الأيسر لمدينة طيجْيا، لا عليهما معا.

76) ديون كاسيوس Dion Cassius مؤرخ إغريقي، ولد في نيقْيا Nicée حوالي منتصف القرن الميلادي الثاني، وتوفي حوالي 235 م، عن سن تناهز الثمانين. وصل إلى رومة سنة 180م فنال بها رفعة وعين في عدة من المناصب، كان من أهمها خارج رومة فيما بعد منصب بروقنصل إفريقيا الذي ناله من 224 إلى 227 في عهد ألكسندر سيڤير. وبعد 229 عاد لمسقط رأسه حيث توفي. وقد كتب ديون كاسيوس عدة مؤلفات أهمها تاريخه لرومة باللغة الإغريقية، الذي استمر في كتابته على ما يظهر إلى سنة 233 م. وقد ضاعت مؤلفاته سوى قسم من تاريخ رومة.

77) ولد بلوتارك Plutarque في أواخر منتصف القرن الميلادي الأول في مدينة خيروني Cheronée بمقاطعة بِيوسْيا Béotie ببلاد الإغريق، وتوفي بها حوالي 125 م. وانتقل في شبابه إلى أثينا حيث تمم تعلمه بتلقي الآداب والعلوم. وزار الإسكندرية، ثم دخل عدة مرات مدينة رومة حيث ألقى عدة محاضرات. وحين قارب الخمسين من عمره عيّن كاهناً بمعبد أپولون بدِلْفَة. فكان يقدم القرابين، ويقود مواكب العباد، ويرأس جموع المرتلين، ويخاطب الربّ.

وقد اشتهر بلوتارك بعمله الغزير، ومؤلفاته التي قيل إنها بلغت 227 أو 250 مؤلفا. لكن المؤكد أن بعضا من هذه المؤلفات قد عزيت إليه بعد موته.

واعتاد مؤرخو الفكر أن يقسموا آثار قلمه إلى قسمين، قسم الكتابات الأخلاقية، وقسم الكتابات في تراجم عظماء الرجال المشهورين. وهذا القسم الأخير مهم جدا، ولايزال إلى اليوم عمدة المؤرخين. وهو المعروف باسم التراجم المقارنة Vies Parallèles،

لأن بلوتارك اعتاد فيه عند ترجمته لأحد الأشخاص أن يقارن حياة المترجم له بحياة عظيم آخر مثله وبأعماله. وقد ضاع الثلثان تقريبا مما كتبه بلوتارك ولم يبق سوى 84 من مؤلفاته.

78) آسينْيوس پولْيون Asinius Pollion خطيب وكاتب روماني. ولد سنة 76 ق.م وتوفي سنة 5 م. ينحدر من أسرة فرسان مجيدة من مقاطعة سامنيوم. كان أول الأمر مع پومْپِي ثم والي قيْصر، فعبر معه نهر الرّوبيكون، كما حضر معه معركة فِرْصال. وقد عُيّن پولْيون ليشرف على عملية توزيع الأراضي على قدماء المحاربين، فانتهز الفرصة ورد على الشاعر ڤِرْجيل أراضيه. ثم امتنع من بعد عن المشاركة في الحرب الأهلية. واعتزل السياسة. وأحاط نفسه بجماعة من الكتاب والأدباء. وكان بوليون أول من ابتكر القراءات العامة في عهد أوغسطس، وهي عبارة عن نوادي كان الأدباء يجتمعون فيها ليسمعوا ما يقرأه عليهم واحد منهم فيما كتب أو ألف، كما كان بوليون أول من أنشأ خزانة كتب للعموم في رومة. ولذلك سُمّي بحامي الفكر والأدب. وقد كتب بوليون تاريخا للحرب الأهلية من وجهة النظر الشعبية، جعله في 17، وتناول فيه حقبة 60 إلى42 ق.م. كما كتب بعض المآسي والخطب. ولكن ضاع كل ذلك.

79) أپْيان Appien مؤرخ إغريقي من أهل القرن الميلادي الثاني، يجهل تاريخ ولادته ومماته. ولكن المعلوم عنه أنه ولد في مدينة الإسكندرية بمصر، ودخل إلى رومة حيث نال مكانة، ثم عين على الجبايات بمصر. كتب تاريخا لرومة وإمبراطوريتها، نحا فيه نحوا خاصا، وهو أنه جمع الأحداث والوقائع ورتبها ترتيبا جغرافيا بحسب الأمم والأوطان التابعة لرومة أو التي لها بها علاقة. وكان مؤلفه هذا في الأصل مكونا من 24 كتابا، ضاع منها نحو النصف. غير أن الباقي

منه لايزال حتى اليوم عمدة المؤرخين في تصحيح الكثير من جوانب الحرب الأهلية الرومانية، وفي إعطائنا بعض المعلومات عن الأمم الخاضعة آنذاك لروما وخصوصا منها مَقْدونيا وأمم الغرب.

80) بلوتارك في ترجمته لقيْصر، الفصل 53.

81) ك 84.

82) يظهر حقيقة أن القتلى من البومْبيين في هذا اليوم كانوا قليلين، باستثناء هؤلاء الفارين الذين قتلوا بعد المعركة ببضع ساعات. لكن حسب رواية أخرى مقبولة، كانت خسارة البومْبيين 10.000 قتيل.

83) قيل عن ذلك إنهم كانوا يرجون أن يجدوا بالمعسكر الذي يسرعون للوصول إليه قائدا جديدا يجتمعون حوله. «حرب أفريقيا». ك 85، 4.

84) كان حاضرا يشاهد تذبيح البومْبيين على التل القريب من معسكر يوبا «حرب أفريقيا» : ك 85، 10.

85) أبْيان، الحرب الأهلية : ك 2، 97.

86) بلوتارك في ترجمة قيْصر، فصل 53.

87) ك 86 , 1.

88) بعد تذبيح الفارين عند مدخل البرزخ الشرقي، عاد قيْصر ورجاله إلى ثابْسوس، بعد أن قطعوا مسافة نحو من 12 كيلومترا. ولاشك أنهم، قبل نزول الظلام، عرضوا على أهل ثابْسوس الفِيَلة التي استولوا عليها أثناء النهار، ليشاهدها سكان المدينة.

89) كاتون الصغير Caton le Jeune، من 57 إلى 72.

90) ثْراصِياس لوكْيوس بايْتوس Thraséas Lucius Paetus ولد في مدينة بادو Padoue بإيطاليا في بداية القرن الميلادي الأول وتوفي سنة 66م. والمعروف عنه أنه كتب ترجمة حياة كاتون هذا، المشهور باسم كاتون الصغير أو كاتون الأوتيكي Caton d'Utique. وكان ثْراصِياس من السالكين على نهج المذهب الفلسفي الرواقي Stoïcisme، الذي يرى أن قيمة الحياة في الأخلاق، وأن المعرفة هي فن اكتساب الفضيلة والعمل لتطبيقها في الحياة العملية، الأمر الذي جعله يقدر كاتون وهو رواقي مثله صلب الأخلاق، ويقدر موقفه من قيْصر وانتحاره حتى لا يقع بعد الاندحار في يد قيْصر. كما أن ثراصياس كان ذا قوة معنوية وجرأة نفسية حفظ بهما استقلاله عن بقية أعضاء مجلس الشيوخ حينما كان من جملة أعضائه، فوقف في وجه نيرون الطاغية الروماني، ودفع المجلس حتى أصدر مرتين حكمه ضد مواقف ثراصياس منه، وأمره أن ينتحر بقطع عرق يده. ففعل ذلك بوقار وحلم. وقد قيل إن نيرون قرر أن يقتل الفضيلة بقتله لثراصياس.

91) «حرب أفريقيا»، ك 87 وك 88.

92) «حرب أفريقيا»، ك 87، 1. ودُعيت باسم فارا Phara في مخطوطات سترابون : ك 17، 3، 12.

93) هذه المدينة هي اليوم هَنْشير سيدي خْليفَة، وقد اكتفى سترابون في المصدر أعلاه، بأن ذكر «أن خيالة سيپْيون أحرقوا فارا Phara» وسكَت عما حلّ بسكانها.

94) «حرب أفريقيا» : ك 88.

95) أپْيان : ك 2، 100، ذكر غلطا أن قيْصر أعدم كل من وقعت عليه يده من الثلاثمائة.

96) «حرب أفريقيا» : ك 95، 3.

97) كايوس سالوسْتيوس كْرِسْبوس Caius Sallustius Crispus المشهور اليوم باسم سالوسْت Salluste مؤرخ لاتاني ولد بمدينة أمترنوم Amiternum المعروفة اليوم باسم أمَتْريس Amatrice، سنة 86 ق.م وتوفي برومة سنة 35 أو 36 ق.م. ولسنا نعلم متى وكيف بدأ الاتصال بين سالوست وقيْصر، ولكن المتأكد هو أن المؤرخ حظى بثقة الدكتاتور حتى عينه سنة 46 ق.م حاكما لولاية «أفريقيا الجديدة» Africa Nova، وذلك بعد انتصاره على اليومْپيين في الحرب الإفريقية، وموت الملك يوبا ملك نوميديا. ولما قتل قيْصر سنة 44 ق.م اعتزل سالوسْت السياسة والوظيفة العمومية وأقبل على التأليف. فخلف كتابا عن مؤامرة كاتَلينا، وكتاباً عن «حرب يوغرطة»، وكتاباً باسم «التواريخ». وهذا الكتاب الأخير قد ضاع إلا فقرات موزعة في كتب بعض القدامى من الكتاب اللاتانيين. وأما الكتابان الأولان فلا يزالان موجودين. وأهمهما بالنسبة لنا هو حرب يوغرطة الذي تحدث فيه عن الحرب التي خاضها الملك يوغرطة ملك نوميديا ضد الجيوش الرومانية من سنة 111 ق.م إلى 105 ق.م، وانتهت باندحاره، وحمله أسيرا إلى رومة حيث قُتل خنقاً. وقد قمنا نحن بترجمة هذا الكتاب إلى العربية مع مقدمات إضافية وتعاليق وشروح عديدة.

98) لِبْرا Libra أو لِتْرا Litra من وحدات الوزن عند الرومانيين. وتزن على العموم 12 أوقِية Onces أي 327 گراماً.

99) مسنيسّا هذا هو أحد أحفاد جده وسميه مسنيسّا 202-148 ق.م. ويظهر أنه ابن گاوْضا Gauda وأخ لهمْبسال الثاني. ويظهر جليا أن اسمه الحقيقي هو مسْتْنيزنْ Mastenizin. ولكن التحريف دخل عليه فدعي بُاسم مسِنيسّا ومسْتانسوسوس Mastanesosus. انظر التعليق رقم 611، والجدول المصاحب لصفحة 244 من مجلة I° semestre 1960, Tome 8, Libyca.

100) پْلين هو كايوس پْلينْيوس سكُنْدوس Caius Plinius Secundus، ولد في كوم Côme سنة 23 م وتوفي سنة 49 م. وكانت وفاته بسبب ثورة بُرْكان القيزوڤْ، إذ أراد أن ينجي بعض الناس، ولكنه اختنق ببخار الكبريت المنبعث من البركان. وقد اشتهر پْلين هذا بموسوعته القيمة في علوم الطبيعة. ويهمنا منها الكتاب الخامس الذي تناول فيه الحديث عن موريطانيا الطنجية أي المغرب الخاضع آنذاك لرومة.

101) ديون كاسيوس، ك 43، 36، 1.

102) يقول أپْيان، ك 4 ، 54 : إنه وهبه أحسن أقسام هذه المملكة.

103) كاتب لاتاني في أهل القرن الميلادي الأول. ولد بمدينة طِنْجِنْتيرا Tingentera بالجنوب الأسباني، وكان معاصرا للإمبراطور كَلود Claude. ترك مؤلفا في الجغرافيا من ثلاثة كتب. وهو عظيم الفائدة لكونه أحد المراجع الجغرافية للعهود القديمة. ويهمنا نحن منه بصفة خاصة وصفه لساحل البحر الأبيض المتوسط ابتداء من موريطانيا (المغرب) التي ذكرها – ولو باختصار – في ك 1، 5. وك 3، 10.

104) بْطُلمي كْلود Ptolémée هو المعروف عند العرب بِبَطْليموس، وهو من العلماء الإغريق، كان يزاول نشاطه العلمي بالإسكندرية في

مصر سنة 128م. وقد اشتهر بمؤلفه Hémégisté الذي ترجمه العرب باسم كتاب «المَجِسْطي». وهو في علم الفلك، ويتكون من ثلاثة عشر كتابا. كما اشتهر بمؤلف آخر في الجغرافيا، وهو وصف الأرض في ثمانية كتب. وأورد فيه أسماء الأمكنة ومواقعها بذكر الأطوال والعروض. ويعنينا نحن منه بصفة خاصة وصفه لموريطانيا الطنجية التي ذكرها في ثمانية فصول مختصرة.

105) دُعيت مستعمرة سيرْتا باسم : مستعمرة سيرتا اليوليوسية الفتية الجميلة القوية Julia Iuvenalis Honoris et Virtutis Cirta، ودُعيت روسيكاد : Veneria Rusicade أي روسيكاد القينوسية، ودُعيت شولو: Minervia Chullu أي شولو الميترْقية، ودُعيت ميليف (وهي ميلة) : Sarnensis Milev أي ميلة السَّرْنَية.

106) انظر ترجمتنا العربية لِـ «حرب يوغرطة» لسالُسْت ك 19، 3.

107) طائفة الفرسان Ordre équestre. كان الانتساب لهذه الطائفة في العالم الروماني يعتبر مرتبة تكريمية، لأن الفرد منها لابد أن يتوفر فيه شرطان : 1- أن لا تقل ثروته عن 400.000 سيسترس، 2- أن يختاره المحتسب Censeur لنيل هذا التكريم الذي ينتج عنه حصوله على فرس يحارب عليه، وتدفعه له الدولة، أو تدفع له ثمنه ومصاريف نفقاته. وبهذا فليس كل صاحب فرس من أهل هذه الطائفة التي أصبح أفرادها في مرتبة أرستقراطية تأتي بعد البطارسة وفوق العموم من الناس. وكان أصحابها يعرفون أيضا باسم البوبليكانيين أصحاب الصفقات العمومية، لأنهم استولوا على الصفقات التي تعقدها الدولة عند قيامها بإنشاء الخدمات العامة. فزادت بذلك ثروتهم وأصبحوا في رومة والولايات قوة سياسية ترجح كفة هذا الزعيم أو هذا الحزب أو ذاك.

108) لاتيفونْديا Latifundia أراضٍ شاسعة يعسر ذكر مساحتها، اقتطعَها السادة لأنفسهم من أَملاك الدولة في الأرض المغلوبة أو المفتوحة. فهي إذن أراضي العموم Ager publicus وكانت في الأصل إخاذات للاستثمار والاستغلال بكراء زهيد، مع استمرار ملكية الدولة لها. ولكنها صارت مع الزمان ملكا شخصيا. ويكفي لتقدير هذا التسلط أن تعرف مثلا أن إيطاليا نفسها في نهاية العهد الجمهوري وقعت في يد جماعة صغيرة من كبار الملاكين، كما أن پِلْين يذكر أن نصف أرض إفريقيا كان في يد ستة أفراد في عهد الإمبراطور نيرون. وكانت هذه الأراضي تستعمل في الأغلب مراعي لماشية السيد المالك، تحت إشراف عبيده، كما تستعمل مغارس للكروم والزيتون. وقد حدثت بسببها رجات سياسية عنيفة في بعض الأحيان، دعت بعض الحاكمين والمفكرين إلى أن يفكروا في الإصلاح بتجديد الملكية وتوزيع الأرض على صغار الناس ليعملوا بها ويعيشوا منها، وليقيموا بها عن رومة التي ستستريح من فتنهم المتكررة. فكانت عدة مشاريع، منها قانون ليسينْيوس سْطولون 376 ق.م Licinius Stolon، ومجهودات الأخوين الكْراكِيِّين من 133 إلى 123 ق.م، وغيرها.

109) Municipium هو المساهمة في التحملات. وهو نظام يقصد به المدينة أو على العموم الجماعة المشاركة لرومة في تحمل الأعباء المالية أو العسكرية بالإكراه، بسبب استيلاء رومة عليها وتبعيتها لها. وكانت رومة طبعا هي التي تحدد مقدار تلك المشاركة ومع ذلك تحتفظ الجماعة أو المدينة بنظامها الخاص وأعرافها وقانونها، كما تعين موظيفها العلاة. ولم يكن أول الأمر من الضروري أن ينال أبناؤها دائما حق المواطنة الرومانية، وإن كان

يحدث في بعض الأحيان أنهم يتمتعون به إذا دخلوا لرومة، فإذا غادروها توقف تمتعهم بذلك الحق، ومنذ القرن الثالث ق م أخذت الجماعات تتمتع شيئا فشيئا بحق المواطنة. وفي 42 ق.م عمم إطلاق ذلك الحق في إيطاليا للجميع. أما بالولايات التابعة لها فكان قانون الأحوال الشخصية مختلفا بحسب الجهات. وكانت الأرض خاضعة لنظام الضرائب العقارية. ونظام المونِسيبْ هذا مخالف لنظام المدن الحرة.

110) پْلين ك 5، 29.

111) المقصود بالأجنبية Pérégrine أن سكانها ليسوا رومانيين مواطنين، والمعلوم أن المغاربة وصفوا بهذا الوصف مع أنهم في أرضهم وبلادهم.

112) ديون كاسيوس ك 43، 14، 1.

113) لم تكن قرطاجة على طريقه، لا حين كان يتجه على عجل من ثابْسوس إلى أوتيكا، ولا حين اتّجه من أوتيكا إلى زاما، ولا عند اتجاهه من زاما إلى أوتيكا.

114) صولان solin هو كايوس يولْيوس صولينْيوس الجغرافي الذي كان في أواسط القرن الثالث الميلادي. وهو مختصِر پْلين، ومؤلّف «مجموعة النوادر التي لا تنسى».

115) ترِتْولْيان Tertullien هو كنْتوس سِبْتيمْيوس فْلورانْس تِرْتولْيانوس Q. Septimius Florens Tertullianus، وُلد بقرطاجة حوالي 150م في أسرة وثنية، وتوفي سنة 220م. اعتنق المسيحية وبلغ منزلة راهب في قرطاجة، ومال لمذهب الراهب مونْطانوس، ثم تخلى عنه

وابتدع مذهبا عرف باسمه. وكان ترتوليانوس ذا ثقافة واسعة صرفها في تمجيد المسيحية والدفاع عنها بأسلوبه الجزل المليء والملون، حتى قيل عنه إنه مبتدع اللاتانية الكنسية. وقد كتب كثيرا في الدين والأخلاق. ويُعتبر الكثير من كتاباته صورة شاهدة على الأحوال الاجتماعية في قرطاجة التي عاش بها.

116) منصب «الأيديلية» منصب مسؤولية في النظام الروماني، أنشيء سنة 494 ق.م للطائفة الشعبية التي كانت تنتخب له شخصين من بين أفرادها (Aediles curules) . مُهمّتهم شرطة الأسواق ومراقبتها، ومراقبة الأقوات، والسهر على المدينة وشرطتها، وتنظيم الألعاب العمومية والسهر عليها. ولمجلس «الأيديل» سلطة قضائية نتج عنها أن صارت أحكامهم أعرافا مدونة معمولا بها.

117) پْلين : ك 5، 24.

118) المثنى duumvir، اتخذت هذه الترجمة للكلمة اللاتانية التي بجوارها، المركبة من duo Hd اثنين ومن vir أي رجل. وكان اللفظ يطلق على كل واحد من العضوين المكونين للجنة الاثنين التي كانت مهمتها تختلف بحسب ما عينت له. فكانت هناك لجنة اثنين تكلف هي من يصلح معبدا أو يبنيه، ولجنة أخرى مكلفة بإصلاح الطريق خارج رومة وغير ذلك.

119) فتكون كما يلي (C) olsnia (I) ulia (H) adrumetina.

120) Triumvir من très ثلاثة وvir رجل، وهو موظف مسؤول مع اثنين آخرين. ويحمل كل منهم نفس اللقب، فيكوّنون جميعا لجنة ثلاثية. ولذلك عربتُ Triumvir بكلمة مثلّث. وهذه اللجان يمكن أن تتعدد، ولكل منها مهمة خاصة.

121) تيت ليف Titre-live وُلد ومات في مدينة بادو Padoue بإيطاليا، وإن كان عاش في مدينة رومة. اشتغل بالأدب والفلسفة. وفي سنة 25ق.م شرع في كتابة تاريخ عام لرومة، في 142 كتابا، بدأه بالعهود الأسطورية (1200 تقريبا ق.م) إلى سنة 9 ق.م. ولكن ضاع معظم تاريخه ولم يبق منه سوى 35 كتابا.

122) يذكر أپْيان في الحرب الأهلية ك 4، 54 : إن أَرَبْيون لما عاد إلى أفريقيا بعد موت قيْصر، بعث عدة مرات إلى أسبانيا عددا من الأهالي حاربوا مع سِكْسْتوس پومْپي Sextus Pompée، ثم عادوا إليه وقد تدربوا على الَحرب. ويظهر أن أپْيان كان يعتقد أن أَرَبْيون طرد بوكوس بعد ذلك من مملكة مسنيسا، وقتل سيتيوس. لكن سيسرون يخبرنا أن سيتيوس مات بعد قيصر بقليل.

123) أي : Triumviri rei publicae constituendae.

124) أپْيان ك 4، 53-56 ديون كاسيوس ك 48، 21.

125) سبق أن ذكر أن سيكْسْتيوس هذا كان على الولاية القديمة لحساب أنطوان، بينما كان فانـگو على الجديدة لحساب أوكتاف. ويقول الآن إن سيكستيوس طلب القديمة من فانـگو، فهل يكون فحوى التعديل الآخر الذي حدث بين أوكتاف وأنطوان هو تبادل الولايتين؟

126) ذكرت كما يلي Provinciae Galliae, Hispaniae
Africa, Sicilia, Sardinia.

127) ديون كاسيوس: ك53، 12، 4.

128) أپْيان : الحرب الأهلية، ك 5، 26.

129) ديون كاسيوس : ك 48، 45، 1.

130) بورْفيرْيوس في «الزّهد» De abstinentia ، ك 1، 25.

131) ديون كاسيوس : ك 48، 45، 2-3.

132) ديون : ك 50، 11، 3 سترابون : ك 8، 4، 3 بورْفيرْيوس، نفس المصدر أعلاه.

133) بل كان له أبناء في سنة 45 ق.م، كما ذكر ذلك ديون كاسيوس في ك 43، 36، 1. ارجع لما سبق بالصفحة رقم 140 من ترجمتنا هذه.

134) ديون كاسيوس : ك 49، 43، 7.

135) هي الوثيقة التي سبقت الإشارة إليها في صفحة 175 من ترجمتنا هذه.

136) ديون كاسيوس : ك 50، 6، 4. في الحرب التي سيخوضها أوكتاف سنة 32 ضد أنطوان، كان مع أوكتاف الليبيون، ليس فحسب من كان منهم خاضعا من قبل لروما (باستثناء أهل قورينة) بل حتى الذين كانوا رعايا لبوگود، وبوكوس.

137) دُعيت باسم Colonia Julia Augusta Salditana Legionis VII Immunis فكان بها الفيلق السابع، وكانت Immunis أي معفية من الضرائب. أما المستعمرة الثالثة فهي : Colonia Julia Augusta Rusazus legionis VII Immunis، وهي أيضا كانت معفية، وكان بها الفيلق السابع.

138) دعيت باسم : Colonia Julia Augusta legionis VII Tubusuptu ولم يذكر المؤلف عنها أنها كانت معفية.

139) اسمها الرسمي : Colonia Julia Constantina Zulil وقد ذكر بومْبونْيوس مِيلاَ هذه المستعمرة في نص هو اليوم مبتور ك 3، 7، 1. وكانت له أسباب خاصة لمعرفة زيلي Zili، ولكنه لم يعط أية إشارة عن المستعمرات الأخرى التي أسسها أوغسطس في الموريطانيتين، لأن الكتاب الذي اعتمد عليه مِيلاَ كتب قبل تأسيسها.

140) هي : Colonia Julia Campestris Babba وهي موصوفة بكونها Campestris، فقد كانت إذن في سهل، أو كان بها ميدان للإله مارس، ربّ الحروب، تجري به الألعاب الحربية والتدريبات العسكرية.

141) هي : Colonia (Julia) Valentia Banasa.

142) قرطاجة الجديدة تعريب Carthago Nova الذي يطلق في الحقيقة على المدينة البونيقية التي يعزى بناؤها لحسْدربَعْل أخى حنّيبَعْل. واسمها البونيقي قَرَتْ حَنت (القرية الجنة)، عربه العرب باسم قَرْطاجنّة، واسمها الأسباني اليوم Carthagène، وتسميها عامتنا قَرْطَخَنَّة (بالخاء) من اسمها الإسباني. وهي على البحر الأبيض المتوسط بولاية مُرْسِية. ولاشك أنها غير قرطاجة التي بتونس.

143) ديون كاسيوس : ك 51، 15، 6.

144) نفس المصدر : ك 53، 26، 2.

145) انظر التعليق رقم 143، بنفس الكتاب والفصل والفقرة.

146) انظر التعليق رقم 144، بنفس الكتاب والفصل والفقرة.

147) حدث مثل ذلك في عهد أوغسطس بجهة أخرى واحدة على الأقل، فقد صار يولْيوس كوتْيوس Julius Cottius والياً على المدن الألبية التي سبق أن كان أبوه ملكا عليها.

148) تاسيتْ Tacite ولد حوالي 57 م وتوفي سنة 120م. وهو من أصل روماني، ولد ببلاد الغال البعيدة. مكنته ثقافته والوظائف المختلفة التي تنقل فيها، ومعرفته بالشؤون العامة من أن يكون ذا نظرات صائبة وآراء سديدة في تفسيره للأحداث التي عرفتها الإمبراطورية الرومانية من موت أوغسطس إلى عهد ضوميتيان. اشتهر على الخصوص بكتابيه : «التواريخ» Les Histoires ، و«الحوليات» Les Annales.

149) ديوان النقوش اللاتانية : C.I.L، ج 8، النقش رقم 627 20، الذي عثر عليه بالقرب من بُرْج بوعْريرَج.

150) خريطة أگْريبا Agrippa أوردت موريطانيا وجيتوليا مجمعتين، إشارة لمجموع الأراضي التي كان يوبا الثاني يملكها حين تحرير هذه الخريطة.

151) سترابون : ك 4، 4، 3.

152) ديون كاسيوس : ك 53، 26، 2.

153) سترابون : ك 17، 3، 7.

154) عبّر الكاتب بكلمة Coin أي اللزاز الذي يسد الفراغ بين شيئين. ولكنني فضلتُ على كلمة لزاز لفظة الحَيْد (بفتح فسكون)، ومعناها الحرف الشاخص يخرج من الجبل، أو الجدار البارز في سور

حصْن. (معجم المصطلحات الأثرية للشهابي). ولاشك أن كلمة حَيْد أكثر مناسبة للمعنى الفرنسي المراد.

155) ديون كاسيوس : ك 51 , 15 , 6. والحقيقة أن هذا النص لا يعطي أي تاريخ لا لزواج كيلوبترا، ولا لتولي يوبا المُلْك.

156) REV. Archeol, I9I0, I, P. I40-I.

157) هو فْلاڤْيوس يوسف Flavius Joseph المؤرخ اليهودي الذي ولد سنة 37م، وتوفي سنة 100م. وقد ترك آثارا أهمها «حرب اليهود»، Guerre des juifs الذي تحدث فيه عن الحرب بينهم وبين الرومانيين وكتاب «الماضَويات اليهودية» Antiquités Juives وترجمة حياته بقلمه.

158) الجَدْي Capricorne هولة مكرسة للإله «بان» Pan ربّ المراعي والرعاة والغابات. وتذكر الميثولوجيا الإغريقية أن الآلهة اجتمعت في مأدبة على ساحل النيل. وفجأة ظهر تيفون وهو أخو أوزِريس، ويمثل فكرة الشرّ والظلمات والقحط. فاستولى الذعر على الحاضرين وتشتتوا فرارا منه، لكن «بان» ارْتمى في النيل حتى غطت المياه نصف جسده. وكان نصفه الأسفل سمكة ونصفه الأعلى جدْياً أو تيساً. وتغلّب على تيفون. والصورة التي يتحدث عنها المؤلف هنا، والمرسومة على النقود تمثله كذلك حيوانا نصفه سمكة ونصفه تيس بقرون طويلة، ولاشك أن هذا مما يمثل التأثير المصري العميق في نفس كيلوبترا سِليني المصرية الأصل، حتى بعد أن صارت ملكة لموريطانيا البعيدة عن مصر.

159) هناك أيضا من قال بأن هذا الرأس ليوبا، ومن قال إنه لكيلوبترا سليني، أما التاج المعدني فيشهد له وجود الحز الذي كان التاج متبثا فيه.

160) ديون كاسيوس: ك 55، 28، 4. (والنص يذكر التاريخ باللفظ).

161) في ك 2، 31. وفلوروس مؤرخ لاتاني من أصل إفريقي. عاش في أواخر القرن الميلادي الأول. واشتهر باختصاره للمؤرخ اللاتاني الآخر تيت ليف، كتابين يعرفان اليوم باسم «مختصر التاريخ الروماني» جعل أولهما للحروب الخارجية، والثاني للحروب الأهلية.

162) تاسيت، الحوليات Annales : ك 2، 52. وك 3، 72. وك 4، 23. وانظر أيضا فيليوس باترِكْلُوس Velléius Paterculus ك 125، 5.

163) تحيرتُ في كلمة دونْيي Denier التي لم أعثر على المقابل الصحيح لها في العربية، ولذلك ترجمتُ اللفظة من قبل بالفلْس ثم ترجمتُها هنا بالدوانق ائتناسا بالشبه اللفظي فحسب.

164) ك 6، 201.

165) بل هي مركز فنيقي سابق جدا لعهد حنّون، انظر آخر ما صدر في هذا الموضوع : A. Jodin : Mogador, comptoir phénicien du Maroc atlantique, Editions Marocaines et internationales. Tanger, 1966

166) انظر ديوان الكتابات اللاتانية C.I.L تحت أرقام 9344, 9346, 9348, 9349, 9350, 20977, 21085, 21090، وانظر كذلك نفس المصدر، ج 8 عدد 21068. وج 6 برقم 10110.

167) انظر C.I.L، ج 2، رقم 3417، حيث ورد ذكر يوبا الأول، وهيمْبسال Hiempsal، وگوْضا Gauda، ومسنيسّا. وبين گوْضا ومسِنيسّا أهملت الكتابة ذكر مَسْتَنَبَعْل Mastanabal إما سهواً، وإما لعدم وجود لفظ لاتاني مناسب للتعبير عن درجة القرابة بينه وبين يوبا (حسب رأي مومْسِن Mommsen).

168) Héron de Vallefosse : Musée africain du Louvre, Pl. III, Fig 2.

169) المؤلف عبّر بالفرنسية بكلمة Arrière-petit-neveu ومعناها بحسب القرابة بين مسِبْسا ويوبا الثاني، حفيد حفيد أخيه. لأن التسلسل يجري على هذا النحو : يوبا الثاني، يوبا الأول، هيمْبسال، گوْضا، ثم مَسْتَنَبَعْل الذي هو أخو مِسِبْسا. وطبعا فضلتُ الاختصار معبراً بكلمة "قريبه".

170) انظر القصة عند بلوتارك في ترجمته لحياة سِرْطورْيوس Sertorius.

171) پْلين الشيخ : ك 5، 51.

172) نفس المصدر: ك 5، 16.

173) كان مُسْتَراض Gymnase بْطُلِمي حيث نصب تمثال يوبا مشتملا على خزانة (انظر بوزانْياس : ك 1، 17، 2).

174) بلوتارك في ترجمته لسِرْطورْيوس، الفصل 9.

175) بْواسّي : إفريقيا الرومانية. ص 26. الطبعة الثانية.

176) بلوتارك في ترجمته لقيْصر، الفصل 55.

177) Athénée, III, 25 , P. 83, b.

178) Festus Avienus, Ora Maritima, 280.

179) انظر، كَنْتيلْيان : Quintilien : ك 6، 3، 90. وكذلك أثيني : ك 8، 31، ص 343.

180) لاشك أنه اطّلع على رحلة حنّون، ولكن الظاهر أن الألفاظ الإغريقية الواردة في هذه الترجمة هي التي دفعته لارتكاب خطأين. الأول أنه جعل بقادس Gadès أعمدة هرقل لا على المضيق. الثاني أنه جعل قرن الجنوب Corne du sud رأساً (Cap).

181) پْلين : ك 5، 51.

182) پْلين : ك 5، 51، 53. لم يذكر پْلين يوبا حرفياً. ومن الواضح أنه لم يستق منه الفقرة التي تقول إن التمساح الذي جعله الملك في الأيسْيوم (معبد إيزيس) لايزال به، ولم يستق منه كذلك الإشارة الواردة إلى موريطانيا القيْصرية الولايتين اللتين أحدثهما الإمبراطور كْلود. ولكنني لا أفهم لماذا يكون پْلين قد استقى معلوماته من مؤلِّف نقلها بدوره عن يوبا. إذن فلا مانع من القول بأن پْلين، وهو من أمراء البحر، قد وصل بحرا إلى قيْصرية وشاهد بها التمساح (الذي عمّر حتى شاخ).

183) پْلين : ك 6, 203-205. ومِيلاَ : ك 3، 102.

184) پْلين : ك 6، 202.

185) Vidal de la Blache في Mélange Parrot ص 328.

186) بومْبونْيوس مِيلاَ : ك 3 , 90-95-99. وپْلين : ك 2، 169. ك 200-187,6-188-197-199 وهي كلها اقتباسات من كُرْنيلْيوس نيپوس.

187) إذا صدّقنا سْويداسْ Suidas، فإن ديديم هذا كانت له مناقشات ومجادلات مع يوبا.

188) كان بلوتارك يجعل يوبا ضمن الكتّاب الإغريق، انظر ترجمة بلوتارك لقيْصر في الفصل 55، ومقارنته بين پيلوپيداس Pélopidas ومَرْسيلوس Marcellus في الفصل 1.

189) جُمعت هذه المقتطفات في : Fragnenta Historicorum Graecorum، ولموِلَّر Mûller، ج 3 من صفحة 465 إلى 484. وسيشار لهذه المجموعة في التعاليق المقبلة باسم مولَّر، وحرف الفاء الدال على الفقرة، ثم يذكر رقما من بعد، مثل : مولَّر، ف 84.

190) هل المقصود هنا الطيور المعروفة بالإسم العلمي Diomédéidés. ومنها الفطْرُس Albatros ؟ ولكن هل الكاتَراكْت يقصد بها الطيور التي يطلق عليها الإسم العلمي Catarrhactes ومنها الغراف المذهب Gorfou doré ؟ إن هذه الطيور من الفصيلة البتراء Manchots، ولا يُعقل أنها تزور منطقة أبولْيا Apulie بجبال الأپْنين الجنوبية. والصواب أنها طيور خرافية كما سنرى في صفحة 247.

191) پْلين : ك 5, 16.

192) ما يتعلق بالفِيَلة، انظر مولَّر : الفقرات 30 إلى 36.

193) لم أعثر على مقابل عربي لاسم الحيوان المعروف بالـ Gnou. فعربته باسم الغنوة، واسمه العلمي هو Connochactes من فصيلة الظباء Antilopes (انظر معجم الحيوان لأمين المعلوف. ص 12، مادة Antilopes) ولا تزال الغنوة موجودة إلى اليوم بغابات

إفريقيا. وهي في حجم الحمار، بكفل وذيل يذكّر بالفَرس، ولها عنق ورأس وقرون تذكر بالثور.

194) مولَّر، فقرة 24.

195) فقرة 19 , 23.

196) أفضلُ التمييز في العربية – كما في غيرها – بين مملكة طروادة Troade، وبين عاصمتها طرواء Troie. فذلك خير من تسميتهما معا باسم واحد هو طروادة، فرارا من الالتباس.

197) مولَّر، الفقرات : 1-2-3-4-6-16-17-18. مع العلم أن الفقرة 16 المذكورة آنفا والتي تشير إلى إحدى مدن أسبانيا قد أخذت هي أيضا من نفس الكتاب على ما يظن.

198) الكَلَنْدات Calendes هي مفتتح الشهر القمري. فهي إذن من الغرر حسب التسمية العربية القديمة. والنونات هي اليوم السابع من مارس وماي ويوليوز وأكتوبر، وهي اليوم الخامس من بقية الشهور الأخرى. فتكون النونات حسب التسمية العربية القديمة من النفل إن كانت خامسة (لأن النفل هي اليوم الرابع والخامس والسادس من الشهر)، أو تكون من التسع (لأن التسع هي اليوم السابع والثامن والتاسع من الشهر). أما الإيدات Ides فهي عند تمام البدر، الليلة البيضاء، فهي إذن ليلة السواء. انظر «بلوغ الأرب» للآلوسي. ج 3 ص 225.

199) انظر الفقرات : 5-7-8-9-10-12-13.

200) الفقرات : 11-21-22

201) پْلـيـن، ك 9 ,115، وك 6 ,141، وك 12 ,56، وك 32 ,10، وانـظـر الفقرات : 39a-39-41-42-44-47-48-65.

202) الـفـقـرات 39a-46-47-48-49-50-51-53-55-56-57-58-59-60 -61-62-63-64-65-6.

203) پْلين، ك 5 , 16، وفي ك 25 , 77، عزا الاكتشاف للملك يوبا نفسه. أما ديوسْكوريد Dioscoride ك 3 ,82 فيقول : الاكتشاف حدث في عهد يوبا في أرض الأطْلوليّين Autololes. وانظر الفقرتين 26-27. أمـا الأوفـورْب فـعـدّة أنـواع تـشـمـلـهـا عـائـلـة Euphorbiacées، ومنها : Euphorbia Falcata و Euphorbia Glebulosa وE. Guyoniana. وكل هذه الثلاثـة تُعرف عندنـا باسم أمّ اللبينـة. (كـمـا ذكـر ذلك A.S. Gubb في كتابه La Flore Saharienne، ص 47-49). لكن النوع المقصود صراحـة هو الفصيلـة المعروفـة علميا باسـم : Euphorbia Regis Jubae Webb، واسمها المغربي هـو تيكيـوتْ Tikiut ويُعـرف صمـغـهـا (الدمـاع) بـاسـم الفرْبْيون Ferbyoun. ولايزال موجودا بناحية وادي الشرّاط وناحية آسفي. (كما ذكر ذلك Luis Emberger في كتابه Les Arbres du Maroc، ص 211...)

204) الفقرات : 70-71-72-73-74-75-76-77-78-79-80-81.

205) سترابون : ك 17، 3، 7.

206) من بين هـؤلاء العتقاء، كان آيدْمون Aedmon يُبدي تعلقا كبيرا بذكرى بْطُلمي، حتى قاد ثورة كبيـرة ضد الرومانييـن عقب اغتيـال الملك. انـظـر پْلين الشيـخ، ك 5 ,11. وكذلك Cagnat وMerlin وChatelin فـي Incr, Lat, d'Afrique تـحـت رقـم 234، وانظر أيضا تاسيتْ في «الحوليات»، ك 4 ,23-24-26.

207) ديون كاسيوس : ك 59، 25، 1.

208) كليـگولا : 17-20 – وانظر ديون : ك 59 , 22-1.

209) يظهر أن الأمر يتأكد من الكتابة الواردة في C.I.L، ج 8 رقم 8630 التي تذكر تاريخ 3 غشت سنة 452 في تاريخ رومة موافقة لسنة 413 من تاريخ الولاية. وكان التاريخ يبدأ على الأكثر من 3 غشت 40 أي قبل موت بطلمي حسبما نظن.

210) پْلين الشيخ : ك 5، 2.

211) ديون كاسيوس : ك 60، 9، 5. أوريليوس فيكتور : قيْصر ك 4، 2 پْلين : ك 5، 19.

الفهرس

الجـزء الثامن

تمّ الجزء الثامن

وبه كمل الكتاب بأجزائه الثمانية

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط - 2007